



جامعة العلوم الإسلامية
بليغون

كلية اللغة العربية
والعلوم الإنسانية

مجلة القَفْزُ

مجلة علمية حولية محكمة

تصدر عن:
كلية اللغة العربية والعلوم الإنسانية
جامعة العلوم الإسلامية بليغون

السنة الأولى / العدد الأول
1443 هـ - 2022 م



كلية جمعت علومها جمعة وقواشع الإقناع والإمتاع
فشعارها الإخلاص في أعمالها والبذل والافتقار والإبداع





جامعة القادسية
بليون

كلية اللغة العربية
والعلوم الإنسانية

مجلة القَفْز

مجلة علمية حولية محكمة

العدد الأول
1443 هـ - 2022 م

رقم الإيداع في المكتبة الوطنية بنواكشوط:

2022 / 000

مجلة القَفْز

مجلة علمية حولية محكمة



الهيئة الاستشارية

لبروفيسور محمد و لمرباط اجيد
لبروفيسور محمد ولد اعر
د. محمد المامون مينحن
د. النعمة أحمد مودي
د. المصطفى البشير
د. عبد الله سيد أحمد قال
د. الشيخ معاذ سيدي عبد الله
د. أحمد دولة محمد الأمين
د. محمد أحمد السيد
د. محمد المختار محمد فاضل
د. سيدي محمد المصطفى الجيد
د. أحمد سالم محمد فاضل
د. صالح الطيب دهماش
د. الشيخ التجاني خيري

المتابعة والتوزيع

بوسيف لحبيب
سيدي محمد إبراهيم
سيد أحمد عالي

سحب

مطبعة المزابيا
Imprimerie Al Mazaya

انواكشوط - موريتانيا

المدير الناشر

د. أحمد محمود افاه
هاتف: + 222 22379609

رئيس التحرير

د. مامودو كان
هاتف: + 222 22379613

سكرتارية التحرير

د. أحمدو محمد الأمين قال
د. أحمد محمود زيدان
د. محمد بن قال محمد يحظيه
د. محمد الأمين محمد المصطفى

التصميم والإخراج

عبد الرحمن ولد الداه (عباد)
هاتف + واتساب: + 222 26438981

تصميم الغلاف

مولاي الزين مولاي البشير
هاتف + واتساب: + 222 41800900

عنوان المجلة

هاتف / فاكس: +22245151322
ص ب 20 لعيون - موريتانيا
بريد إلكتروني:
rev.alghif@gmail.com

محتويات العدد

- 1 - كلمة العدد 7
- 2 - الشناقطة وتطبيب الأكفاف بطرائف من آداب الأقفاف؛ (وقفات مع تطور الأساليب النثرية في أكناف المنشآت المحظريّة) 9
- 3 - أثر الحرف في فهم دلالات الألفاظ القرآنية؛ الأيات من 260 إلى 264 من سورة البقرة «أنموذجاً» 24
- 4 - من قضايا الشعرية في التراث العربي (الجاحظ وأبو حيان أنموذجاً) 34
- 5 - وقفات مع الدرس النحوي الشنقيطي 46
- 6 - الماء والتعمير في صحراء المثلثين من خلال مسالك البكري 60
- 7 - البعد البيئي في المخططات الحضرية لمدينة نواكشوط 70
- 8 - الفكر الصوفي عند العلامة الشيخ محمد المامي (ت1282هـ) من خلال شعره الفصيح والحساني 79
- 9 - من مظاهر اللهجات العربية القديمة في القراءات القرآنية والعاميات العربية المعاصرة 99
- 10 - حضور فلسطين في الشعر الموريتاني المعاصر 112
- 11 - الإسهام العلمي للمرأة الشنقيطية؛ نماذج مختارة 119
- 12 - مظاهر التميز في المنهج المحظري 133
- 13 - المباحث اللغوية التي يحتاج إليها الأصولي في استنباطه الأحكام الفقهية 145
- 14 - رفع التعارض عن حديث النبي صلى الله عليه وسلم في موضوع أحكام الشعر في الإسلام 153
- 15 - تقرير عن: تجربة «كرسي فحول الشعر العربي المعاصر» 162

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة العدد

د. أحمد محمود أفاه

المدير الناشر

عميد كلية اللغة العربية والعلوم الإنسانية



يطالعكم العدد الأول من مجلة «القف» التي أرادت كلية اللغة العربية والعلوم الإنسانية مجالا رحبا للعطاء العلمي المؤسس على قاعدة منهجية تستصحب جملة موجّهات من بينها:

• الجمع في الإنتاج البحثي بين راهنية البحث وأصالته؛ وهو توجه ابستمولوجي، آلت الكلية على نفسها أن تجعله مرتكزا قارا في الأداء، سواء على مستوى الدرس الأكاديمي أو على مستوى الإنتاج العلمي... من هنا تأتي وجاهة تسمية المجلة؛ إذ يعد مصطلح «القف» مكتنزا بخصوصية الثقافة الشنقيطية التي جعلت من (النثر الخليلي) نموذجا أسلوبيًا وظفته في سياقات اجتماعية وأدبية وفنية عديدة، فكان عنواننا لإبداع الذائقة الشنقيطية وقدرتها على التجديد والتطوير.

• الالتزام بتطبيق أدبيات البحث المعاصر توثيقا ومعالجة ومنهجًا ومضمونا، وهو ما تجلّى في تنوع مضامين هذا العدد؛ التي جمعت التفسير، واللغة، والنقد الأدبي، والتاريخ والفلسفة، وقضايا التنمية والجغرافيا السكانية، وكان للمنهج المحظري الحظ الأوفر؛ استعراضا لملامح الدرس النحوي الشنقيطي، وعرضا لمدونة الأقفاف باعتبارها إبداعا موريتانيا خالصا.

• الاستفادة من الخبرات البحثية والعلمية من داخل الكلية وخارجها سعيا إلى خلق منبر علمي يحقق حوار المناهج والأجيال، ويسمو بالمجلة إلى مستوى الأصالة والبحث المكين.

لقد جاء هذا العدد ثمرة لتلك التوجهات المنهجية ونتيجة لعمل مشكور من أساتذة وباحثين بذلوا جهودا مضيئة في قراءة وتحكيم البحوث وإغنائها. وأملّي كبير أن تشكل «القف» إضافة نوعية ومنبرا للإنتاج الجاد والبحث الرصين.

تنويه

**البحوث والمقالات
المنشورة في هذه المجلة تعبر عن
آراء أصحابها، ولا تعكس بالضرورة
وجهة نظر المجلة، أو إدارة الكلية
والجامعة.**

الشناقطة وتطبيب الأكفاف بطرائف من آداب الأقفاف

(وقفات مع تطور الأساليب
النثرية في أكناف المنشآت
المحظريّة)

الدكتور محمد بن
أحمد بن المحبوبي

أستاذ النحو وعلوم اللغة - المعهد
العالي للدراسات والبحوث الإسلامية /
نواكشوط - موريتانيا

تقديم

نود في هذا الجهد أن نتلبث يسيرا مع جانب من التراث الشنقيطي ذو صلة بمستجدات النثر الفني ومستطرفاته، نقصد هنا ما يعرف بـ«الأقفاف» (1) التي تعد فنا من الفنون النثرية الطريفة يستمسك بخصوصيته الإبداعية في بنيته وذاته، ويعمل في الوقت نفسه على محاكاة مختصر خليل ومحاذاته.

وقد عولت هذه الأقفاف على تتبع نهج هذا المختصر في إيجاز القول وكثافة المضمون، وخصوصية هذا اللون تكمن في أنه يزاوج بين الطرائف الأدبية والأساليب الفقهية في نموذج فريد يعتمد في الغالب نهج الدعابة والتنكيت، ويجنح إلى شيء من النقد اللاذع والتوجيه المحكم، وهو في جملته يتناول موضوعات الدراسة والتثقيف، ومظاهر الموضة والتحديث، وآليات التجارة والتبادل، دون أن يهمل بعض جوانب التسلية والترفيه، معولا في ذلك كله على تضمين رفيع المعاني واستحضار لطيف الألفاظ كل ذلك في لمحة من الأحكام والتنسيق، ومسحة من الإحياء والتجديد.

فماذا عن هذه الأقفاف مفهوما وتصورا ونشأة وتطورا؟ وكيف حاور العلماء الشناقطة الأسلوب الخليلي مقتفين أثره؟ وما المضامين التي عولوا عليها في هذه الاختصارات الفنية؟ وهل مالوا إلى المكاشفة والتصريح؟ أم أنهم ركنوا إلى الإشارة والتلميح؟ مكتفين بمعالجة قضايا الأمة من خلال منهج ينتقد الواقع ويروح عن النفس ويخفف من هموم الحياة؟

ذلك ما نسعى إلى الإجابة عنه من خلال هذا الجهد مقسمين الموضوع إلى ثلاثة محاور رئيسة نعرض لها تباعا فيما يأتي:

1 - جمع قف، ويعني عند الشناقطة الحصة المحددة للدراسة يوميا من مختصر خليل، وقد شاع بين الطلاب توزيع المختصر الخليلي إلى حصص دراسية تبلغ 333 حصة، ولعل الأصل في «القف» أن الطلاب كانوا يكتبون عبارة «قف» عند نهاية الحصة اليومية، فتحول فعل الأمر مع كثرة الاستعمال ليدل على هذا القدر المدروس يوميا من هذا المختصر فتم الانتقال من الفعل إلى اسم.

أولاً: الموضوع تصور وتقديم

وفي سياق هذا المحور نعرض لمسألتين أولاهما تعمل على محاوره العنوان وتحليله، وثانيتهما تهتم بمقاربة الموضوع وتأصيله.

أ - العنوان: مناقشة وتحليل

يتألف عنوان هذا الموضوع من طرفين أولهما الشناقطة، وثانيهما «تطبيب الأكفاف من آداب الأكفاف» وقد ربطت بينهما أداة العطف «الواو»، فالشناقطة جمع شنقيطي، نسبة إلى مدينة شنقيط، وهي مدينة في الشمال الموريتاني، وكانت تطلق في القديم على المجال الجغرافي المعروف اليوم بـ«موريتانيا»، فهي تسمية أطلقها أبناء البلاد العربية على سكان هذه الأرض فقبلوها عن طيب خاطر ورحابة صدر، وصاروا لا يعرفون خارج بلدهم إلا بها، ولعل الأصل في اعتمادها أن مدينة شنقيط كانت منارة العلم ومركز التجارة ومنطلق ركب الحجيج، إذ يؤمها من حولها من أهل القرى، فقد أصبحت منذ أواخر العاشر الهجري ذات شهرة كبيرة وسيرورة بين الناس، فهذه التسمية تحمل دفئاً معرفياً وعمقاً تاريخياً وبعداً حضارياً، لذلك اعتمدت في عناوين عدد من الكتب والدراسات والبحوث المتعلقة بمعارف البلد وتاريخه الثقافي(1).

أما الطرف الثاني من العنوان فيبدأ بكلمة «تطبيب» التي هي مصدر طيب الشيء إذا صيره طيباً وضمخه بالطيب(2) والأكفاف جمع كف، وهي الراحة مع الأصابع(3) والطرائف جمع طريفة، صفة مشبهة من طرف الشيء طرافة إذا صار طريفاً، والآداب جمع أدب وهو ما أثر من جميل القول نظماً ونثراً.

والأكفاف جمع «قف» وهو مصطلح أطلقه الشناقطة على الحصة اليومية التي تدرس من مختصر خليل، وكلمة «قف» هي في الأصل فعل أمر من وقف لأن الطالب كان إذا أكمل درسه اليومي من هذا المختصر كتب كلمة «قف» إشارة إلى نهاية القدر المخصص للدرس اليومي من هذا النص الفقهي. وبذلك فإن هذه اللفظة انتقلت من الفعلية إلى الاسمية. وقد جاء هذا العنوان ليصرف الأبصار تلقاء هذا المستحدث النثري الذي يستميل القارئ بلطيف عباراته ورائع اختصاراته وهو ما جعل الشناقطة عليه يقبلون ونحوه يسرعون مستكثرين من نماذجه فخلفوا في جانبه تراثاً معتبراً. وقد اعتنى هذا الجهد بقراءة عدد من الأكفاف الشنقيطية واستنطاقها منبهاً البحث والدارسين إلى تميز هذا النمط النثري الذي راج بالأوساط الشنقيطية في القرن الماضي، واعتمد بوصفه آلية أسلوبية متميزة، تتخذ من منهج خليل بن إسحاق وأسلوبه في الكتابة والاختصار مثلاً أعلى وأنموذجاً يحتذى، فتسابق الكتاب إلى هذه المدونة الفقهية ينسجون على منوالها ويقتبسون رفيع أقوالها.

ب - الموضوع: مقاربة وتأصيل

وفي هذا المحور نود لو نؤصل هذا الموضوع متلبثين مع مفهوم «الأكفاف» من جهة، ومحاولين التأريخ لهذه الظاهرة من جهة أخرى.

1 - نذكر من ذلك على سبيل المثال الوسيط في تراجم أدباء شنقيط: لأحمد بن الأمين، بلاد شنقيط المنارة والرباط: خليل النحوي، والشعر الفصيح في بلاد شنقيط: عبد الله بن ابنحميده، أدب الرحلة في بلاد شنقيط: د. محمذن بن أحمد بن المحبوبي.

2 - المعجم الوسيط إبراهيم أنيس وآخرون، القاهرة 1972، مادة طاب.

3 - المرجع السابق، مادة: كف.

1 - الأقفاف: النشأة والتأريخ

يحسن بنا في هذا المقام أن نذكر بأن مبادرة توزيع «مختصر خليل» إلى حصص يومية ووحدات دراسية تعرف بالأقفاف ترجع إلى جهود أربعة من طلاب علي الأجهوري(1)، مثلوا جيلا دراسيا فريدا، فقد درسوا هذا المختصر على شيخهم، وقد كانوا من أجويد طلبته كما تشهد لذلك مؤلفاتهم وصيتهم العلمي المدوي، فقرأوا على الفقيه المذكور بوصفهم «دولة»(2) وهم عبد الباقي(3)، والخرشي(4) والشبرخيتي(5) والنشرتي(6) وقد تحدث النابغة الغلاوي(7) عن الإمام الأجهوري وتلامذته في كتابه «بوطليحية»، مقوما كتبهم وواضعا آراءهم في الميزان، فتناولهم ضمن فصل عقده للكتب التي لا يعتمد عليها فيما انفردت بنقله، يقول(8):

بيان ما من كتب لا يعتمد	ما انفردت بنقله طول الأمد
من ذلك الأجهوري مع أتباعه	مع اطلاعه وطول باعه
إذ خلط الحصباء بالدر الثمين	ولم يميز بين غث من سمين
وما يقال فيه قل في الباقي	كالشبرخيتي وعبد الباقي
والخرشي بالكسر لكل قوله	والنشرتي رابع للدولة
لأنهم قد قلدوا ما قاله	شيخهم ونقلوا أنقاله

وتعد ظاهرة «الأقفاف» نموذجا في الأساليب النثرية فريدا لم يكن متداولاً في القديم، فيمكن القول في شيء من التجوز - والعلم عند الله - إن الشناقطة هم الذين ابتدعوا هذا اللون الأدبي بمهاراتهم وذكائهم فبحكم معاشيتهم المستمرة لمختصر خليل صار أسلوبه المتميز لائذا بقلوبهم، لكثرة ما تردد على الأذان وحصل في الصدور، فاستمالهم بقصر فقراته واختصار عباراته فطفقوا يحاكون نهجه في الأحكام والإيجاز عاملين على شحن قوالبه النثرية بمضامين تروقههم، وكثيرا ما استودعوها جملا من لاذع النقد ورائع النقل ونبذا من الطرف الأدبية وربما ساقوا بعضا من أوصاف ساخرة لا تخلو من نكت آسرة ساحرة.

1 - هو أبو الإرشاد نور الدين علي بن زين العابدين الأجهوري (975هـ - 1066هـ) شيخ المالكية في مصر على عهده بلا منازع، أخذ عن أعلام عدة منهم البنوفري، والبدر القرافي وعثمان القرافي وغيرهم، وأخذ عنه جمع، منهم الخرشي والشبرخيتي، وعبد الباقي وابنه محمد وغيرهم، له مؤلفات منها ثلاثة شروح للمختصر، صغير ومتوسط وكبير وله شرح على الرسالة.

2 - الدولة: اسم للشيء الذي يتداول بعينه، وتطلق على الانتقال من حال إلى حال، وهي في الاصطلاح المحظري الشنقيطي تطلق على جماعة من التلاميذ، يدرسون بشكل جماعي على شيخ متنا معينا أو مقررا دراسيا موحدًا.

3 - هو عبد الباقي بن يوسف بن أحمد الزرقاني الفقيه المشهور، (1020هـ - 1099هـ) له مؤلفات عدة منها شرح خليل يعرف باسمه ورسالة في النحو وشرح على خطبة خليل على اللقاني،

4 - هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخرشي (ت 1105هـ) الفقيه المصري المالكي المعروف، شيخ المالكية في مصر على عهده أخذ عن والده وعن البرهان اللقاني، وعلي الأجهوري وأخذ عنه جماعة منهم أحمد الشبرخيتي وشمس الدين اللقاني ومحمد النفراوي، من مؤلفاته شرحان على المختصر كبير وصغير.

5 - وهو أبو إسحاق برهان الدين إبراهيم بن مرعي الشبرخيتي، (ت 1106هـ) أخذ عن علي الأجهوري، وبه تفقه، وعن الشيخ يوسف الفيشي وأخذ عنه الشيخ إبراهيم الجمي، له عدة مؤلفات منها: شرح على مختصر خليل.

6 - هو ناصر الدين محمد بن عبد الله النشرتي المالكي (ت 1120هـ) له كتاب الأنوار الواضحة في السلام والمصافحة.

7 - هو محمد (النابغة) بن عبد الرحمن بن أحمد بن بنيوك القلاوي (ت 1245هـ) عالم جليل ونظامه مجيد، جال في البلاد الشنقيطية، متنقلا من مدينة شنقيط إلى الحوض، إلى منطقة القبلة بالجنوب الموريتانية أخذ عن خاله عبد الله بن الحاج حماد الله القلاوي (ت 1208هـ) وعن أحمد بن العاقل (ت 1244هـ) وله مؤلفات منها شرح نظم البليم في العقيدة، وبوطليحية الأصول، والمباشر على ابن عاشر، وأنوار البروق في شرح بائية زروق، وشرح قصيدة أبي مدين في التصوف، والسند العالي في مناقب اليدالي، وغرفة من جم في حل مشكلات "إن همي"، وغيرها.

8 - بوطليحية محمد النابغة الغلاوي تحقيق يحيى بن البراء مؤسسة الريان للطباعة والنشر، ط 2 2004 ص 89.

ولا نعلم بالتحديد متى بدأ هذا النهج الأسلوبى بالربوع الشنقراطية غير أن بؤادر هذا اللون الأدبى - على ما يبدو - ظهرت فى أوائل الرابع عشر الهجرى على يد عدد من الأدباء الموريتانيين كتبوا أقفافا عديدة فى مواضيع مختلفة، تشمل وصف مجالس الشاي وحفلاته، ولأعب الشطرنج فى انتباهه وغفلاته، ونهج التلميذ فى أعباه ومثابراته. وانتقاد المسؤول فى مشاغله ومهماته، وجهود التجار فى استمالة الزبناء وترويج السلع لذوى التحايل والأمناء.

ولعل الانطلاقة الفعلية لهذه الأقفااف كانت مع الشاعر والأديب أحمد بن أحمدونا الحسنى، (ت 1333هـ) الذى ألف قفا فى وصف الشاي ومجالسه، ثم تواصلت هذه الجهود مع «قف» آخر فى الشاي وهو من تأليف «عصر الوسط» (1)، ثم توالى بعد ذلك مجموعة من الأقفااف لعل من أبرزها «قف» «الوكاف» (2)، وقف الحانوت لأحمدو بمب بن ماهي (3) وقف التلاميذ وقف «ظامت» (4) للفيى من أبناء المحاضر وقف «المسؤول» وقف «المرأة» (5)، وقف «الكزرة» (6) لأحمدو بن حمينه (7)، وقف البوز (8) لمحمد بن بتار (9)، وقف الجوال، هذا بالإضافة إلى أقفااف «الرقابة»، «التصحيح» و«الطالب».

ومن الطريف التنبيه إلى أن بعض هذه الأقفااف شرحت شروحا أدبية رائعة تتقاطع فى أساليبها مع كثير من مصطلحات شراح مختصر خليل، ومن أبرز هذه الشروح: «السند العالى فى شرح قف التعليم العالى» وكتاب «السعادة والفوز فى شرح «قف البوز» لمحمد الامين ولد الحاج، وهذا الشرح الأخير مفيد يعرض لفتح أقفااف هذا النص وقد استهله صاحبه قائلا: «قال شيخنا أطال الله بقاءه وحقق فى الدارين رجاءه: هذا «قف» وضعته فى أحكام البوز كملت به مختصر خليل بن إسحاق الجندي رحمه الله، قلت: وهذا تواضع من المؤلف، بل كمل به فقه المذاهب، فهو فقه

1 - هذا التركيب حسانى ف"العصر" فى العامية الموريتانية تعنى مجموعة من الأتراب، فى سن واحدة تقريبا، تكون لهم تقاليد معينة وأسابيب معروفة، كثيرا ما تعتمد الممازحة والتنكيت، "والوسط" علم على مجموعة من الشباب الأتراب تسموا بهذا الاسم.

2 - كلمة عامية وتعنى العامل الذى يخدم مع التاجر فى حانوته، فهو أجير يستخدم فى الإشراف على بيع البضائع، وترتيبها وتنظيفها. وهى حسانية ولعل أصلها فى الفصحى وقاف صيغة مبالغة من الوقوف، لأن هذا العامل يكثر الوقوف تأدية لمهمته وتكميلا لشؤون الشراء والبيع.

3 - هو أحمدو بمب بن ماهي (ت 1414هـ) عالم مشارك من بيت فضل وصلاح له شرح على مختصر خليل ومجموعة من الفتاوى إضافة إلى القف المذكور.

4 - وهى بضاء مفتوحة بعدها ألف بعدها ميم مفتوحة يعقبها هاء سكت حسانية وتسمى أيضا اصرنند وهى الشنطرنج وتعد لعبة ذهنية ثنائية الأطراف تعتمد البعر والعيان ومربعات فوق الأرض وكيفيتها أن تخط فوق التراب 64 مربعا وتعمر النقاط التى فى زوايا المربع وهى إحدى وثمانين نقطة وتعميرها يتم بأن يعز فى كل واحد من الجانبين أربعين عنصرا، فى أحدها تغرز أربعين عودا أربعة منها إلى يمين النقطة المركزية وفى الجانب الثانى، المقابل للأول، تغرز أربعين بعرة، وتترك النقطة الوسطى خالية فارغة ثم يبدأ اللاعب من جهة يساره مقداما العود أو البعرة قطريا. إلى النقطة الوسطى، فيختطفها خصمه بوضع العود الذى يليها فى نفس الاتجاه بمحلها، وتنطلق عملية المباراة.

5 - وقد أورده خليل النحوي فى كتابه بلاد شنقيط المنارة والرباط، ص 202 - 203.

6 - وهى حسانية وتطلق على الأخذ القسري للقطع الأرضية ولعل أصلها فصيح "قسرة" من قسر الشيء إذا اغتصبه وأخذ عنة.

7 - هو أحمدو بن التاه بن حمينه اليدالي، (حفظه الله) عالم جليل وفقه ونحوي وشاعر أخذ عن محمد بن حمينه (باباه) وعن المختار بن المحبوبي وعن محمد بن محمد بن المحبوبي، وعن لمرباط محمد سالم بن ألما وعن أحمدو بن محمد فال الحسنى له أنظام عديدة منها نظم فروع الخطاب، يزيد على خمسة آلاف بيت ونظم فى الأصول ونظم فى الصحايبات، ونظم فى مآثر قومه اليدايبين، هذا بالإضافة إلى ديوان شعري فصيح وآخر شعبي، ومجموعة من الفتاوى. البوز تعريب للكلمة الفرنسية pause التى تعنى التوقف المؤقت والاستراحة بين ساعات العمل.

9 - وجه ثقافى بارز، وشيخ بمحطرة النبائية، وأستاذ بجامعة شنقيط، له مجموعة من الأعمال الأدبية والفقهية، والبحوث الأكاديمية.

جليل جهله الأولون وقصر دونه الآخرون»¹.

والقارئ لهذه الأقفاص يلحظ بوضوح أن بعضها مجهول المؤلف، وبعضها تمت صياغته من قبل جموع من الطلبة ولفيف من الناس غير محدد، مما يدل على أن هذه النصوص النثرية ذات الطابع الفكاهي القائم على انتقاد الواقع أشبه ما تكون بمنشور غفل غير موقع لا يعرف كاتبه ولا من سطر كلماته، فمؤلفوها لا يريدون أن يعرفوا وإنما يختفون وراء الأسطر والحروف حتى لا يتعرضوا لانتقاد المجتمع، فلعلهم قصدوا إلى تعمية أسمائهم قصدا فاندمجوا في مجموعة عامة لا تعرف بدقة كي يذوب المفرد في الجمع ويغيب المؤلف عن السمع، فلا يعرف على التحديد. فينجو بنفسه من خطر الانتقاد وفادح التعريض.

ثانيا: الأقفاص قراءة وتقويم

وضمن هذا المحور نعرض لمسألتين أولاهما يتم خلالها تقسيم مدونة الأقفاص إلى محاور متميزة تبرز أهم مدلولاتها ومحمولاتها، وثانيتهما تعنى بإبراز القيمة المضافة لهذه الإسهامات الشنقراطية في النثر الفني:

أ - الأقفاص المحتويات والمضامين

إن القارئ لهذه الأقفاص يمكن أن يقسمها إلى أربعة محاور أساسية نبرزها تباعا في ما يأتي:

1 - محور التعلم والتعليم: ونعرض ضمنه لجملة من المسائل ذات الصلة بالتعليم المحظري الأصيل، وبالتعليم العصري كذلك، ويندرج في هذا السياق «قف الراحلة» الذي سعى صاحبه إلى أن يطالع القارئ على جوانب مهمة من التقاليد المحظرة خاصة ما يتعلق بتعايش عدد من الطلاب في غرفة واحدة من غرف الأحياء الجامعية أو ما كان يعرف قديما بالعرش والأخصاص الطلابية، ولا يغفل هذا «القف» عن ذكر ما يلزم داخل هذا التجمع السكني من خدمات أساسية تشمل الطبخ والرعي والسقاية والخيطة والتناوب على الأعمال المنزلية. ويأتي قف «التعليم» لينتقد واقع الدراسة على عهده وما تعرفه المستويات يومئذ من تدن وفتور، في حين يركن قف «الطالب» إلى استجلاء بعض ما يقوم به التلاميذ من تشويش على الأساتذة وإخلال بالنظام، ومقاطعة للدروس وتفنن في طرق التخلف عن الحصص ومقاطعة الدروس، ونجد قف «الأستاذ» ينتقد جوانب من مسلكيات الأساتذة المنحرفة خاصة ما يرتبط بعدم استيفاء الوقت، وعدم التقيد بموضوع الدرس والعجز أحيانا عن إحكام القبضة على القسم، كما يضم هذا المحور موضوع «الرقابة» التي تعد موضوعا بالغ الأهمية فقد عمل صاحب هذا القف على تعريف الرقابة تعريفا دقيقا معززا ذلك بذكر أركانها وشروطها وما يلزم المراقب والممتحن على حد سواء، كما يغطي هذا المحور موضوعا آخر ذا أهمية كبيرة وهو «التصحيح» الذي عرفه كاتبه تعريفا واضحا مبينا ضوابطه ووقته المختار وما يلزم للمصحح من غذاء وتلطيف أجواء وتهئية مكان مناسب.

2 - محور التأورب والتحديث: ويعرض لجملة من الأخلاقيات الأوربية والمسلكت المنحرفة التي كثيرا ما يصدر عنها بعض الشباب ممن لهم توجهات غريبة تقوم على الاستلاب والانحراف.

ويضم هذا المحور أقفافا ذات صلة بالمستجدات العصرية كالجوال والانترنت وهذه أمور تجد على الناس فيتخذون منها موقفا متحفزا أول الأمر غير أنهم سرعان ما ينساقون وراءها ويألفونها، فنجد صاحب «قف الجوال» مثلا يطلعنا على طريقة التعامل مع هذا الجهاز الجديد وما يطرحه من إشكالات

1 - السعادة والفوز في شرح «قف البوز»، لمحمد الأمين بن الحاج الطبعة الأولى 2011 ص 5.

فهو يعرفنا على انطباعات الناس ومواقفهم من هذا المخترع الجديد. وكيف يتنافسون في اقتنائه.

3 - محور التسلية والترفيه: ويضم هذا المحور مسائل ذات صلة بالطرافة والتنكيت، على نحو ما نقرأ في قف «ظامت» الذي يعرض لهذه اللعبة التي كانت متداولة عند الشناقطة قديما ويرى بعضهم أنها تقدح الأذهان وتذكي العبقریات وذلك لما تقوم عليه من رياضة ذهنية، فهي تجمع بين المتعة والمنفعة، لذلك عدت من جهة تسلية وترفيها ومن جهة أخرى تأملا وتفكيراً.

أما قف «البوز» (Pause) فجاء ليصف لنا الاستراحة الخفيفة التي تتم أثناء العمل، وما يلزم خلالها من ترويح عن النفس وتلطيف للطقس إذ يلزم العامل أن يفيد طبعه المكثود بالجد تسلية واستراحة، حتى ينشط للعمل فيعود إليه بعد الاستجمام أوفر نشاطاً وأكثر استعداداً.

4 - محور النقد والتوجيه: وهذا المحور يقوم على انتقاد الواقع الاجتماعي والأخلاقي فنجد قف «الكرزة» يكشف عن أخلاقيات منحرفة لا تناسب هذا المجتمع، فمنها مثلاً الكذب والتحايل على القطع الأثرية والتفنن في صيغ إحياء الموات يقول صاحب هذا القف: «وتحيل باتخاذ القطعة مسجداً ثلاثاً، وبنى في الرابعة سكناً أو محطرة قرآن 1 وادعاء سكنى مدة لا يبلغها العمر، وتفريق رماد وقمامات وسخ بجنباتها». كما نقرأ في قف «الحانوت» انتقاداً لبعض مسلكيات التجار في تعاملهم مع الأجراء، على نحو ما في قوله: «وحرم لجاهل بالصرف وذو دين وزائد في الدهاء»، كما نجده يعرض لما يلزم العامل في الحانوت من خدمات تشمل الطبخ والكناسة وتنظيف البضاعة يقول: «وعليه الفتح والغلق والإيقاد للضوء والفرن والكنس في الوقت المعتاد والمبادرة في كل ما أمر به، وهل مطلقاً أو فيما يتعلق بالحانوت قولان» 2.

ب - الأقفاف الأبنية والأساليب

إن المطلع على هذه الأقفاف يدرك جلياً أنها قد اعتمدت جملة من البنيات الأسلوبية صبغتها بصبغة معينة وجعلتها تنطبع بطابع إبداعي ذي مميزات فنية خاصة لعل من أبرزها:

1 - الميل إلى الاختصار والإيجاز

فهذه النماذج النثرية تقتفي في بنائها الأسلوبية نهج مختصر خليل وذلك ما جعلها تختصر القول وتقتصد العبارة مقدمة المعاني الكثيرة في قليل الألفاظ وأوجز العبارات، لذلك تكثر فيها الجمل القائمة على البناء للمجهول حيث يتم حذف الفاعل اختصاراً، فمن أمثلة ذلك ما ورد في قف «الراحلة» حيث يقول صاحبه: «ندب لطالب وإن صغر اغتراب، وبعد» 3 ويتكرر هذا الأسلوب نفسه في عدة أقفاف أخرى كما في قف «الحانوت» «ندب لمحتاج ذي أهبة فتح حانوت»، وما ورد في قف «المسؤول» من الإشارة إلى أن المسؤول يجب أن لا يحمل معه في سيارته إلا من هو مثله في الرتبة والوظيفة ولا يدعو كذلك إلى مآدبته إلا نظراءه، «ومنع حمل غير مثل ودعوته وأكل بمطعم»، وكذلك قف الطالب حيث يقول صاحبه: «وندب إخراج مسوغ كبطاقة فحص أو موعد ولو فائتين» 4.

كما تتعدد الجمل الاسمية ذات المنحى الإيجازي كما في قول صاحب قف «الحانوت»: «الشركة

1 - قف الكرزة مخطوط

2 - قف الوكاف

3 مرقون بحوزتنا.

4 مرقون بحوزتنا.

ضرر»¹، وما ورد في قف «التصحيح» من قوله صاحبه «والنهار شرط» وما يدعم هذا التوجه القائم على الإيجاز الإكثار من ذكر أدوات الشرط.

2 - اعتماد الأساليب البلاغية

لقد عول أصحاب هذه الأقفاف على بعض الأساليب البلاغية خاصة التورية التي يتم من خلالها نقل اللفظ من دلالاته الأصلية على الحكم الفقهي إلى دلالة جديدة ذات صلة بالواقع الاجتماعي أو السياسي أو الثقافي مما يكسب النص نكهة فنية ومرتعة أسلوبية تجعله يفتح على مصراعين فتتعدد منه الدلالات ويتسع المضمون، وهو أمر يجعل هذه الأقفاف تحتوي أساليب رفيعة ترغم على التبسم وتمازج كل خليل، مفصحة في الوقت نفسه عن التمكن من فقرات مختصر خليل.

ومن أمثلة حضور التورية في هذه النصوص النثرية ما ورد في قف التصحيح، من قول المؤلف «والنهار شرط» فهذه اللفظة وردت في قف الأضحية لتشير إلى أن ذبح الأضحية ينبغي أن يكون نهاراً لا ليلاً، في حين جاءت عبارة «والنهار شرط» في «قف التصحيح» لتحيل إلى أن هذا الجهد التقويمي ينبغي أن لا يتم إلا في وضوح النهار، فانتقلت من دلالتها الفقهية الأصلية إلى دلالة تربوية طارئة.

أما التشبيه فهو كثير الورد في هذه النماذج النثرية ومن أمثلته ما ورد في «قف الكزهر» من قول مؤلفه: «وإدعاء زوجية إن اشترطت كعدمها لتكثير العدد»²، وما ورد في «قف المسؤول» من قول صاحبه: «ومنع دخول كفقير»³، وكذلك ما نقرأ في «قف الطالب» من قول صاحبه: «وبنسيان دفتر وقلم ولو بجيب وقريب كمرمي بدرج»⁴.

3 - الركون إلى الحدود المنطقية

ومما يحضر كثيراً في أساليب هذه الأقفاف ما يمكن أن نلحقه بالحدود المنطقية الجامعة المانعة التي تسعى إلى أن تقترب من الحدود الفقهية الواردة في نص المختصر، ومن أمثلة ذلك ما ورد في «قف الطالب» من تعريف دقيق لمفهوم الشغب، فقد حده بقوله: «يختل النظام بشغب وهو الخارق البين للعادة والسلوك المتعارف لا همس في أذن وتحريك أقدام ولو بحصى وتراب»⁵.

ومن الحدود الدقيقة الواردة في هذه النصوص ما نقرأ في قف الرقابة التي حدها المؤلف بقوله: «الرقابة حضور ذهن واستدامة نظر لا بكتحديث من عدل فطن سليم الحواس حسن الهيئة ذي أمانة وكفاءة وقوة ونشاط»⁶، وكذلك تم تحديد استراحة العمل الواردة في «قف البوز» تحديداً دقيقاً حيث يقول صاحبه: «البوز راحة بين ساعتين عمل لمقابل ومطابق فقط»⁷، ونجد صاحب «قف التصحيح» يقدم له تعريفاً دقيقاً حيث يقول: «التصحيح إسناد درجة لممتحن في تحر واجتهاد من حكمين ذوي كفاءة ونزاهة بعد تأمل وإعادة نظر»⁸.

1 مرقون بحوزتنا.

2 مرقون بحوزتنا.

3 مرقون بحوزتنا.

4 مرقون بحوزتنا.

5 مرقون بحوزتنا.

6 مرقون بحوزتنا.

7 مرقون بحوزتنا.

8 مرقون بحوزتنا.

4 - استحضار المصطلحات الفقهية

وقبل إيراد نماذج من استحضار الأدباء الشناقطة لهذه المصطلحات في الأقفاظ ننبه إلى أن هذه المصطلحات الفقهية قد تدعو بعض أولي الذكر إلى انتقاد هذه النماذج النثرية ووصف أصحابها بالبعد عن الدقة في توظيف تلك المصطلحات والتمكن من شحنها بالمضمون المناسب خاصة ما يتعلق بمفاهيم المنع والتحريم، أو الفرض والوجوب، أو النذب والكرهية، محتجاً بأن هذه الألفاظ لها مدلولات شرعية خاصة بالمشرع، لذلك يلزم الابتعاد عن توظيفها أو استخدامها في النصوص الأدبية الساخرة ذات التوجه الهزلي.

وفي هذا السياق نذكر بأن محمد مولود بن أحمد قال الموسوي رحمه الله قد أشار إلى جانب من هذا الأمر في منظومته محارم اللسان حيث يقول(1):

لذا مسمي الحرم باسم يوهم أن ليس حرماً آثم وآثم
آت بما يوهم منع الحل ومادح ظلم البغاة العدل

ومن أمثلة ما ورد من هذه المصطلحات الفقهية في هذه الأقفاظ ما يمكن أن نقرأ في كثير منها، ونخص هنا بالذكر «قف الحانوت» فقد ورد فيه مثلاً «ندب لمحتاج ذي أهبة فتح حانوت»، هل هذا الأمر مندوب حقاً أو هو مجرد أمر مباح غير أن المؤلف دفعته الرغبة في محاكاة مختصر خليل إلى جعل المباح مندوباً، وهذا لا يؤثر قطعاً في أحكام الشرع ولا في أسسه ومنطقاته، فهو مجرد تفنن أسلوب، وكذلك قوله أيضاً: «وحرّم لجاهل بالصرف وذي دين وزائد في الدهاء» فهل يحرم على هؤلاء فعلاً أن يتخذوا من التجارة مهنة أم أن مجرد الرغبة في الاستئناس بنص المختصر هو الذي حمل المؤلف على هذا.

ولا يسعنا في هذا المقام إلا أن نبادر بالجواب لنرد على الاعتراض المتقدم مذكّرين بأن هذه الألفاظ الواردة في الأقفاظ الأدبية ليست مقصودة في دلالتها الشرعية الأصلية الحقيقية، وإنما تقصد محمولاتها المجازية وإيحاءاتها وظلالها الداعية إلى الطرفة والتنكيت والترية والتعذيب، فالواضح أنها مجرد أسلوب تعليمي ونهج في النقد الاجتماعي والتوجيه الأخلاقي غرضه ضرب الأمثلة وتقريب المسائل إلى الأذهان، واستنهاض الهمم واستحثاث العزائم ودفع الملل والفتور وانتقاد الجهل والانحراف والسفور بأسلوب لطيف يستميل الأفتدة والقلوب ويقدر الأذهان والعقول.

خاتمة:

وخلاصة القول إن هذه الأقفاظ تعد لونا فنياً رفيعاً، فقد أثرت الأساليب النثرية في الثقافة المحظورية كما كشفت عن جانب مهم من معارف القوم وتميزهم، ويتجلى ذلك في ما يأتي:

- الكشف عن مستوى من الذكاء لدى الشناقطة رفيع، إذ استطاعوا أن ينقلوا هذه الأقفاظ بأساليبهم النثرية الرفيعة من أجواء الفقه والقداصة إلى حرم الأدب والفكاهة.

- القدرة الفائقة على ربط النظرية بالتطبيق، وذلك أن الطلبة إذا قرأوا أقفافاً فقهية من مختصر خليل، عملوا بعد ذلك على محاكاتها، محاولين النسخ على منوالها.

1 - محارم اللسان، لمحمد مولود بن أحمد فال دار التيسير للنشر 1998 ص 10.

- المبالغة في انتقاد بعض المسلكيات الخاطئة وذلك بتوظيف هذه النصوص النثرية الطريفة توظيفاً مزدوجاً فهي تجمع بين النقد اللاذع والأسلوب البارع منتقدة الواقع باستمرار ومرغمة المطالع على التبسم والافتتار.
- توسيع دائرة القول في المنشور لدى الشناقطة، فقد استطاعوا أن يضيفوا إلى الأساليب النثرية هذا المستطرف الجديد.
- الترويح عن النفوس بالابتعاد عن هموم الدراسة وكد المطالعة فمن المعلوم أن هذه الأقفاف نشأت في حرم الأحياء الجامعية بالمحاضر الشنقيطية فكان هدفها الأول التخفيف من هموم الدراسة وعناء المطالعة والاستذكار.

الملحق

1. قف «الراحلة»

ندب لطالب وإن صغر اغتراب، وبعد، وانتساب لراحلة، واستحسن خلافه إن لم يكن له زاد، والشركة ضرر فتركه إلا لضرورة، واصطحاب معين كحلوب وزرع وإن اصطحب آلة شاي ففي كراحتها وندبها قولان، قال: كشرائه لمذياح.

ووجب توقير أستاذ وخدمته وملازمته في غير العورات الثلاث، وترجيع مع الزملاء ولو لذكي، وندبت مطارحة الأنظار وتناشد الأشعار في أوقات الفراغ، وتأديب لمن كثر خطؤه بحرمانه يوماً أو يومين، ولا يطال انتظار لغائب وإن قرب، ورجعت حصته على من ليس له فضل طعام، أو ترد على ذوي القربى، وكره الزيد على المعتاد من مأكّل وملبس ومسكن، والأخصاص والشجر أحب إلينا، وندب إحضار معين كخشب في زمن شتاء وماء لظهور وإن قل، وقدم ذو ماء وطعام عند الاقتسام وإلا فالقرعة وصحّ خلافه، كنقل كتب وشواهد وطرر يحتاجها، ومقابلتها قبل الانتقال، وصناعة طعام لطالب، وأستاذ عند الانتهاء.

2. قف «الحانوت»

ندب لمحتاج ذي أهبة فتح حانوت وإن «بذمته» إن كان بمحل يكثر فيه البيع فحسن، وتندب معاملة شركة وإن أجنبية إن أمنت، وإن اعتيد مجيئها بالسلع فينتظرها لآخر الوقت، وفي المبتدأة تردد، وهل تندب المكاتبه أو لا تجوز وهو الأظهر، أو إلا أن يعين الجنس والقدر والصفة أقوال، ولا يقضي عنها بطعام ولو مقاصة على الأحسن، ولأهل الحوانيت أحكام تخصهم، وندبت مؤاجرة عامل لا يغش وإن أجنبيا وقدم على قريب لم يؤمن ولو محتاجا على الأظهر وإلا فلا، وحرّم لجاهل بالصرف وذو دين وزائد في الدهاء وبطانة سوء، وجاز تعدد وخاص بناحية أو نوع لم يباشر كبيرة أو كثير كذب أو صغيرة ولعب نرد ونحوه، وإدامة شطرنج، ونفقته وأجرته من رأس المال، وهل ذات دخانه كذلك أو هي والمنطقة وأجرة الغسل وماؤه وصابونه كالكسوة فلا تجب إلا لشرط أو عادة خلاف.

وعليه الفتح والغلق والإيقاد للضوء والفرن والكنس في الوقت المعتادة، والمبادرة في كل ما

أمر به، وهل مطلقاً أو فيما يتعلق بالحنوت قولان، وإن انفرد البائع وحضرت الصلاة آخر لآخر الاختياري وصلى وإن فيها، وفيها تأخير المغرب للشفق، وفي تأخير العشاء مطلقاً «لمنو» تردد وبه العمل.

وَجَازَ للعامل إضافة المجتاز ثلاثاً بلا سرف إن تعينت، وإن تبين عدم رضا رب المال ضمن، وصدق إن ادعى مشبهاً في كل ما تلف، وبين السبب، وإلا فلا إشكال.

3. قف «أي» (1)

بي طهارة من دين وخلق معاً لا أحدهما ووطنية واقتداء بغربي، واستظهرت بشاب عاش بمطلق حضر في قرية أو هل في الذي قبله بغرب خلاف، ووجب تماد عليه إلى لقاء الله، وليس بنطلوه اتسع أسفله بخلاف أعلاه وقميص ذي حلق زركش وهضم كشحاً إن تناسبا ظاهراً أو إلا تركاً إلى متناسبين ودخول سينما وحكم السرقة لها كحكمه أو احتكاك بجنس غير ممتاز ودخول «بار» وهو غير المسير لحلال ولا به وسماع موسيقى ورقص عليها وإن بحضرة مستحي منه وجمة طال مؤخرها ووصفت إلى جبهته أو إلى جنب واحتقار أهل وسرعة غضب وإظهاره وسنت منطقة وسوار بمعصم وقلادة ذهباً إن أمكن وسجد لسهو كفوات مرضي أفلام وإخلاف موعد فجور ولا سجود ولا بطلان لفقر ولا كرم محتد ولا علم بشرع. اهـ

4. قف «المبادرة»

باب: تتخذ المبادرات في الغالب لجلب منفعة، ولو من سمك، وقيل لدفع مضرة ولو متوهمة، والأرجح نفيه، وعيط لكصحافة، وإلا فقال يستحسن تركها، وانضمام مبادرة لآخرى كعكسه وركنها جماعة ولا تنتقل لواحد، وتعارف وهو من ساعة، والأظهر في أهل البادية بهما الوجوب وشعارها بحسبها ولا يهتم وفي كتابته قبلها بوقت قولان، ومختارها من الظهر للغروب، وهل تشترك معها المسيرة فيه أولاً رويت عليهما ويعاد كل فرض إلا هي وافتتحت بسبع تصفيقات ثم بخمس دون البيان، ولحج بعده وإلا تمادى وندب تخلله بتصفيق ولا تبطل إن ترك وفضائلها موضع واسع وفي اشتراط سقفه وقصد إقامتها به تردد وصحت برحبتيه وطرق متصلة إن ضاق أو اتصلت الصفوف لا انتفيا وكثرة الناس بلا حد أولاً وإلا فلا يعتد بها، وجاز حضور غير مدعو، واختار لتكثير سوادها كمار وصبي وضرب حتى يأكل التراب وطاولة شراب وزيدت في العين بفارغ وأهونه الماء وإن جمع من ندى أو ذاب بعد جموده أو كان سؤر بهيمة أو حائض أو جنب أو فضلة طهارتهما أو كثيراً خلط بلبن لم يغيره وهل لا بد لها من رئيس وبدونه تفسد عليه وعليهم أولاً تأويلان. وفي جعل المعارض المحاور كالمخالف نظر وبطلت بمن بان محاوراً إلا على كآله أو من لا اعتناء لهم بأمرها.

5. قف «الكزرة» (2)

«الكزرة» احتلال قطع أرضية يتناولها حكم القانون العقاري أو بعد غيبة الأول ولو قربت. وغير العلامة بتبديل خشب بحديد وتقصيره أو العكس وسد مكان باب وفتح آخر أو نافذة وصبغها مغايراً للأول، وربط داجن وتحويط بسياح.

1 - و"أي" تطلق على حلقة خاصة كانت موضوعة عند الشباب الموريتاني في السبعينات من القرن الماضي.

2 - الكزرة حسانية ومعناها الاحتلال القسري للأراضي المملوكة للدولة.

وشرط للكارز بلوغ ولو امرأة وصبية عقلت الحيلة وقدرت على الدفاع كالبالغ، وفي اشتراط العقل وعدمه، أو في الرجل دون غيره تأويلان. وقلب واستحسن عقور واحتيال كثر وكونه ألد في الخصام وغموس بلا محاشاة وكانون وقدر ولو قدم وصحون تكسر بعضها وبرميل ماء، وفيها عدم الشرط واتكل على الغير، وحصير دنس وسجف اتسع واستظهر تحويط داخله باللبن وغازية سقط قرننها وإبريق اسود وثلاثة كؤوس ومصباح بترول.

وتحيل باتخاذ القطعة مسجدا ثلاثا، وبنى في الرابعة سكنا أو محطرة قرآن، وادعى سكنى مدة لا يبلغها العمر عادة وتقريب رماد وقمامات وسخ بجنبتها.

وتحيلت للقدم بالأخيرتين، وبادعاء العمى والصمم ويتم الأبناء، والتصفير من بلاد الحرم والحمل ولو بعد الثمانين، وطلاق قبل ولادة ابنها الصغير منه بخمس سنين، وادعاء زوجية إن اشترطت كعدمها لتكثير العدد، وانتحال وانتساب لغير أبيه وتبن، وتول بغير إذن مواليه وشراء السيور، وادعت ضياع الملف كاملا وأتت بشهادة ضياع من عند رجال الشرطة.

و(تبتب) ولو بعد الاحتلال بيوم بيع نصف القطعة بثمنها كاملة وغاب قرب العقد، واسترجعت السيدة السدس بيمينها المغلظة أنها المالكة لا هو.

ومنعت جمعة وجماعة، وفي أول الوقت مطلقا، وقبل الضروري إلا لشيخ ورع، وقراءة مصحف والورد لصاحبه ولو بعد عشاء، وفيها كراهة النفل مطلقا.

وبطلت بمناف لها وأدب ولين خلق، وتحري صدق وتنازل عن كشبر، وفي عدم البطلان به للرجل وإن صالح به قولان، وكره مذياع وحشايا وحصير نمق وقטיפه امتازت، وفي كراهة التلفزة ومنعها خلاف.

6. قف «المسؤول»

لزم لمسؤول اتخاذ بواب عنف، وندب كونه ملاكما ولم يضمن، وإغلاق مكتب وعدم خروج وإن لصلاة، وعدم اهتمام بكبطرون، ودخل بلا إذن ولو لزيارة خست.

واستحسن طول حديث وقهقهة وتناول شاي والانتظار عنده ولو فات الوقت. وأوعز لكاتب بتهدة وضع إن خيف صخب وولولة باستخدام عنف.

ومنع دخول كفقير وأدب إن تعمد بلا تأول قريب. وجاز تأخير مهم. ورفض توقيع خف وترك مواساة وجبت وإيثار كقريب واحتكار إسعاف. وقطع أرض. وخلوة بأجنبية، وإدانة بريء وصدق وله مطلق التصرف إلا لخوف على منصب.

ومنع حمل غير مثل كدعوته. وأكل بمطعم صغر وركوب سيارة أجرة. ومشى بشارع عم ولو امن الظهور، ودخول سوق واشتراء كلحم إلا بصحبة كزوجة وعامل منزل. وهل تكره المماكسة أو إن خيف غبن أو تمنع مطلقا تأويلات.

7. قف «الطالب»

يختل النظام بشغب وهو الخارق البين للعادة والسلوك المتعارف لا همس في أذن وتحريك أقدام ولو بحصى وتراب، وبمحادثة مرتفعة كخصام ونقد وجدل وصوت قدر على رفعه، وندب إن قاطع الدرس لا إن تواصل، وفي اعتبار المخاصمة في وقت الدرس أو مطلقا تردد، وبسؤال يخرج عن الموضوع ولو ملغوما، وبتحريك مقاعد وتقديم وتأخير وتغيير مواقع الجلوس

وباستطراد ينسي الموضوع ولو قصر، وفضل إن طال، وبتأخر دخول يضيع وقتنا ولو لحظة أو دقيقة، وأول بالخفيف والإطلاق إن أراد الفوات أو صادف نية لانتفيا، وبنسيان دفتر وقلم ولو بجيب وقريب كمرمي بدرج وتعين الإذن والخروج والاستعارة من المجالس أو الأستاذ وإن بكره وبتمارض على الأصح ومطلق ألم الصداق والرقبة ولو قادرا على المتابعة وندب إخراج مسوغ كبطاقة فحص أو موعد مع طبيب وإن فائتا وبتحاييل كقضاء حاجة ولو تدخيننا وتجولا في الممرات، وبصقا كثيرا وعطاسا مقصودا وسعالا متعمدا وقهقهة وإن بصياح، وتنذب المطالبة بالخروج قبيل الوقت لا عنده فتجب وإن على مجتهد مواظب، ويتعمد مضغ مأكول واستحسن التجاهل، وإخفاء الحال تعرفا على مستواه، واستفزازه مطلقا، وتأكد بأول لقاء وفضل رفض الاختبار ورفع الصوت بذلك إجماعا، وإرغام على رأي ليستبان مذهبه، والأظهر السعي إلى المدرسة من غير استعداد، واختص المعيد بالإهمال والحضور بالجسم والمسارعة إلى الطعن وتميز بالحدة والانفعال، والاعتزاز بالنفس، واتهام المصحح، والاستعجال، وقلة الأمانة، واستحسن طعن في مستوى، وبتضجر واستياء من حصة، وتأكد بعد الحادية عشر، وانصرف وإن بتمالؤ مع المصاحب في التشويش كهمس في أذن وإشارة بإصبع وإيماء بطرف وضرب بمنكب والتفات بجنب وإضحاك بإشارة، وبقراءة كتيب أو قصة ولهي عنه، وتأكد في المعيد حرصا على التكبر والتذرع بتوظيف الوقت وإهمال الملخص.

8. قف «الأستاذ»

ندب لأستاذ تخلف مطلقا، وخروج قبيل الوقت، وتأكد زمن العطل، وفضل الإكثار من الإقراء ولو لم يشرح، واستحسن ارتباط بالآخر إن كثر التردد وازدادت المكالمات. وجاز خروج مطلقا ولو لاستراحة مع مجاور أو مبادلة طرف حديث أو تناوب وتدخين، وفضل دوران بالصفوف ونظر في الدفاتر من غير تصحيح، وجاز استطراد مع غير متخصص كمدرس تربية وعربية لمزدوج، أو علمي، أو علوم لمتأدب، وفرنسية لمتعرب على الأظهر، وهل يحتقر أستاذ منخفضة الضارب أو يهجر تاويلان، وفي احترامه إن صغر وتمكن خلاف، وندب همز وغمز وتعريض به إن تيسر وفي اعتبار ذي الشبهة وإهانته تردد، وهل يجوز التمالؤ قبيله إن كمل الملخص ونفدت البضاعة أو لا تأويلات. وكره استيفاء وقت وإكمال درس ولعن متطوع واتهم في عمله. وهل يحرم الدخول قبيله أو لا خلاف، واستحسن تغافل وتأكد في المنفردة حتى ينصرفوا، وسارع نحو الإدارة متأسفا، وخرج مستبشرا وحمد الله.

9. قف «الجوال»⁽¹⁾

سن لبالغ ولو مدينا، وتأكد بحضر ولو غير تاجر هاتف لا يجحف، وندب لصبي وفي كراهته للمرأة ووجوبه قولان، وظاهرها الجواز، واتخاذها له وهل مطلقا أو للشريفة أو للمسؤولة تاويلات أرجحها الأول واختير ملؤه رصيذا وشحنه لكاليومين وتحسين هيئته وإن لفقيه، وحسن رقمه وقيام متصل عليه، وارتفاعه بكربوة، وهل يجوز رفع صوت متصل أو يكره أو إن أذن له أقوال، وإن ظن رقمه كذا فأرسل له الرصيد لا نص، ومقتضى المذهب الضمان، وفي أفضلية الثابت على الجوال والمغربية على التونسية تردد، قال وهو الأصح أحسنها السودانية، ورجح خلافه وأجاز بعضهم جمع الأوليين مفترقتين أو مجموعتين، واختير جمع الأولى مع الثالثة وفي جمع الثلاثة بواحد نظر، وإن لم تفترق أرقام الثلاثة إلا بالفتاح فحسن، والأظهر حمله بعلاقة لكعامل وفي إعارته لصبي لا يعبث أو يكف إذا نهى ولعب الكبير فيه والاطلاع على رصيذ الآخرين وأرقام المتصلين بهم وتنصف رسائلهم خلاف فإن أذنوا أو منعوا فلا إشكال.

1 - وهو من تأليف العلامة: الشيخ محمد عبد الرحمن بن شيخنا محمد المختار بن محنض.

10. قف «الرقابة»

الرقابة حضور ذهن واستدامة نظر لا بكتحديث من عدل فطن سليم الحواس حسن الهيئة ذي أمانة وكفاءة وقوة ونشاط.

وركنها توزيع ورق إجابة، وموضوع امتحان فتحديد هوية ووقت، ثم تفقد غياب وتجول بين صفوف فملء محضر وتدقيق غيبة وحضور، وتأكد بعد عد ومراجعة وهل الخروج قبيل النصف أو لا تردد؟ والأظهر الانتظار وفيها عفي عما يعسر.

ولزم لمراقب فقه امتحان وتجربة عيان وقطعة خبز وعلبة لبن وماء، وكأس مفتول بالعادة، وهل يجوز التعدد أو يمنع خلاف؟

ومنع محادثة جانبية ومهاتفة إلا لضرورة كوالد ومدير، وتكرر خروج، وتأخر حضور ورفع صوت وقهقهة، وكره جلوسه أوله، وقبل تفسح لا لامرأة وشيخ، وفتح على مشارك، وتعليق على سؤال أو رد جواب.

ونذب لممتحن اعتدال جلوس وطاعة مراقب وتعدد قراءة سؤال بلا حد ولا استعجال وتجنب التفات كفتح هاتف، ولهي عنه وتغطية وجه، ومراجعة أستاذ كتفكر بحركة لسان وهمس بأذن. وتحريك حصى وإلقاء تسويد واستصحب في خروج وتأكد أوله.

11. قف «البوز»⁽¹⁾

البوز: راحة بين ساعتين عمل لمقابل ومطابق فقط، وأكثره عشر، ولا حد لأقله كأقل الراتب، وفات إن ظلم فيه، وفي التلفيق تردد، واختير عدمه، وواجبه نية وموالة، وكونه في المكتب ومراقبة بدئه ومنتهاه وتأكد.

وفضائله: موضع مكيف واضطجاع ونوم ولو قل، وتغطية رأس، وجازت مذاكرة قلت، وتوسد كمقعد، وخروج كمحدث بلا إذن، وكره حديث وهتف إلا لضرورة وخرج، وفي النت تأويلان.

12. قف «ظامت»⁽²⁾

هذا ولما اندثر نظام ظامه، وخفي ما لها من رسم وعلامة، وهان أمرها في كل مجلس وهزلت حتى سامها كل مفلس، وكانت للظرفاء المقصد الأنيق، والأساس لمعرفة غليظ الطبع من الرقيق، أردنا أن نبين لمريدها مرامه بمقال نأى عن الممل والسآم، ويزري بالجواهر المكنونه في الصدف، مع العلم أن من ألف فقد استهدف، فقلنا معتمدين على السميع البصير، إنه نعم المولى ونعم النصير.

تجب ظامت لو فدا أفضل طلبوها من رب منزل، إن علمها، وإلا نادى من هو أفقه منه، ولأهل مدن بعد كعصر، وزميلين أناخا ببلد إن علم ربه، والمختار الترك، إن لم يعلم ومتراهنين إن لم يطلبوا فضلا وإلا منعت. كرجل بين نساء كعكسه، وعلى صغير مع كاشيب، ورخص له إن كان متعلما، وإن لم يجد غيره، وتؤولت بإطلاق كركوب سلطان في آخرها، وعلى فاضل مع وغد، كرد مطلقا وفيها يجوز لغير فقيه معه. وكهرت بعد فجر إلا أن ترتفع قيد رمح، كركوب نزال، أو نزله مع غيره، وليل إلا بكمصباح، كإغلاق باب، وبيادة بع، وتنازع نازلين في قتل وحكم به لذي

1 - والبوز محرفة عن الكلمة الفرنسية: "Pause" ومعناها الاستراحة الخفيفة أثناء العمل.

2 - من إبداع جماعة من طلبة محظرة تندكسم في بداية ستينات القرن الماضي.

البينة، وأعدلية متناقضتين ملغاة، وبيع غير الفصيل، وعود عرضا وصناعة لها وقت شاه، إن عدم غيرها، وطلبها ممن يعلمها طلبا لا يشق، كرفقة يسيرة أو حوله من كثيرة.

وجازت لأهل بادية بكزبل بقر، وغير الثمام مكانه إن عدمه والأظهر نفيه، والجمهور على خلافه، كعلف لأهل مدن وقلع زر، ورد عنه وجوبا، وليلا بقم، لنساء بينهن، وفقه مع غيره متعلما كاستخلاف من يعلمها، إن طرأ موجه.

واستحسن وكيفيتها ثرى فوق طابطة وعيدان في غلط معتاد، وطول إبهام كنظر غير نازل بلا كلام، إلا لسوفله، وندب تقديم سلطان، ثم رب منزل، ثم زائد فقه، وإن تشاح متساوون لا لكبر اقترعوا، وإلا منعت، ومختارها لذي حي سينين إلى ميمها، ووقت قيلولة زمن برد، وبعد ظهر في غيره، وضحى، وشغل عنها بناء لم يطل وإلا رد كأن فسدت وقدمت على كمرياص، وجاز للصبيان وإن فقد صاحبها فلوصيه، وإن فقد فلوارثه، وحرّم خنثى مشكل، فإن حصلت علامة فلا إشكال.

13. قف «الأوربة»

ندب لمواطن شب وإن بلا ثقافة حلق لحية وإعفاء شارب، ومقدم رأس وظفر، وتأكد إن تمتع بثقافة أجنبية، وهل يجب على المسؤولية أو يستحب خلاف.

ووجب لمن عظمت مسؤوليته حلق عم ولباس جم، بلا حد إلا في استقبال في كوفد، ولأولي المسؤولية، وهل بقيد بالجماعة أو بحسب العرف، وقلد غيره مثقفا عارفا أو كتابا.

وحرّم أدب مع كمسن وتقدير وإنصات ولو قل، كنص سني، وألغي شرح وقول كصحابي فيه وتعين زجره وإن مسنا.

ووجب لحرّة في كرياضة لبس محدد وإرسال شعر وتسويده ووصله، وهل إن ابيض وقصر، وصح، أو لا؟ رويت عليهما، وصبغ ظفر بكحمرّة أو صفرة زانتا وإزالة حاجبين مطلقا وتسويد محلهم، وفي وجوب الوشر والوشم وسنيتهما قولان.

واختير تجولها، وحضرت إن قدرت كل اجتماع عم، والقول قولها، وطلقتّه وبعكسه ولها التصرف المطلق في ماله وبنيه كنفسه والتزوج عليه بلا حد، كفى عدته ومن محرم، والخروج متى شئت وإن بلا إذن، ورفع صوت عليه ونداؤه من وراء الحجرة وباسمه، وافتيات عليه وغضب وادعاء مرض برجوع.

14. قف «الانترنت»

ندب استخدام عنكبوتية على مدار الساعة، وهل: في المقاهي واستحسن، أو في المكاتب والمنازل، رويت عليهما، وفي كون الثابتة كالمتنقلة تردد، واستحسن المتطور ولزمت طاولة ثابت، والنقال في كمحفظة يدوية، ولا تجزئ مقبضة العرى، وتنظيف قرص استخدم أو مضى عليه زمن، والأرجح تركه، وتكره مزاحمة الأجهزة به وقت الاستعمال، ولا يطلع على رمز غيره، ولا يكتب لمن لا يعرفه، وتصفح المواقع الإخبارية، وبدء بالوطنية، واختتامه ببريده، أو مدونته تأويلات، وتحرم الإباحية مطلقا، وإن من محرك البحث، ويكره استعماله عبثا، ولا يندب ربطه بكبريد، خلاف المواقع وجاز الاتصال عبر مواقعه، وصداقة مع مميز وفي المرأة مع الرجل وإظهار الصورة نظر، وهو من الشيخ مشين وفيها تكره استضافته وتكره مقاطعة المتصل إلا لدخول كغريب، ويجب انتظاره لعذر قرب وبنى على ما سلف، وبادر الداخل بالترحيب، ولفظه

واسع.

ويكره التعليق بما لا يعني، وهل لإثراء موضوع أو لحاجة تاويلان، وإن شك في عنوان وجب التأكد وإن ترك أعاد تصفح المرسلة، ولا ينسخ من موقع في آخر إلا بالإسناد، والأظهر كراهته مطلقاً، وتكره مداومة عليه، ويحرم إن شغل عن فرض.

15. قف «التصحيح»

التصحيح إسناد درجة لممتحن في تحر واجتهاد من حكمين ذوي كفاءة ونزاهة بعد تأمل وإعادة نظر، واستحسن تلوم واجتماع فكر كالقضاء، ولزم تعهد مسطور بمراجعة وتدقيق.

ونذب إحماض خف كرفع صوت بخاطئة وتعين في المثيرة واستشكل في الخارجة وهل الأرجح في المستضعف اليأس التصفير أو الإقصاء أو الإقلال أقوال.

وفي إنالة المستغلقة المبهمة تردد، وشهر تقويم لكمة غامضة وهل يكره في المختلطة كذالقات جعلان أو يمنع خلاف.

ولمتعب تغيير هيئة جلوس وتجديد حال واستجلاب نشاط بكخروج في تشاؤب وتمدد وهل مع مهاتفة أو محادثة أو اضطجاع أو «منعش» أو لا؟ خلاف، وتأكد في المستعجل الملول.

ووجب تتبع مكتوب وقراءة ما بين السطور ولمتردد إعادة نظر وزيادة تأمل، وهل لمتمرس «متأول» ماهر اكتفاء بأول ووسط وآخر وإضافة كدرجة في المجموع وهو جرح في العدالة وقدح في التقويم.

ووقته من حل النافلة آخر الثالثة وهل تكره الرابعة أو تمنع خلاف، وأعيد الفائت مطلقاً، ومفتتح غلاف تأخر بلا عذر انتظر به للزوال والنهار شرط.

ولمصحح ترك صبوح وقلم وشاي أيامه، ويجب لمتمكن مطيع قوت وإدام ومكتب بالعادة بقدر الوسع والحال والبلد والسعر وإن أكلوا ويزاد المكثّر ما يتقوى به إلا المحتشمة، ولا تلزم الحلويات فيفرض الماء والخبز واللبن والشاي المرة بعد المرة، وكربي وحصير احتيج له وأجرة ناقلة، وهل تلزم النفقة بعد الثاني أو لا خلاف، ورجح إن حضر وتودد كمعتر وواغل.

الدكتور محمد فال محمد
محمود السالك

أستاذ الفقه والأصول

مؤسسة المحظرة الشنقيطية الكبرى - اكجوجت

أ. محمد محمود
الشيخ أحمد

باحث في الفقه والأصول

أثر الحرف في فهم دلالات الألفاظ القرآنية

الآيات من 062
إلى 462 من سورة
البقرة «أنموذجا»

ملاحظات بين يدي الموضوع

تناولت الدراسة أربع آيات؛ من الآية 260. إلى الآية 264. من سورة البقرة؛ في محاولة لدراسة الأثر في فهم دلالات الألفاظ القرآنية بشكل عام .

ونظرا إلى الخصوصية التي تطبع موضوع تلك الآيات الأربع، وورودها على شكل وحدة مترابطة ومتكاملة فيما بينها وما يقتضيه ذلك من ضرورة النظر إليها في سياق موحد.. فإن ذلك يتطلب أخذ منهج خاص في عرض تلك الآيات وتحليلها يقوم على البحث في ثلاثة محاور لها علاقة مباشرة بالموضوع فتناولنا في المحور الأول فحوى الآيات والسياق القرآني العام الذي تنظم فيه مع محاولة الاسترشاد بما أورده المفسرون في هذا الإطار..

وتناولنا في المحور الثاني معنى المفردات ودلالاتها اللغوية .. وأثر الحرف (بمعناه الأعم) في تلك الدلالة..

أما المحور الثالث فتعرض فيه للأعاريب المختلفة التي أوردها علماء التفسير واللغة.. باعتبار أن الأوجه الإعرابية هي التي تحدد الفروق الدقيقة بين المعاني... وباعتبار أن (أقوم طريق يسلك في الوقوف على معنى القرآن الكريم ويتوصل به إلى تبين أغراضه ومغزاه: معرفة إعرابه واشتقاق مقاصده من أنحاء خطابه والنظر في وجوه القرآن المنقولة عن الأئمة الأثبات) كما يقول محيي الدين الدرويش¹.

ونحسب أن تناول تلك الآيات وفق هذا المنهج سيوصل إلى نتائج مرضية تكشف عن جوانب من أثر «الحرف» (بمعناه الأعم) في فهم دلالات الألفاظ القرآنية.. وذلك من خلال فهمنا لدور الحرف في السياق القرآني، إن على مستوى الأفراد أي: بالنظر إلى الألفاظ فردا فردا، أو على مستوى التركيب أي بالنظر إليها في سياق إجمالي موحد وهو ما سيمكننا من الاهتمام إلى معاني قرآنية ذات دلالة عميقة.. فضلا عن التمييز بين معاني متعددة ومختلفة تتوارد على اللفظ الواحد في آن...

1 . محيي الدين الدرويش: إعراب القرآن الكريم وبيانه . الطبعة السابعة 1999م دار ابن كثير ج1ص6

المحور الأول:

نظرة عامة حول مضمون الآيات الأربع من الآية 260 إلى الآية 264 من سورة البقرة

تندرج هذه الآيات في إطار ما يسمى بـ «الأمثال القرآنية» التي ألف فيها العلماء قديما وحديثا كتباً كثيرة، واستنبطوا منها أحكاماً عديدة.. مثل كتاب «الأمثال في القرآن الكريم - لابن قيم الجوزية» و «الأمثال القرآنية القياسية . للجربوع» وكتاب «الأمثال للرامهرمزي» و «الأمثال من الكتاب والسنة . للحكيم الترمذي.. وغير ذلك..

وعندما نقرأ هذه الآيات التي بين أيدينا نجد أنها . في معناها العام . عبارة عن «مثل» ضربه الله ليلفت انتباه السامع والمتلقي إلى أهمية الإنفاق في سبيل الله. يقول الدكتور محمد عمر با حاذق: (إن نظم الأمثال يعد مظهراً من مظاهر الإعجاز البياني في القرآن الكريم، فهي تحرك المشاعر والأحاسيس بما تقدمه من ألوان الممثلات في صورة ملموسة فتجذب النفوس للتفاعل معها، والاستفادة بما تقدمه من صور الهداية التي تعري بفعل الخير والعمل به، وكذلك تجنب الشر والابتعاد عنه 1)...

ويذكر العلماء جملة من الأمور التي تعتبر بمثابة الشروط أو المقومات الأساسية للمثل.. تتمثل في إيجاز اللفظ ووضوح المعنى المراد، وحسن التشبيه، وجودة الكناية، وكل هذه المقومات نجدها حاضرة بوضوح في هذه الآيات..

يقول الزركشي في البرهان (..) وفي ضرب الأمثال من تقرير المقصود ما لا يخفى إذ الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي والشاهد بالغائب فالمرغب في الإيمان مثلاً إذا مثل له بالنور تأكد في قلبه المقصود والمزهد في الكفر إذا مثل له بالظلمة تأكد قبحه في نفسه 2

(ولأمثال في اللغة مكانة رفيعة لما لها من دور بارز في الإقناع، وسرعة التفهيم، وإزالة الإشكال. وأحسن الأمثال هي أمثال القرآن الكريم لما حوته من المعاني الحسنة، والدلائل العميقة، المتضمنة للحكمة، ودلائل الحق في المطالب العالية. «وغاية المثل القرآني: إصلاح النفوس، وصقل الضمائر، وتهذيب الأخلاق، وتقويم المسالك، وتصحيح العقائد، وتنوير البصائر، والهداية إلى ما فيه خير للفرد، وصلاح للجماعة، والتنبيه إلى المساوئ لتجنب، وإلى المحاسن لتقبل عليها النفوس الطيبة، والقلوب الزكية» 3.

والأمثال في القرآن الكريم من تصريف الآيات الذي ورد في القرآن الكريم، كما قال تعالى: (انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ 4). وقال سبحانه: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا 5)

وتصريف الآيات يشمل تنويع الحجج والبراهين على قضية واحدة، فيؤتى للقضية الواحدة بأكثر

1 . عمر محمد با حاذق: أسلوب القرآن الكريم بين الهداية والإعجاز البياني. دار المأمون للتراث. دمشق - بيروت. الطبعة الأولى، 1414هـ-1994م. ص 209

2 . الزركشي محمد بن بهادر بن عبد الله: البرهان في علوم القرآن. دار المعرفة - بيروت، 1391 (ج 1 / ص 488)

3 . أمثال ونماذج بشرية من القرآن الكريم، أحمد بن محمد طاحون (1 / 104).

4 . سورة الأنعام آية (46).

5 . سورة الإسراء آية (89).

من دليل وبرهان، فتتابع عليهم الحجج وتُصَرَّف لهم الأمثال والعبر.

ويشمل تصريف الآيات تنويع الأساليب، فيؤتى بالدليل الواحد بأكثر من أسلوب: فتارة بالخبر، وتارة بالاستفهام، وأخرى بالنفي والإثبات، وأحياناً بضرب الأمثال أو القصص، ونحوها. وكل ذلك وارد في القرآن.

أما المعنى الإجمالي لهذه الآيات فقد لخصه ابن القيم رحمه الله بقوله: (شبه سبحانه نفقة المنفق في سبيله سواء كان المراد به الجهاد أو جميع سبل الخير من كل بر بمن بذر بذراً فأُنبتت كل حبة سبع سنابل اشتملت كل سنبل على مائة حبة والله يضاعف بحسب حال المنفق وإيمانه وإخلاصه وإحسانه ونفع نفقته وقدرها ووقوعها موقعها فان ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمان والإخلاص والتثبت عند النفقة وهو إخراج المال بقلب ثابت قد انشرح صدره بإخراجه وسمحت به نفسه وخرج من قلبه قبل خروجه من يده فهو ثابت القلب عند إخراجه غير جزع ولا هلع ولا متبعه نفسه ترجف يده وفؤاده ويتفاوت بحسب نفع الإنفاق ومصارفه بمواقفه وبحسب طيب المنفق وذكائه وتحت هذا المثل من الفقه أنه سبحانه شبه الإنفاق بالبذر فالمنفق ماله الطيب لله لا لغيره باذراً ماله في أرض زكية فمغلة بحسب بذرة وطيب أرضه وتعاهد البذر بالسقي ونفي الدغل والنبات الغريب عنه فإذا اجتمعت هذه الأمور ولم تحرق الزرع نار ولا لحقته جائحة جاء أمثال الجبال وكان مثله كمثّل حبة بربرة وهي المكان فيه نصب).

هذه النظرة العامة على المعنى الإجمالي للآيات ضرورية لتوضيح الوجهة التفسيرية التي يوجه العلماء هذه الآيات نحوها.. وهذا النوع من التفسير الإجمالي لا ينافي أن تكون هناك قبسات تفسيرية أخرى انطلاقاً مما توحى به المعاني اللغوية للمفردات التي تتركب منها الجمل القرآنية، وهذا ما سنحاول إلقاء الضوء عليه في المحور الموالي .

المحور الثاني:

المعنى الدلالي للمفردات وعلاقته بالحرف.

كثير من المؤلفين الذين تعرضوا للبحث في ألفاظ القرآن الكريم سواء بجمعها وإحصائها أو ببيان اشتقاقاتها اللغوية أو فهرستها أو غير ذلك.

تناهت جهودهم عند حصر ألفاظ الأسماء والأفعال وجمعها وإحصائها دون النظر إلى مكانة «الحرف» وأهميته ليس باعتباره وسيلة من وسائل إيضاح معاني الألفاظ فحسب، وإنما باعتباره (العامل المعنوي) الذي يكسب الألفاظ معانيها الدلالية العميقة، ويحدد الفروق الدقيقة بين عبارة هنا وعبارة هناك ... في هذه السورة أو تلك.. وسنحاول هنا رصد جوانب من تلك المكانة على مستوى الأفراد (الألفاظ المفردة) أولاً . ثم على مستوى التركيب ثانياً، وذلك من خلال هذه الآيات التي بين أيدينا.. ونشير إليها مرتبة كما يلي:

1. الحبة: يقول أبو حيان: اسم جنس لكل ما يزرعه ابن آدم ويقتاته، وأشهر ذلك البر، وكثيراً ما يراد بالحب.

ومنه قول المتلمس:

1 . انظر: جامع البيان، لابن جرير، (5/ 195)، والأمثال القرآنية القياسية للجبروع - (ج 1 / ص 2)
2 :ابن القيم: الجوزية الأمثال في القرآن الكريم - مكتبة الصحابة - طنطا الطبعة الأولى، 1406 - 1986 تحقيق إبراهيم بن محمد (ج 1 / ص 50)

آليت حب العراق الدهر أطعمه والحب يأكله في القرية السوس

وحبة القلب سويداؤه، والحبة بكسر الحاء بذور البقل مما ليس بقوت، والحبة بالضم الحب والحب الحبيب¹.

نلاحظ أثر الحرف (الحركة) هنا في تعدد المعاني لهذه اللفظة فجاءت بالفتح لمعنى وبالكسر لمعنى آخر وبالضم لمعنى ثالث ...

2. الإنبات: الإخراج على سبيل التولد يقول الراغب الأصفهاني في مادة (ن ب ت):

«النبت والنبات: ما يخرج من الأرض من الناميات، سواء كان له ساق كالشجر، أو لم يكن له ساق كالنجم، لكن اختص في التعارف بما لا ساق له، بل قد اختص عند العامة بما يأكله الحيوان، وعلى هذا قوله تعالى: {لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا} ومتى اعتبرت الحقائق فإنه يستعمل في كل نام؛ نباتا كان، أو حيوانا، أو إنسانا، والإنبات يستعمل في كل ذلك. قال تعالى: {فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا}، {فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا} اللَّهُ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ⁴

فلناحظ أن هذه المادة تستعمل في القرآن الكريم بصيغ متعددة مثل: أنبت ونبت ونباتا .

وكل واحد من هذه المعاني بسبب زيادة حرف أو تقدمه أو تأخره يدل على معنى كما يتضح من خلال الآيات القرآنية التي أورد الراغب هنا.

كما تستخدم القرآن كلمة نباتا للإنسان {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا}

3. السنبلة: معروفة، ووزنها فنعلة، فالنون زائدة بذلك على قولهم: أسبل الزرع أرسل ما فيه كما ينسبل الثوب، وحكى بعض اللغويين سنبل الزرع.

قال بعض أصحابنا النون أصلية، ووزنه فعلل، لأن فنعل لم يثبت فيكون مع أسبل كسبط وسبطر⁵. كثيرا ما نجد أنه من السهل على النحاة أن يعتبروا حرفا زائدا دون النظر إلى الفرق بين دلالة اللفظ بالنظر إلى زيادته ودلالته بالنظر إلى أصالته. فملاحظة أن (العرب لا تزيد حرفا إلا لزيادة معنى) نجدها غائبة في تفسير النحاة للكثير من الظواهر «التصريفية» لاسيما بالنسبة للزيادة والنقص.

4. المنّ: ما يوزن به، والمنّ قدر الشيء ووزنه، والمنّ والمنة النعمة، منّ عليه أنعم. ومن أسمائه تعالى: المنان، والمنّ النقص من الحق والبخس له، ومنه المنّ المذموم، وهو ذكر المنة للمنعم عليه على سبيل الفخر عليه بذلك، والاعتداد عليه بإحسانه، وأصل المنّ القطع، لأن المنعم يقطع قطعة من ماله لمن ينعم عليه⁶.

تلك أربعة معان ترد لها لفظة «المن» ولعل فحوى السياق الخطابي هو الذي يحدد المعنى المراد منها في كل موضع، وهذا النهج موجود حتى في اللغة الأخرى غير العربية.

1 . تفسير البحر المحيط 3ص41

2 . [النبأ/15]

3 . [عبس/ 27 - 31]

4 . الراغب الأصفهاني . مفردات ألفاظ القرآن - (ج 2 / ص 400)

5 . تفسير البحر المحيط لأبي حيان..

6 . تفسير البحر المحيط 3ص41

5. الرئاء: فعال مصدر من راء من الرؤية، ويجوز إبدال همزته ياء لكسرة ما قبلها، وهو أن يرى الناس ما يفعله من البر حتى يثنوا عليه ويعظموه بذلك لا نية له غير ذلك.

و(...الرئاء بهمزتين أولاهما أصيلة والأخيرة مبدلة عن الياء لوقوعها متطرفة أثر ألف زائدة . ووزنه فعال مصدر راءى فاعل من الرؤية ويقال: مرآة وصيغة المفاعلة فيه مبالغة أي بالغ في إراءة الناس عمله محبة أن يروه ليفخر عليهم1...) وهو إظهار الجميل ليرى، مع أن باطنه يكون قبيحاً2... هنا نلاحظ أثر نوع آخر من «العلامات» وهو التعبير بـ«مثال» أو وزن معين لإفادة معنى خاص وهو المبالغة كما نلاحظ في «الرئاء» الذي هو على وزن (فعال) بكسر فائه...

6. الصفوان: الحجر الكبير الأملس، وتحريك فائه بالفتح لغة، وقيل: هو اسم جنس واحد صفوانة.

وقال الكسائي: الصفوان واحد صفي، وأنكره المبرد، وقال: صفي جمع صفا نحو: عصا وعصي، وقفا وقفي وقال الكسائي أيضاً: صفوان واحد، وجمعه صفوان بكر الصاد.

وقاله النحاس يجوز أن يكون المكسور الصاد واحداً. وما قاله الكسائي غير صحيح، بل صفوان جمع لصفاء. كأخ وإخوان. وكرى وكروان.

7. التراب: معروف ويقال فيه توراب، وترب الرجل افتقر، واترب استغنى، الهمزة فيه للسلب، أي: زال عنه التراب وهو القر، وإذا زال عنه كان غنياً.

8. الوابل: المطر الشديد، وبلت السماء تبل، والأرض موبولة.

وقال النضر: أول ما يكون المطر رشاً، ثم طساً، ثم طلاً، ورذاذاً، ثم نضحاً وهو قطرتين قطرتين، ثم هطلاً وتهتاناً ثم ابلاً وجوداً. والوبيل: الوخيم، والوبيل: العصي الغليظة والبيلة حزمة الحطب3.

يقول الراغب الأصفهاني: وبل: الوبل والوابل المطر الثقيل القطار، قال تعالى: (فأصابه وابل - كمثل جنة بربوة أصابها وابل) ولمراعاة الثقل قيل للامر الذي يخاف ضرره وابل، قال تعالى: (فذاقوا وابل أمرهم)، ويقال طعام وبيل، وكلأ وبيل يخاف وباله، قال (فأخذناه أخذاً وبيلاً).4

9. الصلد: الأجرد الأملس النقي من التراب الذي كان عليه، ومنه صلد جبين الأصلع برق. يقال: صلد يصلد صلداً. بتحريك اللام فهو صلد بالإسكان. وقال النقاش: الصلد الأجرد بلغة هذيل. وحكى أبان بن تغلب: أن الصلد هو اللين من الحجارة. وقال علي بن عيسى: الصلد، الخالي من الخير من الحجارة والأرضين وغيرهما، ومنه: قدر صلود: بطيئة الغليان5.

10. الربوة: قال الخليل: أرض مرتفعة طيبة، ويقال فيها: الرباوة، وتثلاث الرء في اللغتين، ويقال: رابية.

قال الشاعر:

وغيث من الوسمي جَوّ تلاعه أجابت روابيه النجا وهواطله

1 التحرير والتنوير - (ج 1 / ص 175)

2 أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: 775هـ تفسير اللباب في علوم الكتاب. 174.8

3 . تفسير البحر المحيط لأبي حيان

4 . مفردات غريب القرآن للأصفهاني - (ج 1 / ص 511)

5 . تفسير البحر المحيط مصدر سابق

وقال الأخفش: ويختار الضم في روبة لأنه لا يكاد يسمع في الجمع إلّا الربا، وأصله من ربا الشيء زاد وارتفع. وتفسير السدي بأنها: ما انخفض من الأرض ليس بشيء.¹

11. الطل: المستدق من القطر الخفيف، هذا مشهور اللغة. وقال قوم، منهم مجاهد: الطل الندى، وهذا تجوؤ.

وفي (الصاح): الطل أضعف المطر، والجمع طلال، يقال: طلّت الأرض وهو مطلوب.

12. النخيل: اسم جمع أو جمع تكسير، كنخل إسم الجنس، كما قالوا كلب وكليب.

قال الراغب: سمي بذلك لأنه منخول الأشجار وصفوها، وذلك أنه أكرم ما ينبت، لكونه مشبهاً للحيوان في احتياج الأنثى منه إلى الفحل في التذكير.

أي التلقيح، وأنه إذا قطع رأسه لم يثمر.

13. العنب: ثمر الكرم، وهو أسم جنس، واحده عنبه، وجمع على أعناب. ويقال: عنباء بالمد غير منصرف على وزن سبراء في معنى العنب.

14. الإعصار: ريح شديدة ترتفع فيرتفع معها غبار إلى السماء يسميها العامة الزوبعة، قاله الزجاج، وقيل: الريح السوموم التي تقتل، سميت بذلك لأنها تعصر السحاب، وجمعها أعاصير.

15. الاحتراق: معروف وفعله لا يتعدى، ومتعديه رباعي، تقول: أحرقت النار الحطب والخبز، وحرقت ناب الرجل ثلاثي لازم إذا احتك بغيره غيظاً، ومتعد تقول: حرق الرجل نابه، حكه بغيره من الغيظ.²

وبعد هذه الإطلالة العامة على معاني المفردات الأساسية التي تشتمل عليها هذه الآيات نلاحظ أن هناك أثراً بارزاً للحرف أو «العلامة» بالمعنى الأعم الذي يشمل الحركة كما رأينا في لفظ «الحبة» ولفظ «المن» والصيغة كما رأينا في لفظ «الرئاء»، والجمع كما في لفظ «النخيل»... والحرف كما رأينا في لفظ «الإنبات» و «الإعصار».

فالحمولة الدلالية للفظ اسماً كان أو فعلاً لا يكتسبها إلا من خلال دلالة «الحرف» الذي يضيف عليه المعنى ويعطيه بعده الإعجازي، وقد يلمح الحرف إلى معاني كثيرة أخرى لا تدرك إلا من خلال عملية التدبر التي أمر القرآن الكريم بها في غير ما آية...

(لأن هذه الحروف تؤثر في المعاني وتؤثر في الأساليب، وتحدد الفروق الدقيقة بين عبارة وعبارة وأثرها في النفس الإنسانية وأثر النفس الإنسانية فيها وفي دلالتها³

1 . نفس المصدر السابق

2 . نفسه

3 - محمود محمد شاكر: مقدمة كتاب: دراسات لأسلوب القرآن الكريم ج ١ ص: ٦

المحور الثالث:

الأعراب المختلفة وأثرها في فهم دلالة الألفاظ

وقبل الحديث عن تلك الأعراب أشير إلى تعريف موجز للإعراب يتضمن . في نظري . تحديد مفهومه من الناحيتين: اللغوية والاصطلاحية . ذكره ابن منظور في لسان العرب يقول: (قال الأزهري: الإعراب والتعريب معناهما واحد وهو الإبانة، يقال أعرب عنه لسانه وعرب أي: أبان وأفصح، وسمي الإعراب إعراباً لتبيينه وإيضاحه، وعرب منطقاً أي هذب من اللحن، وأعرب كلامه إذا لم يلحن في الإعراب...1).

فتعريف الإعراب بأنه الإبانة عن المعاني وكشفها للسامع وإيضاحها له يتفق تماماً مع ما نرمي إليه ونقصه من خلال هذا العرض، لذلك فضلت هذا التعريف على غيره من التعريفات الأخرى الكثيرة.. لأن مدار الإعراب ومقصده الأساسي . من الناحية الاصطلاحية . هو الإبانة عن المعاني وتحديد المراد بالألفاظ وتوجيه دلالتها ولهذا يقول محيي الدين الدرويش: «إن أقوم طريق يسلك في الوقوف على معنى القرآن الكريم ويتوصل به إلى تبين أغراضه ومغزاه: معرفة إعرابه واشتقاق مقاصده من أنحاء خطابه والنظر في وجوه القرآن المنقولة عن الأئمة الأئمة...2»

فالجانب الإعرابي من أهم الجوانب التي يتعين أن يلاحظها الباحث في المعاني القرآنية في جميع المجالات لا سيما في المجال الفقهي لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب...

ولذلك ألف علماء الأمة . رحمة الله عليهم . العديد من الكتب في إعراب القرآن العظيم مثل كتب الزجاج وابن الأنباري وأبي حيان وابن سيدة وغيرهم كثير...

وقد وجه الفقهاء والمفسرون عنايتهم إلى كتب إعراب القرآن تلك يستقون منها المعاني القرآنية الأصيلة، ويستنبطون في ضوءها الأحكام الفقهية واللغوية والأصولية والتفسيرية وغيرها..

وإذا كان الجانب الإعرابي بهذه الأهمية الكبيرة في فهم القرآن.. فإن الحرف يعتبر هو الأداة الأولى في الإعراب، إذ به . وحده . تتمكن من فهم دلالة الألفاظ .. وبه يتم التمييز بين معاني متعددة ومختلفة تتوارد على اللفظ الواحد في آن ...

ونأتي الآن إلى ما يمكن أن نسماه « ..النظر في وجوه الإعراب المنقولة عن الأئمة الأئمة » لنرى كيف تستنبط أو تستكشف المعاني الفقهية و...غيرها من خلال النظر في الأوجه الإعرابية .

يقول أبو البقاء العكبري: (قوله تعالى: مثل الذين ينفقون أموالهم.. في الكلام حذف مضاف تقديره مثل إنفاق الذين ينفقون، أو مثل نفقة الذين ينفقون و«مثل» مبتدأ و«كمثل حبة» خبره وإنما قدر المحذوف لأن «الذين ينفقون» لا يشبهون بالحبة بل إنفاقهم أو نفقتهم »

أنبت سبع سنابل» الجملة في موضع جر صفة لحبة. «في كل سنبله مائة حبة» ابتداء وخبر في موضع جر صفة لسنابل ويجوز أن يرفع «مائة حبة» بالجار لأنه قد اعتمد لما وقع صفة ويجوز أن تكون الجملة صفة لسبع كقولك رأيت سبعة رجال أحرار وأحراراً ويقراً في الشاذ مائة بالنصب بدلا من سبع أو بفعل محذوف تقديره أخرجت والنون في سنبله زائدة وأصله من أسبل وقيل هي أصل والأصل في مائة مئي يقال أمأت الدراهم إذا صارت مائة ثم حذفت اللام تخفيفاً كما حذفت لام يد3)

1 . ابن منظور . لسان العرب مادة: "ع رب"

2 . محيي الدين الدرويش: إعراب القرآن الكريم وبيانه . الطبعة السابعة 1999م دار ابن كثير ج1ص6

3 . أبو البقاء محب الدين عبد الله بن أبي عبد الله الحسين بن أبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري: التبيان في إعراب القرآن . الناشر: دار إحياء الكتب العربية تحقيق: علي محمد البجاوي (ج 1 / ص 111)

فبما أن الإعراب مندرج تحت المعنى كما يقال اعتبروا أن هناك مضافا إليه محذوفا كما رأينا في بداية الآية ، لأن الإخبار عن المضاف إليه لفظ «مثل» بأنه كمثل حبة يقتضي أن يكون المضاف إليه شيئا غير «الذين ينفقون أموالهم» ومن هنا تعددت الأقوال في هذا المضاف إليه هل هو نفقة الذين ينفقون أموالهم أو إنفاق الذين ينفقون أموالهم والفرق بين الاثنين واضح ..

وقد حلل ذلك الزمخشري وعَلَّه . مشيرا إلى تفسير ثالث بقوله: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ} لا بد من حذف مضاف، أي مثل نفقتهم كمثل حبة، أو مثلهم كمثل باذر حبة . والمنبت هو الله، ولكن الحبة لما كانت سببا أسند إليها الإنبات كما يسند إلى الأرض وإلى الماء . ومعنى إنباتها سبع سنابل، أن تخرج ساقا يتشعب منها سبع شعب، لكل واحدة سنبله وهذا التمثيل تصوير للإضعاف، كأنها ماثلة بين عيني الناظر¹

وإذا طرحنا هذه التفسيرات الإعرابية التي ذكرها العلماء جانبا، ونظرنا إلى الآية مجردة عن تلك التأويلات نجد أن هناك . كما هو واضح من ظاهر الآية . إسناد الإنبات إلى الحبة كما أن هناك إخبارا بأن مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله «كمثل حبة»..

أما الأول فقد علله الزمخشري بأن «الحبة لما كانت سببا أسند إليها الإنبات كما يسند إلى الأرض وإلى الماء».. فبسبب «الحرف» الذي هو الهمزة في أُنبت علمنا أن الإسناد هنا إلى الحبة ولذلك أشار الزمخشري هنا إلى الحكمة أو العلة في إسناد الإنبات إلى الحبة ومنه نأخذ حكما فقهيًا في جواز إسناد الحكم مجازا إلى غير فاعله حقيقة.. فالمنبت الحقيقي هو الله كما ورد ذلك في آيات أخرى كثيرة فأثر الحرف إذا هنا باد.

وأما الثاني فقد اعتبروا أنه لا بد فيه من تقدير ليستقيم المعنى على حسب الظاهر كما قال أبو البقاء: «وإنما قدرنا المحذوف لأن الذين ينفقون لا يشبهون بالحبة بل إنفاقهم أو نفقتهم»³

أما ابن سيده فقد أورد قولين مختلفين في إعراب {الذين ينفقون}:

الوجه الأول: أنه مبتدأ والجملة من قوله: {لَهُمْ أَجْرُهُمْ} خبر.

الوجه الثاني: أن {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ} مبتدأ والجملة من قوله: {لَهُمْ أَجْرُهُمْ} خبر مبتدأ محذوف تقديره: هم الذين ينفقون {ولهم أجرهم} في موضع الحال⁴

ثم يقول: والأولى إذا أعرب: الذين، خبر مبتدأ محذوف أن يكون: لهم أجرهم، مستأنفاً وكأنه جواب لمن قال: هل لهم أجر؟ وعند من أجرهم؟ فقيل {لهم أجرهم عند ربهم} وعطف: ب«ثم» التي تقتضي المهلة، لأن من أنفق في سبيل الله ظاهراً لا يحصل منه غالباً المن والأذى، بل إذا كانت بنية غير وجه الله تعالى، لا يمن ولا يؤذي على الفور، فلذلك دخلت: ثم، مراعاة للغالب. وإن حكم المن والأذى المعتقبين للإنفاق، والمقارنين له حكم المتأخرين⁵.

و{فِي كُلِّ سُنْبَلَةٍ} في موضع الصفة: لسنابل، فتكون في موضع جر، أو: لسبع، فيكون في موضع نصب، وترتفع على التقديرين: مائة، على الفاعل لأن الجار قد اعتمد بكونه صفة، وهو أحسن من أن يرتفع على الابتداء، و: في كل، خبره، والجملة صفة، لأن الوصف بالمفرد أولى من الوصف

1 . الكشف - (ج 1 / ص 231)

2 . المصدر السابق

3 . المصدر السابق

4 . إعراب القرآن لابن سيده - (ج 2 / ص 50)

5 . إعراب القرآن لابن سيده - (ج 2 / ص 50)

بالجملة، ولا بد من تقدير محذوف، أي: في كل سنبله منها، أي: من السنابل¹.

{قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَّدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَى} وارتفاع: قول، على أنه مبتدأ، وسوغ الابتداء بالانكسة وصفها، ومغفرة معطوف على المبتدأ، فهو مبتدأ ومسوغ جواز الابتداء به وصف محذوف أي: ومغفرة من المسؤول، أو: من السائل. أو: من الله، على اختلاف الأقوال. و: خير، خبر عنهما. وقال المهدوي وغيره: هما جملتان، وخبر: قول، محذوف، التقدير: قول معروف أولى ومغفرة خير. قال ابن عطية: وفي هذا ذهاب ترويق المعنى، وإنما يكون المقدّر كالظاهر. إنتهى. وما قاله حسن، وجوز أن يكون: قول معروف، خبر مبتدأ محذوف تقديره: المأمور به قول معروف، ولم يحتج إلى ذكر المن في قوله: يتبعها، لأن الأذى يشمل المن وغيره كما قلنا².

فالناظر فيما أورده المفسرون من أعاريب مختلفة حول هذه الآيات وغيرها يجد أن توجيهاتهم الإعرابية تأخذ في كثير من الأحيان . نمطا . خاصا يتبع القواعد النحوية التي تعرب النصوص وتفسرها تفسيرا شكليا أو لفظيا بحيث تركز على الألفاظ أكثر من تركيزها على المعاني .. كما يلحظ كثرة اختلاف النحويين في إعراب الألفاظ القرآنية، وقد أرجع محمد عبد الخالق عزيمة ذلك إلى سببين:

السبب الأول: أن أسلوب القرآن معجز لا يستطيع أحد أن يحيط بكل مراميه ومقاصده فاحتمل كثيرا من المعاني، وكثيرا من الوجوه .

السبب الثاني: احتفاظ النحويين لأنفسهم بحرية الرأي، وانطلاق الفكر فلا يعرفون الحجر على الآراء، ولا تقديس رأي الفرد مهما علت منزلته³

وقد نورد قول أبي حيان: «لسنا متعبدين بمذهب البصريين»⁴

وحتى لا أطيل أكثر من اللازم أختتم هذا العرض المتواضع بسؤال مهم هو لماذا ضرب الله مثلا لنمو النفقة بالحبّة دون غيرها؟

وقد أجاب أبو حيان رحمه الله تعالى عن هذا السؤال بأن الله تعالى ضرب المثل هنا بالحبّة دون غيرها من أصناف النباتات الكثيرة ليشير إلى البعث يوم النشور فكما أخرج ربك سبعمائة حبة من حبة قادر على إحياء الموتى .. يقول:(وفي تمثيل النفقة بالحبّة المذكورة إشارة أيضاً إلى البعث، وعظيم القدرة، إذ حبة واحدة يخرج الله منها سبعمائة حبة، فمن كان قادراً على مثل هذا الأمر العجيب، فهو قادر على إحياء الموات، وبجامع ما اشتركا فيه من التغذية والنمو.)⁵

الخاتمة

كلما يمكن قوله في ختام هذه الأسطر هو أن الإحاطة بما تضمنته آية قرآنية واحدة من المعاني يعتبر من الأمور المعجزة...

لكن هذا لا يمنعنا من الإشارة في نهاية هذا العرض إلى نقاط يمكن تركيزها في القضايا التالية:

- 1 . إعراب القرآن لابن سيده - (ج 2 / ص 49)
- 2 . نفس المصدر السابق
- 3 . دراسات لأسلوب القرآن 1 / 1312
- 4 . نفس المصدر السابق
- 5 . تفسير الحر المحط مصدر سابق

1. إن موضوع «أثر الحرف في فهم دلالة الألفاظ القرآنية» يعتبر من أهم المواضيع التي مازالت بحاجة إلى بحوث جادة تكشف جوانب من أثر الحرف الذي يعتبر هو «العامل المعنوي» والأداة الأولى في الإعراب، إذ به . وحده . نتمكن من فهم دلالة الألفاظ .. وبه يتم التمييز بين معاني متعددة ومختلفة تتوارد على اللفظ الواحد في آن ...
2. إن الأوجه الإعرابية للألفاظ القرآنية غير مقصورة على التفسيرات المخصوصة التي ذكرها المفسرون للقرآن والمعرّبون لمفرداته وجمله، مادام أنه ليس هناك وجه تفسيري تتعين الصيرورة إليه بمفرده.. ومن هنا احتفظ النحويون لأنفسهم بحرية الرأي، وانطلاق الفكر فلا يعرفون الحجر على الآراء، ولا تقديس رأي الفرد مهما علت منزلته كما يقول محمد عبد الخالق عزيمة .
3. إن أثر الحرف الإعرابي يعتبر من أهم الموجهات أو المرجحات لدلالة اللفظ القرآني على مستوى الأفراد والتركيب معا .
4. إن توضيح دلالة الألفاظ القرآنية يقتضي أولاً تحديد الوجهة التفسيرية العامة للسياق الذي تندرج فيه، أو ما يسمى بالمعنى الإجمالي الذي قد يهدي . عند التدبر إلى لطائف تفسيرية هامة انطلاقاً مما توحى به «العلامات الحرفية» التي تتخلل المفردات والألفاظ والجمل القرآنية.

فهرس المصادر والمراجع:

1. الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني أبو القاسم مفردات ألفاظ القرآن . دار القلم . دمشق
2. محيي الدين الدرويش: إعراب القرآن الكريم وبيانه . الطبعة السابعة 1999م دار ابن كثير
3. عمر محمد با حاذق: أسلوب القرآن الكريم بين الهداية والإعجاز البياني
4. دار المأمون للتراث، دمشق - بيروت. الطبعة الأولى، 1414هـ-1994م
5. الزركشي محمد بن بهادر بن عبد الله: البرهان في علوم القرآن . دار المعرفة - بيروت، 1391
6. ابن القيم: الجوزية الأمثال في القرآن الكريم - مكتبة الصحابة - طنطا الطبعة الأولى، 1406 - 1986 تحقيق إبراهيم بن محمد
7. أحمد بن محمد طاحون أمثال ونماذج بشرية من القرآن الكريم،
8. أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: 775هـ تفسير اللباب في علوم الكتاب . 8. 174
9. أبو البقاء محب الدين عبد الله بن أبي عبد الله بن الحسين العكبري: التبيان في إعراب القرآن . دار إحياء الكتب العربية تحقيق: علي محمد البجاوي
10. محمود محمد شاكر: مقدمة كتاب: دراسات لأسلوب القرآن الكريم
11. جامع البيان، لابن جرير
12. الأمثال القرآنية القياسية للجربوع
13. تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي الجباني
14. التحرير والتنوير - للطاهر محمد بن عاشور
15. ابن منظور . لسان العرب
16. الكشف - الزمخشري
17. إعراب القرآن لابن سيده.

من قضايا الشعرية في التراث العربي

(الجاحظ وأبو حيان
نموذجاً)

الدكتور محمد الأمين محمد
المصطفى محمد أشفاق

أستاذ النحو وعلوم اللغة
مؤسسة المحظرة الشنقيطية الكبرى - اكجوجت



1. المقدمة:

هذا بحث نحاول فيه تتبع بعض قضايا الشعرية عند الأقدمين سيما ما يتعلق بخصائص لغة الشعر ونجعل مدار الاستشهاد فيه على مقتطفات من كلام أبي عثمان الجاحظ في البيان والتبيين، وأبي حيان التوحيدي في الإمتاع والمؤانسة، ثم ننوع الاستشهاد ببعض علماء اللغة والبيان ونصب أعيننا جملة من الإشكالات نحاول إثارتها وتلمس بعض أجوبتها من قبيل: ماهي مقومات الشعرية وماهي أهم خصائص الخطاب الشعري؟ وماهي سمات اللغة الشعرية؟

وما مدى اتفاق الآراء الواردة عند من سنستشهد بكلامهم على معايير يمكن الخروج انطلاقاً منها بخصائص اللغة الشعرية في الثقافة العربية القديمة؟

وجدير بالذكر أننا تجنبنا الدخول في المقايضة بين ما يقال عن الشعرية ولغة الشعر في النظريات الحديثة إلا لمأما وليس مرد ذلك رد هذه النظريات، وإنما هو عائد لما أشار إليه محمود شاكر من أن القضية الأدبية إنما تقوم على دراسة مؤيدة بالبرهان والشواهد، وأن غياب البراهين والشواهد انجر عنه (إعراض ناشئة الأجيال لعن الشعر الجاهلي وحده، بل عن الشعر العربي كله وعن اللغة نفسها إعراضاً لا مثيل له في تاريخ الأمم)¹

فليس هدف البحث إثبات وعي القدماء بماجد في هذه النظريات وإنما مقصده نقل رؤيتهم لخصائص اللغة انطلاقاً من نوع الكلام ومقام التخاطب، وأما المقارنة بالنظريات الحديثة فمقصد تابع على لغة أهل المقاصد، قد يشفع لتأخير خوف من مغبة الإسقاط، ويشفع لحضوره بالتبعية ضرورة الانفتاح العلمي الواعي.

وسوف نحاول الإجابة على هذه الأسئلة من خلال العناوين التالية:

2. خصائص الخطاب الشعري:

نقصد بخصائص الخطاب الشعري جملة المميزات الأسلوبية والنحوية والتركيبية والبلاغية التي تميز الشعر عن الأجناس الأدبية الشائعة في الثقافة العربية، وهو ما أجمله بعض المحدثين حين عرف الخطاب الشعري بأنه (ما يفصح عنه النص الشعري قديمة وحديثه عند تفكيكه إلى مكوناته الأصلية، البنى التركيبية اللغوية ذات الاتصال الوثيق بالبنى النحوية من جهة، وجموع البنى البلاغية في تعالقها بالبنى السالفة من جهة أخرى ما يؤسس ملمحه الأسلوبية الذي يميزه عن سائر النصوص من جنسه ومن ثمة سائر أنواع الخطابات الأخرى)¹ وجملة النصوص التي نوردها تتفق في خصائص عامة للخطاب الشعري يمكن إجمالها في الآتي:

2-1 خطاب جمالي:

إن هذا الوعي بتحديد خصائص الخطاب الشعري انطلاقاً من منظور انتسابه إلى فنون قولية ذات بعد جمالي كان حاضراً في كتب الأقدمين، فهذا الجاحظ يعرف الشعر باعتباره صنعة تتميز عن نماذج أخرى من الصناعة قائلًا (إن الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوي)² وقد تبه حازم القرطاجني إلى أهمية النظر إلى الشعر انطلاقاً من خصوصيته بين الأجناس الأدبية التي ينتمي وإياها إلى صنعة واحدة، وهي صناعة البلاغة، فلكل واحد من فنون البلاغة خصائص صناعية، وخاصة الشعر هي أن له ميزات شكلية وأخرى بلاغية، ولا بد من التواضع بين هذه الخصائص لتكتمل الصنعة الشعرية، ووصل به الأمر حد التفريق بين النظامية والشعرية حيث يقول (وكذلك ظن أن الشعرية في الشعر إنما هي نظم أي لفظ كيف ما اتفق نظمه، وتضمينه أي غرض اتفق، على أي صفة اتفق، ولا يعتبر في ذلك قانون ولا رسم موضوع)³ الشعر تبعاً لهذا القول صنعة تتحدد لها مقاصد جمالية عالجه القدماء انطلاقاً من الموازنة بينه وبين الفنون النثرية وصولاً إلى الحديث عن وظائف الخطاب الشعري، والتي من أهمها أن يكون مطرباً سلساً، وهي وظيفة لا تتأتى دون استكمال متطلبات الشعرية التي يفصح عنها الجاحظ بقوله (وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخفيف اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع ومثانة السبك)⁴

هذه أركان أربعة تقوم عليها بنية الخطاب الشعري من أجل تحقيق مقصد جمالي لا تحققه الأجناس الأدبية الأخرى، ومتى غاب ركن من هذه الأركان اختلت الشعرية، فالطبع والصياغة اللفظية والوزن والتصوير، تتلاحم لتشكّل مجتمعة الصورة الشعرية، على أن الزمخشري يجعل اللفظ قطب رحى الشعرية ويلفت انتباه القارئ قائلًا (أقدم بين يدي الخواص مما أنا بصده مقدمة، وهي أن بناء الشعر العربي على الوزن المخترع الخارج عن بحور شعر العرب لا يقدر في كونه شعراً عند بعضهم، وبعضهم أبى ذلك وزعم أنه لا يكون شعراً حتى يحامى فيه على وزن من أوزانهم، فالذي ينصر المذهب الأول هو أن حد الشعر لفظ موزون مقفى يدل على معنى، فهذه أربعة أشياء؛ اللفظ والمعنى والوزن والقافية، واللفظ هو وحده الذي يقع فيه الاختلاف بين العرب والعجم)⁵

- 1 - عبد القادر عليم: الخطاب الشعري ووجوه الانفتاح الدلالي قراءة في شعرية الإضممار بحث منشور ضمن أعمال ندوة الإضممار والإطهار في الخطاب ص350 جامعة قرطاج تونس 2014
- 2 - أبو عثمان الجاحظ البيان والتبيين ج3 ص131 تح عبد السلام هارون
- 3 - حازم القرطاجني منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص27 تحقيق محمد حبيب الخوجة ط3
- 4 - الجاحظ البيان والتبيين ج1
- 5 - الزمخشري الفسطاط في علم العروض ص56 و75 تح يوسف عالي ط1 في 1990

2-2 خطاب موسيقي:

يلمح نص الزمخشري الآنف إلى إشكال تم تداوله في الأوساط النقدية، مرده الاختلاف في الجواب على السؤال ما الذي يجعل الشعر شعرا؟ حيث تشعبت زوايا النظر بين من حصر الشعرية في الموسيقى ومن ولى وجهه شطر اللفظ وموقعه من النفس وملاءمته للمعنى، فقد ركز القرطاجني على دور الموسيقى حتى جعل لكل بحر من بحور الشعر مزاجا نفسيا ومعنويا يناسبه، فكأن العروض يؤدي دورا مرتبطا بالأمزجة والأوقات وأحوال النفوس ف(الطويل يعبر عن البهاء والقوة، والكامل يعبر عن الحسن والاطراد، والخفيف للرشاقة، والمتقارب للبساطة والسهولة، والمديد للركة واللين، والرميل للين والسهولة والبسيط للطلاوة، والمنسرح للاضطراب (...)) وأما الوزن الذي سموه المضارع فما أرى أن شيئا من الاختلاق على العرب أحق بالتكذيب والرد منه، لأن طباع العرب كانت أفضل من أن يكون هذا الوزن من نتاجها وما أراه أنتجه إلا ابن برسام، فيا ليت له لم يضعه ولم يدنس أوزان العرب¹ وتكمن قيمة هذا النص في جملة من الأشياء:

أولها أنه يربط القوافي بالمعاني النفسية رغم اختلاف هذه المعاني عند الناس واختلاف ما تثيره تفعيلة كل بحر لدى الأشخاص، فعلى أي أساس ربط القرطاجني معنى البهاء بالطويل دون الكامل، وما العلاقة بين البهاء والقوة اللذين يعبر عنهما الطويل؟ وثانيها أن القرطاجني يجعل للذائقة العربية مزاجا موسيقيا، وتشي أحكامه باطراد هذا المزاج لدرجة الحكم على بحر المضارع أنه ليس من أوزان العرب. وثالثها أن أوزان العرب تناسبها ألفاظ معينة مما يدفع بنا للتساؤل عن التناسب بين الألفاظ والبحور الشعرية من جهة، والألفاظ والمعاني من جهة ثانية.

2 خطاب مخصص:

لقد انتبه أبو حيان إلى صعوبة تحديد معنى الشعرية على غرار ما تقدم عند الزمخشري فعالج الظاهرة الجمالية انطلاقا من الأسلوب جاعلا السعي إلى التأثير مطلبا يقصده النثر والشاعر، وفي سبيل تحقيقه قد يرتفع النثر إلى درجة الشعرية أو النظم، وقد تخف جذوة الشعرية فتتزلز ألفاظ الشعر إلى حيز النثر يقول (إذا نُظر في النظم والنثر على استيعاب أحوالهما وشرائطهما والاطلاع على هوائيهما وتواليهما، كان أن المنظوم فيه نثر من وجه والمنثور فيه نظم من وجه، ولولا أنهما يستهماان هذا النعت لا ائتلفا وما اختلفا)²

وهو ما يحيط الصنعة الشعرية بجملة من المحاذير تلزم من يتصور أبنية النظم، بالتزيي بلبوس الشعر، وقد درج علماء الأدب والبلاغة على التنبيه إلى أن الشعر خطاب يلجه من يلجه اختيارا، مما يستدعي المحاكمة بمعايير صارمة قد لا يخضع لها لا الخطاب النثري العادي ولا الخطاب النثري الجمالي، ذلك أن من فضائل النظم أنه (صار صنعة برأسها، وتكلم الناس في قوافيها وتوسعوا في تصاريفها وأعاريضها (...)) وما هكذا النثر فإنه قصر عن هذه الذروة الشامخة والقنة العالية فصار بذلة لكافة الناطقين من الخاصة والعامة³ ومتى توفر الوعي بخصوصية الكتابة الشعرية باعتبارها حالة إبداعية، صح لرسالة الشعر أن

1 - حازم القرطاجني منهاج البلاغة وسراج الأدباء ص243

2 - أبو حيان التوحيدي الإمتاع والمؤانسة ص 328 تح أحمد أمين وأحمد الزين 2017

3 - المصدر السابق

تصل وتؤدي دورها الجمالي وبذلك جزم الجاحظ حين قال معقبا على أدوات الشاعرية (وإذا ورد عليك الشعر في ذلك كان كالخمر في لطف ديبه وإلهائه وهزه وإثارتته)¹ ويعبر التوحيدي عن هذا الموضوع متخذا من أولية النثر سببا داعيا إلى ترسم الجمال، إذ الشعر ملجأ تدعوا إليه حاجات إنسانية تدفع الناس إلى الخروج عن أصل الكلام الذي هو النثر) فالنثر أصل الكلام والنظم فرع له لكن لكل واحد منهما زائئات وشائئات؛ فأما زائئات الكلام فهي ظاهرة لأن جميع الناس في أول كلامهم يقصدون النثر، وإنما يتعرضون للنظم في الثاني بداعية عارضة وسبب باعث وأمر معين)²

وانطلاقا من هذه الخصائص التي يمتاز بها الخطاب الشعري يمكن القول إن صناعة الشاعر قائمة على أبعاد شكلية تمثلها موسيقى الشعر، وأبعاد فنية ومضمونية تنهض بها الألفاظ التي منها تتشكل الصورة، وقد أجمل بعض المعاصرين النواميس التي تحكم موسيقى الشعر العربي الخارجية فحصرها في:

- التكرار التفعيلي المطرد.
- انتهاء التفعيلة بانتهاء الكلمة في مواضع متقاربة.
- عدم إهمال القافية.

وهي تمثل القواعد الضابطة التي يفرق من خلالها بين الشعر وفنون القول³ ولكن سرد هذه الخصائص يدفعنا إلى التساؤل عن خصائص اللغة الشعرية التي تؤدي إلى تحصيل هذه الشروط الجمالية؟

3. سمات اللغة الشعرية:

نقصد باللغة الشعرية في هذا السياق الألفاظ التي تؤدي المراد الشعري، سواء بالنظر إلى اللفظ المفرد أو إلى الجمل الشعرية وقد سبكت في القالب الموسيقي، والمتأمل لما سطره الأقدمون تطالعهم جملة من الشروط منها ما يتعلق باللفظ ومنها ما يتعلق بالنظم أو السبك ومنها ما يتعلق بالمعنى.

3-1 ألفاظ الشعر:

اللفظ الشعري كما يتصوره القدماء متصف بجملة من الصفات تواترت عندهم في مجملها وإن اختلف التعبير عنها أحيانا، وهي سمات تقوم على فكرة التخيير على حد تعبير الجاحظ والتي تلمح إلى عملية معجمية يختار اللفظ فيها انطلاقا من وحي القافية من جهة، والقدرة على النهوض بالمعنى من جهة ثانية، وقد قال الجاحظ عن شأن الشعر (وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وجودة السبك وسهولة المخرج وكثرة الماء الخ)⁴ ويفصح النص عن شروط أربعة بها يتحقق التخيير هي:

- 1 - الجاحظ البيان والتبيين ج1 ص70
- 2 - التوحيدي الإمتاع والمؤانسة ص328
- 3 - عبد العزيز نوي موسوعة موسيقى الشعر عبر العصور ج2 ص1229 ط الأولى 2004
- 4 - الجاحظ البيان والتبيين ج3 ص131

- جودة السبك:

بما تعنيه من عرامة الألفاظ حيناً ولطافتها حيناً بحسب السياق، وما قد ينطبع في ذهن من دلالة السبك على العرامة فقط، يجليه الجاحظ في موضع آخر قائلاً (وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخرج، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغاً واحداً وسبك سبكاً واحداً، وهو يجري على اللسان كما يجري الدهان)¹ وهذا تعبير عن مواءمة اللفظ لمتطلبات الوزن والمعنى في أن واحد

- الحركية:

اللفظ الشعري في رأي الجاحظ لفظ متحرك منساب فيه ماء الشعر الذي إذا دب في اللفظ سرت روح الإبداع في حناياه، وهذا الماء هو فرق ما بين ألفاظ العلوم وألفاظ الشعر، إذ ألفاظ العلم خاضعة لمنطق الدقة، فالنثر أقدر على التعبير عن العلوم، أما الشعر فمهمته بعث الشعور في نفوس المتلقين

وقد قال أحد العلماء الغربيين إن (الأوصاف الشعرية تبدوا أدق من الأوصاف النثرية غالباً فاللغة إذا استعملت استعمالاً منطقياً علمياً تعجز عن أن تصف منظراً طبيعياً أو وجهاً إنسانياً)² وقد أحسن أبو عثمان حين استعار علاقة الإنسان بالماء ليجعل من الشعر روحاً وليس مجرد شكل.

- سهولة المخرج:

لئن كان من غير المستبعد أن الجاحظ يستحضر في قضية سهولة المخرج الشروط التي حررها علماء البلاغة وهم يتحدثون عن شرط الفصاحة، فإنه في موضع آخر يشير إلى العذوبة التي تنجر عن سهولة المخرج ويجعلها أحد مرتكزات الشاعرية، فقد كره أن تأتي الألفاظ متنافرة تشق على النفس وتذهب معها معاني الحسن والطلاوة، وقد شرح التنافر في شرحه لأحد الأبيات وعلق قائلاً:

(وأما قوله بحر الكباش فذهب إلى أن بحر الكباش يقع متفرقاً غير مؤ تلف ولا متجاور وكذلك حروف وأجزاء البيت من الشعر تراها متفقة ملساء، ولينة المعاطف سهلة، وتراها مختلفة متباينة ومتنافرة مستكرهة تشق على اللسان وتكده)³.

- البعد عن الغرابة:

سيستخدم الجاحظ لفظ اغتصاب الألفاظ في معرض حديثه عن خطر التكلف في اختيار الألفاظ الموحشة، ويجزم بالتنافي بين الشعر المتكلف والجمال، فالشاعر الحق هو من تأتبه المعاني سهواً ورهواً و تتثال عليه المعاني انثيالاً⁴ ولذلك يربط الجاحظ الغرابة بالسياق ويشدد على مراعاة المتلقي فكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عامياً وساقطاً ينبغي ألا يكون غريباً وحشياً، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوقي رطانة السوقي⁵

1 - السابق ج1 ص71

2 - راتشاردز مبادئ النقد الأدبي والعلم والشعر ص381 ترجمة محمد مصطفى بدوي 2005

3 الجاحظ البيان والتبيين ج1 ص67

4 المصدر السابق

5 - المرجع السابق

2-3 الجملة الشعرية:

يعدد الجاحظ وأبو حيان جملة من المعايير الجمالية المتعلقة بالجملة الشعرية، ونقصد بالجملة الشعرية ما تحت البيت وفوق اللفظ، أي العلاقة بين اللفظين في سبيل بناء البنية الشعرية النهائية، وهذه المعايير منها ما هو معياري خالص يتعلق بسلامة التركيب، ومنها ما هو موسيقي خالص يتعلق بجودة التأليف النغمي بين الألفاظ، ومنها ما يتعلق بالمعاني، ولذلك حصر الجاحظ أدوات البيان في خمسة أشياء من بينها اللفظ باعتبار وظيفته في الجملة حيث يقول: (وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تزيد ولا تنقص؛ أولها اللفظ ثم الإشارة ثم العقد ثم الخط ثم الحال التي تسمى نصبة، ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بآئنة من صور صاحبها، وحلية مخالفة لحلية أختها وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة)¹

لقد وفق الجاحظ في تصوير اتساع الدلالة باتساع الموضع الذي يسلك فيه اللفظ، وجودة مد العلاقات بينه وبين ألفاظ أخرى (فالنص يعتبر من أنفس ماجادت به قريحة أبي عثمان في شرح وظيفة ومفهوم البيان، فهو عملية وأداة، عملية تحيي وتحدد، وأداة على قدر وضوحها ودقتها يكون ذلك الإحياء والتحديد)²

فاللفظ يأخذ محوريته في بناء الكلام وفي بنية الشعر على وجه الخصوص انطلاقاً من موقعه التأليفي وهو ما عبر عنه أبو حيان حين وصف سيرورة العملية الإبداعية قائلاً: (المعاني المعقولة بسيطة في بحبوحة النفس لا يحوم عليها شيء قبل الفكر، فإذا لقيها الفكر بالذهن الوثيق والفهم الدقيق ألقى ذلك إلى العبارة، والعبارة حينئذ تتركب بين وزن هو النظم للشعر، وبين وزن هو سياقة الحديث، وكل هذا راجع إلى نسبة صحيحة أو فاسدة، وصورة حسنة أو قبيحة، وتأليف مقبول أو ممجوج، وذوق حلو أو مر، وطريق سهل أو وعر، واقتضاب مفضل أو مردود، واحتجاج قاطع أو مقطوع، وبرهان مسفر أو مظلم، ومتناول بعيد أو قريب ومسموع مألوف أو غريب)³ ويهديننا هذا الاقتباس إلى مراحل الإنتاج الإبداعي كما يتصورها أبو حيان، حيث تبدأ بانقذاح الفكرة وتحرك المعنى في الذهن، ثم تكون فكرة محددة تحتاج إلى قالب نثري أو شعري، ثم تمر إلى مرحلة انتقاء الألفاظ، وتأتي المرحلة الحاسمة التي هي التأليف بين هذه الألفاظ، وأوصاف التأليف بعد ذلك إما أن تكون باذخة الحسن أو شديدة القبح، والثنائيات التي استخدم أبو حيان بالغة الدقة حين قابل بين المقبول والممجوج، والحلو والمر، والسهل والوعر.

3-3 البناء الشعري:

الشعر بنية مكتملة أساسها اللفظ، وطريقها التأليف، وثمرتها الصورة، وهو في المحصلة صنف من أصناف الكلام مغزاه التأثير، وفي سبيل ذلك سن له الأقدمون سنناً بلاغية إن هو قصر عنها لم يحقق المقصد وكان العدول عنه أولى بمنتج الكلام، وأبو عثمان يوضح هذه الحقيقة قائلاً: (طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما يتصل بالأخبار... فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب كالحسن ابن وهب) ونتوقف عند هذا النص لننبه إلى ملاحظتين مهمتين:

1 - الجاحظ البيان والتبيين 1 ص 76

2 - الشاهد البوشيخي مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين ص 128 ط 2 في 1995

3 - أبو حيان الإمتاع نصك 332

أولاهما: أن الجاحظ يرى أن الشعر من العلوم التي تقوم صناعتها على جوانب مختلفة (الألفاظ والنحو والأخبار)

- وثانيتهما: أن علم الشعر لا يستلزم قرض الشعر، فالأسماء المذكورة لم يؤثر عنها إنتاج الشعر وإنما روايته وتمحيصه ونقده.

وقضية علمية الشعر مردها تصور القدماء للعلاقة بين اللفظ والمعنى، ولوظيفة الشعر عموماً، وهو المشغل الذي عبر عنه الجاحظ قائلاً (ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني وبوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حالة من ذلك مقاماً، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات)¹

وهذا الوصف المكثف للعملية الإبداعية يراعي أربع اعتبارات هي : المتكلم، والمعنى والمقام، وطبقات الكلام، والمتلقي أو السامع، ولعل فائدة هذا التقسيم التمييز بين لغة العلم ولغة الشعر، ولغات الإبداع فيما بينها، وهو مشغل حاضر في الدراسات النقدية المعاصرة لتي حاول بعض النقاد فيها تلمس الخيط الفصل بين لغة الشعر ولغة العلم قائلاً: (الشعر إذا نقيض العلم من جهة استخدام الألفاظ، حقيقة أننا نجد في القصيدة أفكاراً محددة، ولكن التحديد هنا لا يرجع إلى أن الشاعر يختار ألفاظه اختياراً منطقياً، كما يفعل العالم قاصداً معنى واحداً، وإنما هو العكس فسبب تحديد الأفكار في الشعر هو أن الوسيلة التي يطرّقها الشاعر نغمات صوته والإيقاع الشعري)²

ودون أن نفيض في التعليق على هذا النص نتساءل عن مدى وجهة القول بالفصل بين لغة الشعر ولغة العلم بناءً على الفصل بين مواضيعهما؟ يكاد أبوحيان يسعفنا بالإجابة، فلولا تجنب الوقوع في الإسقاط لقلنا إنه طرح الإشكال فجعل لكل نوع من الكلام مراسيم بلاغية، وجعل لفنون القول طورا إبداعيا تلتقي فيه فتكون حينئذ كلاماً بغض النظر عن جنسها الأدبي، يقول: (وفي الجملة أحسن الكلام مارق لفظه ولطف معناه وتلأل رونقه، وقامت صورته بين نظم كأنه نثر ونثر كأنه نظم، يطمع مشهوده بالسمع ويمتنع مقصوده على الطبع)³ على أن هذه المرتبة البيانية غير مانعة من اختصاص كل فن من القول بنسق بلاغي، وسنورد نصاً لأبي حيان نعتبره ذا خصوصية لما اتصف به من الإبداع في التمييز بين فنون البلاغة وقد نسب هذا الكلام لأبي سليمان قائلاً: (وقال أبو سليمان البلاغة ضروب؛ فمنها بلاغة الشعر ومنها بلاغة الخطابة، ومنها بلاغة النثر، ومنها بلاغة المثل، ومنها بلاغة العقل، ومنها بلاغة البديهة، ومنها بلاغة التأويل، قال: وأما بلاغة الشعر فأن يكون نحوه مقبولا، والمعنى من كل ناحية مكشوفاً، واللفظ من الغريب بريئاً، والكناية لطيفة، والتصريح احتجاجاً، والمؤاخاة موجودة والمواءمة ظاهرة)⁴ فها هنا أجمل قضايا اللغة الشعرية في جملة نقاط:

- ◆ قضية المقبولية النحوية
- ◆ قضية العلاقة بين الألفاظ والمعاني
- ◆ قضية الفصاحة اللفظية

1	الجاحظ البيان والتبيين
2	رتشارلز مبادئ النقد الأدبي ص 380
3	أبو حيان الإمتاع والمؤانسة ص 338
4	المصدر السابق

- ◆ قضية التصوير البلاغي
- ◆ قضية الإظهار والإضمار
- ◆ قضية التأليف.

ولو ذهبنا في نقاش هذه القضايا لا اتسع القول، ولكن حسبنا أن نذكر بالمعايير التي وضعها أبو حيان لبلاغة النثر لنقارن بينها وبين معايير البلاغة الشعرية، حيث يقول (وأما بلاغة النثر فإن يكون اللفظ متناولا، والمعنى مشهورا، والتعذيب مستعملا، والتأليف سهلا، والمراد سليما، والرونق عاليا والحواشي رقيقة، والصفائح مصقولة، والأمثلة خفيفة المأخذ والهوادي متصلة والأعجاز مفصلة)

إن المقارنة بين بلاغتي الشعر والنثر يجد بادي الرأي تقاربا بين القضايا المطروحة، ولكنه حين يرجع البصر كرتين سيدرك الفرق بين كون اللفظ متناولا وكونه بريئا من الغرابة، فمقتضى لفظ «التناول» إمكانية وصوله إلى المخاطبين جميعا، بينما نفي الغرابة لا يستلزم شيوع معنى اللفظ، بقدر ما هو محدد منصرف إلى مواءمة اللفظ للمقصد الجمالي، وقل نفس الشيء عن شهرة المعنى وانكشافه، ففي حال الانكشاف لا تتسع أبواب التأويل، وفي حال الشهرة تتسع الأبواب وتتعدد مناحي المعنى ولذلك عبر بقوله «من كل وجه»

والتأليف في النثر جماليته في السهولة، أما في الشعر فجماليته في المؤاخاة والمواءمة، ذلك أن موسيقى الشعر تحتاج انسجاما داخل البنية الشعرية ومواءمة على مستوى القوافي، وتأتي قضية الصورة في الفنين ليعبر عنها في الشعر بالتصريح احتجاجا، وفي النثر بالصفائح المصقولة، ومع أن هذا اللفظ الأخير أبلغ في التعبير عن الصورة، فإن لفظ التصريح احتجاجا مؤذن بمركزية الصورة في الشعر باعتبارها أهم ثمراته، ذلك أن وجه بناء العبارة هو جوهر صنعة الشعر، وهو الذي يفضل به كلام كلاما، ثم إن بناء العبارة ليس صنعة لسان، وإنما هو في الحقيقة اجتهاد في أن تكون الصورة اللغوية مصورة تصويرا دقيقا وأميناً للصورة النفسية أو المعنى القائم في النفس¹ وبناء الصورة كما يرى الجاحظ هو محك الإبداع، وللألفاظ فيه دور رئيس إذ المعاني متقاربة في نفوس الناس، وإنما يكون التفاضل في بناء الصورة، فكأن التجربة الشعرية تجسد محاولات متجددة من بناء الصورة (وعلى الرغم من حداثة الشعر فإن الشعراء قلدوا بعضهم بعضا حتى إنه لا نجد معنى غريبا أو شريفا أو بديعا أتى به أحد الشعراء إلا وتعاوره الشعراء الذين أتوا بعده أو معه)² وذهب يعدد أوجه هذا التعاور من سرقة اللفظ والمعنى، وسرقة الألفاظ أو المعاني، وغير خاف أن قول الجاحظ في التعاور داخل في رؤيته للفظ والمعنى، وليس ههنا نقاش تلك الرؤية بقدر ما نهتم بالوصول إلى اتفاقه مع أبي حيان في مكونات البنية الشعرية التي تبدأ من الفكرة الذهنية إلى أن تستوي بناء فنيا مستويا على أعمدة اللفظ والوزن والصورة والطبع، وكسب رهان إحكام العمل الشعري في رأي الجاحظ من بين الأسباب التي أدت إلى تفشي السرقات والانتحال فالشاعر النابت يضطره حب الشهرة أحيانا إلى أن ينحل غيره من كبار الشعراء شعره، حتى إذا استوى عوده صحح نسبة الشعر إلى نفسه وكذلك يفعل بعض الكتاب كما يحكي الجاحظ عن نفسه³

لقد انتبه الجاحظ إلى أن البناء الشعري يكسب النص هوية ويعطي لكل شاعر بصمته و هنا أسس لمنهج نقدي في التعاطي مع الشعر قائم على التذوق وقدرة الناقد على تبيين العلائق الواصلة بين الجمل الشعرية سواء بالنظر إلى السمات اللفظية أو المضمونية، وقد عقد بابا

1 محمد أبو موسى قراءة في الأدب القديم ص 17 طبعة 2012

2 - الجاحظ البيان والتبيين ج3 ص 311

3 المصدر السابق ج3 ص 238

في البيان والتبيين وسمه باب القران وأورد فيه مقولة نقدية دالة حين قال: (يقول عمر ابن لجا لبعض الشعراء أنا أشعر منك قال وبم ذلك قال لأنني أقول البيت وأخاه وأنت تقول البيت وابن عمه)¹

غير أنه يفرق بين بصمة الشاعر التي يكسب بها التميز والإبداع ونمطية إنتاجه الشعري التي ينقص معها جريان الماء في شعره ، ففي تعقبه لهذه الظاهرة رأى أن اعتناء الشاعر بمضمون شعري واحد يخل بنيته الشعرية ومن ذلك قوله (لو أن شعر صالح بن عبد القدوس وسابق البربري كان مفرقا في أشعار كثيرة لصارت تلك الأشعار أرفع مما هي عليه بطبقات، ولصار شعرهما نودار سائرة في الآفاق ولكن القصيدة إذا كانت كلها مثالا لم تسر ولم تجر مجرى النودار، ومتى لم يخرج السامع من شيء لم يكن لذلك عنده موقع²

وهذا الكلام يثبت تعدد زوايا التذوق تبعا لمقدار النص؛ ففيه تفريق بين الأسباب التي تكسب القصيدة التداول وتلك التي تكسب الأبيات أو النودار، فالرتابة مانعة من شيوع القصيدة، وتقنية التواصل الشعري تلزم الشاعر أن يعتمد التنوع، ولكن هذا كله ينبغي أن يتم بعيدا عن التكلف، ومنهج الجاحظ في التذوق تبناه من المحدثين محمود شاكر، فجزم أن البناء النصي في الشعر العربي ظلم حين اتهم بأنه بناء مفكك وكيف لشعراء العربية الذين عبروا عن إحساس الأمة أن يظلوا طيلة خمسة عشر قرنا يتكلمون بكلام مفكك³

ووجه التداخل بين الرؤيتين أنهما تجعلان اللغة الشعرية بناء مكتملا، وقد عبر شاكر عن ذلك بقوله (أما دراسة الشعر بمعنى معاينة سطح القصيدة بلا تعمق (...)) وعزل المخبوء في أنغامها عن ألفاظها ومعانيها فأنا عنه بمنأى)⁴ بمعنى أن النغم له دلالة كدلالة الكلمة أو بالأحرى يكتسبها من صوت الكلمة ودلالاتها معا، فأسرار الشعر لا تدرك إلا بهذه الرؤية الشاملة للعلاقة بين أطراف بنيته، وبين رؤية الجاحظ وشاكر اختلاف في قضية الوحدة الموضوعية للقصيدة، حيث لا يعتبرها الجاحظ أحد أسس الجمال اللازمة، بل يدعوا إلى التنوع، فيما يرى شاكر أن الوحدة بين أجزاء القصيدة سنن لغوي ثابت في أعراف الشعر العربي القديم، وإن اتخذ مظاهر متعددة .

والنظر إلى بنية النص الأدبي باعتبارها تؤدي مجتمعة دور التأثير الذي يخلق التفاعل لدى القارئ مما صرحت به بعض النظريات الأدبية الحديثة حيث اعتبرت أن العمل الأدبي يقوم على قطبين (قد نسميهما القطب الفني والقطب الجمالي الأول هو نص المؤلف والثاني هو التحقق الذي ينجزه القارئ)⁵

1 السابق ج1 179

2 المصدر السابق

3 محمود شاكر نمط صعب ونمط مخيف ص329

4 المصدر السابق

5 فول فيغانغ إيزرفعل القراءة نظرية جمال التجاوب في الأدب ص14 ترجمة حميد لحمداني والجلالي الكدية 1987

4. خاتمة:

حاولنا في هذا البحث استكناه جملة من النصوص المتعلقة بسمات اللغة الشعرية ورغم دخول هذه النصوص في باب التمثيل فإن تواتر تداولها بين العلماء يكسبها مستوى من الواجهة يمكن معه الجزم بالخلاصات التالية:

• الخلاصة الأولى:

وعى النقاد بمفهوم الخطاب انطلاقاً من حرصهم على الحديث عن الشعر باعتباره جنساً أدبياً داخلاً في فنون القول المعنوية بالجمال، وحرصهم على تحديد هوية هذه الأجناس وسرد المشتركات الجمالية بينها.

• الخلاصة الثانية:

أوصلنا استنطاق هذه النصوص إلى جملة من السمات موزعة بين الشكلي والمضموني وأفصحنا عن وعي متقدم بقضية الشعرية، وقد لاحظنا وجود صوت داخل البيئة النقدية القديمة يدعو إلى التحرر من سطوة البحور التفعيلة الخليلية

• الخلاصة الثالثة:

لاحظنا توسع مفهوم اللغة الشعرية ليشمل الموسيقى وعلاقتها بالألفاظ، وأكثر من هذا جدل الزمخشري علاقة بين الموسيقى والأحاسيس، وجعل للذائقة العربية ميزاناً نغمياً عبر عنه بأوزان العرب، وعلى أساس ذلك أقصى بعض البحور الخليلية مدعياً انتحالها.

• الخلاصة الرابعة:

ميزت النصوص بين مستويات ثلاث من اللغة الشعرية؛ مستوى الألفاظ، ومستوى الجمل، ومستوى البنية، وأحاطت هذه المستويات بالعديد من الشروط التي بها يشاد البنيان الشعري.

• الخلاصة الخامسة:

اعتنى العلماء ببيان الفرق بين لغة العلم ولغة الشعر، انطلاقاً من ثلاث مبادئ؛ مبدئ الشفافية، ومبدئ التأليف، ومبدئ النغمية، وبذلك جعلوا لغة الشعر باعثة الحيوية في الصورة والروي مجرية ما أطلق عليه الجاحظ روح الشعر في الألفاظ.

وختاماً فإن العناية بالشعر لم تقتصر عند هؤلاء على السلامة النحوية والشروط البيانية الموثقة في كتب البلاغة، وإنما امتدت لتتحدث عن الشعر باعتباره خطاباً جمالياً مركباً من اللفظ الشعري الناضج بالتأثير والصورة الناطقة بالأحاسيس والوجدان، في نسق فني ينتهج الإضمار بدل الغموض والقوة بدل الغرابة، والحبكة بدل التعقيد.

قائمة المصادر والمراجع:

- الزمخشري الفسطاط في علم العروض تحقيق يوسف عالي الطبعة الأولى 1990.
- الشاهد البوشيخي مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين الطبعة الثانية 1995.
- أبو عثمان الجاحظ البيان والتبيين تحقيق -عبد السلام هارون.
- أبو حيان التوحيدي الإمتاع والمؤانسة، تحقيق احمد أمين و أحمد الزين، الطبعة الأولى 2017.
- محمود شاكر نمط صعب ونمط مخيف دت
- فول فيغانغ إيزر فعل القراءة نظرية جمال التجاوب في الأدب ترجمة حميد لحمداني والجلالي الكدية. 1987
- محمد أبو موسى قراءة في الأدب القديم طبعة 2012
- راتشاردز مبادئ النقد الأدبي والعلم والشعر ترجمة محمد مصطفى بدوي الطبعة الأولى 2005.
- عبد العزيز نبوي موسوعة موسيقى الشعر عبر العصور الطبعة الأولى 2004
- عبد القادر عليمي:الخطاب الشعري ووجوه الانفتاح الدلالي قراءة في شعرية الإضممار بحث منشور ضمن أعمال ندوة الإضممار والإطهار في الخطاب جامعة قرطاج تونس 2014.
- حازم القرطاجني منهاج البلغاء وسراج الأدباء تحقيق محمد حبيب الخوجة الطبعة الثالثة.

الدرس النحوي في شنقيط ... الاستمداد والاعتماد:

نخصص هذه الوقفة للحديث عن المصادر التي استمد منها الشناقطة نحوهم؛ وعن الكتب النحوية التي اعتمدها في تدريسهم؛ وذلك في فقرتين نخصص الأولى منهما للحديث عن الاستمداد؛ ونفرد الثانية للحديث عن الاعتماد.

الفقرة الأولى: منابع استمداد النحو الشنقيطي:

استمد الشناقطة كثيراً من نحوهم من مؤلفات ابن مالك¹؛ وابن هشام²؛ والداميني³ والأشموني⁴؛ فقد استمدوا مقرراتهم من مجموعة من كتب ابن مالك؛ كل منها في فرع من فروع علم اللغة كما سنرى في الفقرة الآتية؛ وأضافوا إليها عدداً من كتب ابن هشام الأنصاري إضافة إلى تخرجات البدر الداميني؛ وتنبهات نور الدين الأشموني.

كانت كتب النحاة الأربعة السابقين هي المنبع الأساسي الذي استمد منه الشناقطة مفردات مقررات دروسهم النحوي يقول محمد المختار ولد إياه في كتابه تاريخ النحوي العربي في المشرق والمغرب>> لقد قام علماء المحاضر بصناعة تحويلية انتزعوا أصولها الأولى من كتب مالك؛ ثم استمدوا فروعها من أدوات ابن هشام؛ وأعادوا إليها تنبيهات الأشموني، وتخرجات الداميني؛ فصنعوا من هذا المزيج مجموعة هائلة من القطع المتنوعة قدموها بضاعة منظومة في دروسهم الشفوية حتى استطاعوا بذلك خلق ثقافة نحوية نزلت عن طور الاختصاص العلمي إلى مستوى الأدب الشعبي فصارت تمارس لذاتها؛ ويتذوقها الناس في المجالس؛ وإن كانت قد ابتعدت عن أهداف النحو الأساسية بسبب استقلالها عن الدراسة اللغوية عموماً

1 ابن مالك (600 - 672 هـ = 1203 - 1274 م) "محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني، أبو عبد الله، جمال الدين: أحد الأئمة في علوم العربية. ولد في جيان (بالاندلس) وانتقل إلى دمشق فتوفي فيها. أشهر كتبه (الافية - ط) في النحو، وله (تسهيل الفوائد - ط) نحو، و (شرحه له - خ) المجلد الأول منه، في الرباط (213 أوقاف). و (الضرب في معرفة لسان العرب) و (الكافية الشافية - ط) أرجوزة في نحو ثلاثة آلاف بيت، و (شرحها - ط) و (سبك المنظوم وفك المختوم - خ) نحو، و (الامية الافعال - ط) و (عدة الحافظ وعمدة اللفظ - خ) رسالة، و شرحها، و (إيجاز التعريف - خ) صرف، و (شواهد التوضيح - ط) و (إكمال الأعلام بمثلث الكلام - ط) و (مجموع - خ) فيه 10 رسائل، و (تحفة المودود في المقصور والممدود - ط) منظومة، و (العروض - خ) و (الاعتضاد في الفرق بين الظاء والصاد - خ) قصيدة من بحر البسيط على روي الظاء المفتوحة، مشروحة شرحاً متقناً من انشائه. وغير ذلك" الأعلام للزكلي؛ ج 6 ص 233.

2 (708 - 761 هـ) (1309 - 1360 م) عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن هشام الأنصاري، المعروف بابن هشام (جمال الدين، أبو محمد). نحوي، مشارك في المعاني والبيان والعروض والفقه وغيرها. ولد في ذي القعدة، وقرأ العربية وأقام بمكة، وتوفي بمصر في 6 ذي القعدة، ودفن بمقبرة الصوفية. من تصانيفه الكثيرة: قطر الندى وبل الصدى، مغني اللبيب عن كتب الأعراب وكلاهما في النحو، شرح الجامع الصغير لحمد بن الحسن الشيباني في فروع الفقه لحنفي، شرح بانث سعاد، وشرح الشافية وسماه عمدة الطالب في تحقيق تصريف ابن الحاجب "معجم المؤلفين ج 6 ص 163.

3 البدر الداميني (763 - 827 هـ = 1362 - 1424 م) محمد بن أبي بكر بن عمر بن أبي بكر بن محمد، المخزومي القرشي، بدر الدين المعروف بابن الداميني: عالم بالشريعة وفنون الأدب. ولد في الإسكندرية، واستوطن القاهرة ولازم بن خلدون. وتصدر لأقراء العربية بالأزهر. ثم تحول إلى دمشق. ومنها حج، وعاد إلى مصر فولي فيها قضاء المالكية. ثم ترك القضاء ورحل إلى اليمن فدرس بجامع زيد نحو سنة، وانتقل إلى الهند فمات بها في مدينة (كلبرجا). من كتبه (تحفة الغرب - ط) شرح لمغني اللبيب، و (العيون الغامرة - ط) شرح للخزرجية في العروض، و (إظهار التعليل المغلق - خ) في مسألة نحوية، و (شرح تسهيل الفوائد - خ). الأعلام للزكلي؛ ج 6 ص 57.

4 الأشموني (838 - نحو 900 هـ = 1435 - نحو 1495 م) علي بن محمد بن عيسى، أبو الحسن، نور الدين الأشموني: نحوي، من فقهاء الشافعية. أصله من أشمون (بمصر) ومولده بالقاهرة. ولي القضاة بدمياط. وصنف "شرح ألفية ابن مالك - ط" في النحو، و "نظم المنهاج" في الفقه، وشرحه "و" نظم جمع الجوامع" المرجع السابق؛ ج 5 ص 10.

فأضحت تغذي نوعاً من الترف الفكري»¹

يعطينا النص السابق مجموعة من المعطيات المهمة عن التعاطي الشنقيطي مع النحو بدءاً من المنابع الأساسية وصولاً إلى الأساليب التي اتخذها الشناقطة للتعاطي معها حتى استطاعوا تحويلها من أصول نظرية ذات قواعد معيارية إلى مادة تتعاطى في المجالس بكل يسر وسهولة؛ يتم بها تغذية الفكر وصقل المهارات واختبارها.

الفقرة الثانية: كتب الاعتماد في الدرس النحوي الشنقيطي:

كانت الحلقات التدريسية في الدرس النحوي الشنقيطي مقسمة على ثلاث مستويات هي: حلقات المبتدئين؛ وحلقات الشادين؛ وحلقات المتبصرين المنتهين، ولكل حلقة من الحلقات كتبها المعتمدة في تدريسها.

أ - حلقات المبتدئين:

اعتمد الشناقطة مقدمة ابن آجروم² في النحو؛ المشهور في المحاضر الشنقيطية نظمها المسمى «عبيد ربه»؛ وهي مقدمة لطيفة في النحو جمعت تنفا مفيدة من مقدماته بشكل سهل الفهم والاستيعاب يضع قدم طالب النحو على الطريق الصحيح ويفتح له الباب ويبصره بمواطن الخطو؛ فيتهيأ عقله الاستيعاب ما هو أعلى؛ «لقد سار هؤلاء العلماء على خطين متوازنين خط التبسيط معتمدين في ذلك على الآجرومية؛ وما يدور حولها من أنظام وشروح (...) ومن أوائل الذين اعتنوا بهذه المقدمة محمد سعيد بن اليدالي (...) والطالب محمد بن الطالب أبو بكر الصديق البرتلي الولائي»³

بالإضافة إلى مقدمة الآجرومية تعتمد بعض الحواضر العريقة بعض كتب ابن هشام لتدريسها في حلقات المبتدئين؛ ففي ولانة مثلاً يعتمد نحوياً الشهير عمر بن بابا الولائي قطر الندي وبل الصدي؛ ومثله أبوبكر الطفيل المسلمي التيشيتي⁴؛ وقطر الندي وبل الصدي مؤلف صغير الحجم يجمع عدداً من أبواب مقدمات النحو يفيد المبتدئين وينير لهم الطريق؛ وفي هذه المرحلة يتم تدريب الطالب على ما يعرف في الأدبيات المحظرة «بالتمييز»؛ وهو مصطلح يستخدمه الشناقطة في مقابل مصطلح «الإعراب» للدلالة على أن الطالب بدأ يميز بين أقسام الكلمة؛ (الفعل والاسم والحرف) ويعرف علامات كل واحد منها؛ لكنه لم يصل مرحلة القدرة على «الإعراب» أي معرفة مواقع الكلمة ووظائفها؛ فذلك «مندرج تحت المعنى».

ب. حلقات الشادين:

في هذه المرحلة يعتمد الشناقطة في التدريس كتباً نحويًا متوسطة تحتوي مادة أرفع مستوى من الآجرومية؛ وأضعف مستوى من الخلاصة؛ وتتربع على مقررات هذه المرحلة «ملحة

1 تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب لمحمد المختار ولد إياه؛ ص 438.

2 ابن آجروم (672 - 723 هـ = 1273 - 1323 م) محمد بن محمد بن داود الصنهاجي، أبو عبد الله: نحوي، اشتهر برسالته (الآجرومية - ط) وقد شرحها كثيرون. وله (فرائد المعاني في شرح حرز الاماني - خ) مجلدان منه، الأول والثاني لعلهما بخطه، في خزانة الرباط (146 أوقاف) ويعرف بشرح الشاطبية. وله مصنفات أخرى وأراجيز. مولده ووفاته بفاس " الأعلام للزركلي مرجع سابق ج 7؛ ص 33.

3 تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب مرجع سابق؛ ص 438.

4 ينظر تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب ص 440.

الإعراب» وهي منظومة للقاسم بن علي الحريري البصري¹؛ تناول فيها أبواباً من النحو ليست في الآجرومية؛ لكنه تناولها بطريقة مبسطة مقارنة مع تناول ابن مالك لها في الخلاصة فمثلاً حين نقارن بين ما قدمه في باب النكرة والمعرفة مع ما جاء عند ابن مالك نجد الفرق واضحاً يقول الحريري في الملحة في تعريف النكرة والمعرفة:

والأخر المعرفة المشتبهة	والاسم ضربان فضرب نكرة
فإنه منكر يا رجل	فكل ما رُبَّ عليه تدخل
كقولهم رُبَّ غلام لي أب	نحو غلام وكتاب وطبق
لا يمتري فيه الصحيح المعرفة	ومأعدا ذلك فهو معرفة
ودأ وتلك والذي ودو الغنى ²	مثاله الدار وزيد وأنا

حين نقارن هذا مع ما جاء في الألفية في باب النكرة والمعرفة ندرك الفرق البين يقول ابن مالك:

أو واقع موقع ما قد ذكرا	نكرة قابل آل مؤثرا
وهند وابني والغلام والذي ³	وغيره معرفة كهـم وذي

نجد الفرق البين في الوضوح بين النصين؛ مما يجعل الملحة مقدمة في التكوين ليستعد الطالب لفهم واستيعاب الخلاصة التي تعد عماد مقرر حلقات المتبصرين والمتنهين.

ومثل ذلك ما أوردها في الحديث عن «آل» المعرفة حيث اقتصر الحريري على تعريفها والقول القائل بأن اللام هي المعرفة وحدها يقول الحريري:

تعريف كَبِدٍ مَبْهِمٍ قَالَ الْكَبْدُ	وءالهُ التَّعْرِيفُ آلُ فَمَنْ يُرِدْ
إِذْ أَلِفُ الْوَصْلِ مَتَى تُدْرَجُ سَقَطَ ⁴	وَقَالَ قَوْمٌ إِنَّهَا الْلامُ فَقَطْ

أما ابن مالك فقد أضاف إلى تعريفها والخلاف فيها مزيداً من الأحكام المتعلقة بها كزيادتها لزوماً واضطراراً ودخولها على الأعلام إشارة لأصلها الذي نقلت منه؛ وحذفها عند النداء أو الإضافة مع جواز حذفها دونهما يقول ابن مالك:

ونمط عرفت قل فيه النمط	آل حرف تعريف أو اللام فقط
والآن والذين ثم اللات	وقد تـزاد لازماً كالات
كذا وطبت النفس ياقيس السري	والاضطرار كبنات الأوبر
للمح ما قد كان عنه نقلا	وبعض الأعلام عليه دخلا
فذكر ذا وحذفه سيان	كالفضل والحارث والنعمان
مضاف أو مصحوب آل كالعقبه	وقد يصير علماً بالغلبة
أو جب وفي غيرهما قد تنحذف ⁵	وحذف آل ذي إن تناد أو تضاف

1 الحريري (446 - 516 هـ = 1054 - 1122 م) القاسم بن علي بن محمد بن عثمان، أبو محمد الحريري البصري؛ الأديب الكبير، صاحب "المقامات الحريية - ط" سماه "مقامات أبي زيد السروجي". ومن كتبه "درة الغواص في أوهم الخواص - ط" و "ملحة الاعراب. الأعلام للزركلي؛ ج 5؛ ص 177.

2 ملحة الإعراب للحريري ص 8.
3 ألفية ابن مالك مع الاحمرار والحواشي النظامية التوضيحية ص 33.
4 ملحة الإعراب للحريري ص 8.
5 ألفية ابن مالك مع الاحمرار والحواشي النظامية مرجع سابق ص 53.

فالفرق واضح جلي بين بساطة ما جاء في الملحّة مقارنة مع ما جاء في الألفية، ويتخرج الطالب من هذه الحلقة متقنا لفن الإعراب متشوقا لعلل الأحكام وأقيستها؛ متطلعا لمعرفة أسس بنائها وتأصيلها.

ج- حلقات المتبصرين:

يلج الطالب إلى حلقة المتبصرين متضلعا من مبادئ النحو وأساساته متلهفا لمعرفة المزيد عنه؛ وفي هذه الحلقة يتنقل إلى مستوى آخر يتسم باتساع الاهتمام وعمقه؛ حيث يضيف إلى النحو العناية بمفردات اللغة وبالأخص ما يتعلق بالأبنية وأقيستها؛ وتبعا لذلك يدرس في هذه الحلقة مجموعة من كتب ابن مالك باعتبارها معتمد الشناقطة الأول في النحو وعلومه.

ففي النحو قواعد وشواهد يعتني الطالب بخلاصة ابن مالك؛ وهو كتاب الألفية المعروف جمع فيه ابن مالك عصارة تجربته النحوية الثرية وكتب الله له القبول فنال من العناية شرحا وتعليقا وتعقيبا وتوضيحا ما لم ينله كتاب نحوي بعد كتاب سيوييه عموما؛ وفي بلاد شنقيط خصوصا حيث لا يذكر غيره من المطولات النحوية إلا على هامش تدريسه وتوضيحه.

وفي علم الصرف وأبنية الأفعال ومعاني الصيغ وما يدور في فلكها من الأسماء يوجه الطالب وجهه شطر لامية ابن مالك؛ وهي كتاب ابتدع فيه ابن مالك منهجا صرفيا خاصا به؛ جعل محوره الفعل مبنى ومعنى خلافا لسابقه من النحاة الذين لم تكن عناية كبيرة بما يتعلق بالفعل من الأحكام الصرفية؛ فأسس بذلك مدرسة صرفية اتضحت معالمها مع الحضرمي يقول عبد المجيد بن محمد الأنصاري محقق خياطة العلامة عدود لتوشيح ابن زين >> هذا عن ماهية هذه المدرسة الصرفية، أما كيفيتها؛ فهي مدرسة صرفية فعلية تعتني بالفعل في التصريف، وتهمل الاسم غير ما تعلق منه بالفعل، مرجع آرائها إلى ابن مالك¹

وفي باب مفردات العربية بالإضافة إلى المقررات الأدبية (ديوان الشعراء الستة) يدرس الطالب في هذه المرحلة كتابين لابن مالك هما «الإعلام بمثلث الكلام» لمعرفة ما يثلث من المفردات العربية؛ وهو المعروف في الأدبيات المحظية «بمثلث ابن مالك»؛ والكتاب الثاني هو: «تحفة المودود في المقصور والممدود» وهي قصيدة همزية تتألف من واحد وستين ومائة بيت يتحدث فيها ابن مالك عن: ما يمد ولا يقصر، وما يقصر ولا يمد، وما يمد ويقصر، وما يقصر ويمد²

ويوجه شيخ المحظرة الطالب في هذا المستوى إلى العناية بالمعاجم اللغوية وعلى رأسها من حيث الانتشار في شنقيط القاموس المحيط الذي يعتبر المعجم الأول الذي كان الشناقطة يستخدمونه كثيرا ويرجعون إليه؛ فعن طريقه يعرف الطالب كثيرا من معاني الجذور اللغوية وقياس المضارع ويكتسب ثروة لغوية هائلة تمكنه من مفاتيح اللغة يستطيع معها تجنب الخطأ والخلل الناتجين عن الجهل بحركات المضارع وأوزان المصادر ومعاني الصيغ؛ ويتخرج الطالب من هذه الحلقة مجازا فيما يتعلق بعلوم اللغة نحوا وصرفا ومفردات.

الدرس النحوي في شنقيط (حواضر التأسيس؛ ومحاضر التدريس)

1 توشيح لامية الأفعال بخياطة وترشيح محمد سالم ولد عدود تحقيق محمد بن عبد المجيد الأنصاري ص 83.

2 المرجع السابق ص 50

نتاول في هذه الوقفة الدرس النحو في شنقيط ؛ وذلك في فقرتين نخصص الأولى لحواضر التأسيس؛ ونفرد الثانية لمحاضر التدريس.

الفقرة الأولى: الدرس النحوي في شنقيط ... حواضر التأسيس:

من المعلوم أن الفضاء الجغرافي الشنقيطي كان فضاء بدويا في عمومته؛ وكانت الحواضر الحضرية فيه معدودة على أصابع اليد؛ محصورة في ما يعرف اليوم بالمدن الأثرية في موريتانيا فهل كان لهذه الحواضر الأثرية إسهام في تأسيس الدرس النحوي في شنقيط ؟

اشتملت حلقات التدريس في المدن الأثرية في موريتانيا على تدريس النحو ضمن المعارف والعلوم التي تدرس في حلقاتها؛ ونظرا لكون الهدف من هذه الورقة لفت الانتباه لجزء من إسهام الشناقطة في الدرس نأخذ مدينة ولاته أنموذجا لحواضر التأسيس للدرس النحوي في بلاد شنقيط.

لقد عرفت الحركة النحوية في حاضرة ولاته العلمية ازدهارا مبكرا مقارنة مع غيرها من الحواضر العلمية الأخرى؛ فقد أنجبت عددا من أوائل النحاة في بلاد شنقيط مثل: الفقيه المختار النحوي بن الفقيه الولاتي المتوفى 920 هـ¹؛ وقد أسهمت الصلات العلمية لهذه المدينة شرقا وغربا في هذا الازدهار؛ حيث كان لزيارة منيرة بن حبيب الله 1163هـ مؤلف الدلاصة على الخلاصة أثرا في نضج هذا الازدهار.

وصلت الحركة العلمية في مجال النحو في مدينة ولاته ذروة ازدهارها على يد عالمين من علمائها يحمل كل منهما اسم محمد يحي الولاتي؛ وقد كان لكل واحد منهما إسهامه العلمي المقدر في تسريع الحركة العلمية النحوية في المدينة بشكل عام وفي مجال النحو بشكل خاص.

محمد يحي الولاتي وشرحه لفريدة السيوطي:

عرف عن الفقيه محمد يحي الولاتي براعته في الفقه لكنه مع ذلك كان له باع طويل في النحو؛ فقد رثاه أحد طلابه مبينا ما فقدت ولاته من المعارف بفقده:

لئن غاب عن والاته يحيى فإنها تغيب عنها نورها وشبابها

وغيب عنها نحوها وبيانها وغيب عنها فقهها وصوابها 2

كما يظهر في الأبيات السابقة فقد كان الولاتي موسوعي المعرفة؛ غير أن ما يهمنا في هذا المقام إسهامه في الحركة العلمية النحوية في مدينة ولاته.

لقد وضع الولاتي شرحا مفصلا على الفريدة للسيوطي³؛ سماه المواهب التليدة في حل ألفاظ الفريدة أورد منه محمد المختار ولد اباه مقطعا في كتابه تاريخ النحو العربي في المشرق

1 ينظر في حياة موريتانيا الثقافية للمختار بن حامد ص 198

2 ترجمة محمد يحي الولاتي .

3 الجلال السيوطي (849 - 911 هـ = 1445 - 1505 م) عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد ابن سابق الدين الخضير السيوطي، جلال الدين: إمام حافظ مؤرخ أديب. له نحو 600 مصنف، منها الكتاب الكبير، والرسالة الصغير (...)(الاشباه والنظائر - ط) في العربية، و (الاقتراح - ط) في أصول النحو، و (الالفية في النحو - ط) واسمها (الفريدة) وله شرح عليها" الأعلام للزكلي ج 3؛ ص: 301.

والمغرب: >> لقد أكمل هذا الشرح سنة 1296هـ ؛ واعتمد فيه على منهج الاختصار بتقرير الأحكام وحل الألفاظ وضرب الأمثلة كقوله في باب علامات الاسم: « الإسناد » وهو الحكم عليه بوصف أو تعليقه به نحو قام زيد وزيد قائم وقم ، فعلمة كون زيد اسما، كونه محكوما عليه بالقيام في المثالين الأولين؛ ومعلقا به القيام في الثالث ، وفي كلامه عن الجر بالحرف والإضافة والتبعية قال إن هذه الأمثلة اجتمعت في بسم الله الرحمن الرحيم»¹.

ابن سليمة ... وقرة العينين في نحو الشهرين:

هو محمد يحيى بن سليمة الحوضي الولائي أسهم في إثراء الحركة العلمية النحوية في ولاته بنظمه قرة العينين على نحو الشهرين الذي استخدم فيه مصطلح « التمييز » بالاستخدام الشنقيطي الذي يعني تمييز أجزاء الكلام (الفعل والاسم والحرف) ؛ وجاء فيه بعلامتين للاسم ليستا مشهورتين عند سابقيه؛ وجعل النحو مفتاحا لا بد منه لكل العلوم ؛ فهو الذي يحل عقدها ويفك رموزها يقول:

الحمد لله الذي النحو جعل لكل علم فاتحا به يحل
صلى وسلم على محمد وآله وصحبه للأبد

ثم عنون الباب الأول بكتاب التمييز؛ الذي خصصه لمعرفة علامات الفعل والاسم والحرف يقول في الاسم:

فالاسم يعرف بحس وبأل والخفض والتنوين والندا وعمل
يعلق محمد المختار ولد أباه على هذا البيت قائلا: >> والملاحظة الثانية أن الناظم ذكر علامتين للاسم لم نعهدهما عند سابقيه إحداهما « الحس » وفسره بقوله إن من الأسماء ما يدرى بالحواس ثم أورد «عل» من علاماته؛ وهذا أيضا جديد في منهج النحاة لأنهم يكتفون غالبا بعموم الإسناد»².

وبما مضى يتضح الإسهام التأسيسي الذي قدمته ولاته في علم النحو في بلاد شنقيط.

الفقرة الثانية: الدرس النحوي في شنقيط ... محاضر التدريس

تحدث في هذه الفقرة عن محاضر التدريس على أن نسلك فيها المنهج الذي سلكناه في النقطة السابقة؛ فالهدف تبصير اللاحق ببعض جهود السابق ليكون حافزا له في اقتفاء الأثر وتجديد معالم ما اندر.

كانت المحاضرة الشنقيطية تاج الشناقطة وعنوان مجدهم؛ لم يخل منها صعق من فضائهم المترامي الأطراف؛ فكانت المحاضر منتشرة في جميع الأطراف والجهات متنوعة الاهتمام بين جامعة ومختصة؛ وسنأخذ أمثلة على بعض المحاضر التي التي غلب عليها التخصص بشكل مجمل.

1 تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب مرجع سابق؛ وقد أورد مقطعا من شرحه لباب الظرف من الفريدة لبين منهجه في الشرح والتوصليل.
2 المرجع السابق.

أ. المحاضرة البونية:

نسبة إلى شيخها المختار بن بونه الذي بلغ من الشهرة ما يغنيه عن التعريف؛ وقد كانت محضرته من المحاضر الشنقيطية المتنقلة؛ حيث شمل الفضاء الذي تحركت فيه عددا من الولايات المعروفة اليوم مثل اترارزه وتيرس وتكانت يقول ابن المامي في تقريب طرة ابن بونه: >> لم يكن لابن بونا مكان معين يقيم فيه، بل كان كبقية البدو الرحل من أهل شنقيط (موريتانيا) يرتادون منابت المرعى ومساقط المطر؛ إلا أن لكل منهم مع ذلك فضاء من الأرض يؤوب إليها في أزمنة معينة كالصيف مثلا ويتبوؤه أيام الخصب والرخاء ، وابن بونا كان فضاؤه سهل اترارزه وسط صحرائها الشمالية (...). ويذكر ابن الأمين في كتابه الوسيط أن هذا الفضاء اتسع إلى الجنوب حتى تخوم نهر السنغال؛ وإلى الشمال حتى وصل أعماق تيرس وإلى الشرق حتى بلغ طرق تكانت¹

وقد افتخر ابن بونا باستطاعة جيله صناعة المعرفة على ظهور العيس حيث يقول في أبياته الشهيرة:

ونحن ركب من الأشراف منتظم أجل ذا العصر قدرا دون أدنانا
قد اتخذنا ظهور العيس مدرسة فيها نبين دين الله تبياناً²
وقد شكى تلامذته من تنقله الدائم حيث لا يكاد يستقر به النوى حتى يبادر إلى الرحيل ويرفع عصا التسيار من جديد يقول بعضهم:

لك الله من شيخ إذا ما تبوأ تلاميذه مأوى لنصب المدارس
تيمم ميمون الخصاصة فاترا على ظهر مفتول الذراعين عانس
يفزع نون البحر طورا وتارة يهدم جحر الضب في ظهر مادس³

ب - محاضرة آل بيه

وهي محاضرة جامعة تدرس مختلف العلوم لكنها أولت عناية خاصة بعلوم العربية وخاصة النحو؛ فقد استقدم لها شيخها محمد محمود ولد بيه علماء لهم باع في النحو مثل محمد محمود بن أفلاوط اليعقوبي؛ وابن متالي الحسني؛ وهو النهج الذي سلكه ابنه الشيخ المحفوظ ولد بيه حيث أسند تدريس النحو فيها لشيخ العربية المبرز في زمانه محمدو السالم ولد الشين اليدوكي نزيل تنبذغة⁴

ج- محاضرة آل ملعينين:

وهي محاضرة تأسست على يد محمد تقي الله الشيخ ماء العينين وقد أولت عناية خاصة بالنحو فمؤسسها مؤلف كتاب « تبين ما يعنون من الألفية وابن بون » وصف محمد المختار ولد اباه صنيعه بأنه بديع منها إلى أن كتابه ما يزال مخطوطا ناقلا منه فقرات توضح مدى

1 تقريب طرة ابن بونه ج؛ 1 ص 20.

2 ديوان المختار ابن بونه ص 136.

3 الوسيط في تراجم أدباء شنقيط لابن الأمين الشنقيطي 282.

4 تاريخ النحو العربي مرجع سابق 537.

تمكنه من النحو وأسلوبه في الشرح والتوضيح: >> هذا باب إعراب الفعل قال في «ح»: أجمع النحويون على أنه إذا تجرد من الناصب والجازم وسلم من نوني التوكيد والإناث كان مرفوعا كيقوم، وإلى رفعه عند التجرد من الناصب والجازم أشار بقوله:

ارفع مضارعا إذا يجرد من ناصب وجازم كتسعد
يعني أنك ترفع الفعل المضارع السالم من نوني التوكيد والإناث إلخ إذا كان مجردا من النواصب والجازم الآتية قال في هبة المالك وإنما لم يقيد الناظم المضارع بالسالم من نوني التوكيد والإناث لنصبه على ذلك في باب المعرب والمبني حيث قال:

وأعربوا مضارعا إن عريا * من نون توكيد مباشر ومن * نون إناث كيرعن من فتن
فاكتفى بذلك والحاصل أن المضارع يرفع إذا تجرد مما ذكر وينصب إذا دخل عليه ناصب ويجزم إذا دخل عليه جازم ومثل للفعل المرفوع لأنه المذكور أولا بقوله كتسعد بضم التاء وفتحها مع فتح العين فيهما مضارع سعد: مبني للمفعول أو الفاعل <<¹

وتكتفي بهذه النماذج التي تبين انتشار الاهتمام بالنحو في جميع جهات الفضاء الشنقيطي وما حصل به من عناية.

الدرس النحو في شنقيط (نحاة التأليف؛ ووعاة التوظيف):

في هذه الوقفة نعرض نماذج من نحاة التأليف النحوي ووعاة التوظيف في شنقيط سائرين على منهجنا السابق في التقسيم والاختيار؛ فالهدف تحفيز ذوي الاهتمام لتولية وجوههم شطر تراث نحوي ما يزال أغلبه في المكتبات الخاصة.

الفقرة الأولى: رجال الدرس النحوي في شنقيط ... نحاة التأليف

نعرض في هذه الفقرة نماذج من رجال التأليف في الدرس النحوي الشنقيطي لإظهار مدى الإسهام الشنقيطي في إثراء المكتبة النحوية العربية

أ. البوني وجامعه:

ليس من المجازفة ولا من المبالغة القول إن المختار بن بونا² أشهر مؤلف نحوي في القطر الشنقيطي؛ ولا من المبالغة ولا المجازفة القول إن كتابه الجامع البين التسهيل والخلاصة المانع من الحشو والخلاصة أشهر مؤلف نحوي شنقيطي؛ فقد نمت على هامشه مكتبة نحوية شنقيطية كبيرة منها ما هو على شكل مؤلفات مستقلة ومنها ما هو على شكل أنظام ومقطوعات شعرية فردية أو مشتركة.

أقر العلماء بمكانة المختار بن بونا وجزالة مؤلفه وبراعته فيه يقول عنه ابن الأمين الشنقيطي >>طوق بعلمه كل عاطل؛ وردت هيم الرجال زلاله فصدر منه كلهم وهو ناهل؛ لا يوجد عالم بعده إلا وله عليه الفضل الجزيل لما أفاد من مصنفاته وتلقى من مستنداته؛

1 تاريخ النحو العربي مرجع سابق؛ ص 511.

2 المختار بن بونا عالم موسوعي بلغت شهرته الآفاق لم يعرف تاريخ مولده بشكل دقيق؛ توفي سنة 1220هـ قال عنه ابن الأمين الشنقيطي " وكان من أجل الزوايا في العلم قبيلة العقوبيين خصوصا في علم العربية فأستجلبوه إليهم ليأخذوا عنه علم النحو وعلم الكلام وكان لا يجارى فيهما " ينظر تقريب طرة ابن بونا ص 20.

ويكفيه أنه هو الذي نشر النحو بعد دفنه؛ وكفى الناس مشقات مؤنه؛ وكانوا لا يتجاوزون قبله ما في الألفية وشروحها ؛ مع عدم معرفة الذي يمكن للطالب أن يخزن في ذهنه بها وما يكون قريب التناول عند الحاجة إلى ذلك حتى نظم لهم ما تخلف عن الألفية مما تضمنه التسهيل وألصق كل شذرة بما يناسبها؛ وضم إلى ذلك طرته المفيدة وأتى على كل مسألة بالشواهد من كلام العرب»¹.

ويتضح من النص السابق أن عمل المختار بن بونه النحوي تألف من شقين نظم مكمل لألفية ابن مالك وهو المعروف « بالاحمرار » وشرح على الألفية والاحمرار هو المعروف « بالطرة » ؛ وقد امتزج عمله المكمل بالأصل فصارت الألفية في الأدبيات المحظية تطلق على الجميع (الألفية والاحمرار والطرة).

وكما قلنا نمت على هامش عمله المسوعي مكتبة نحوية شنقيطية ثرية من أقدمها وأشهرها: «روض الحرون من طرة ابن بون » لعبد الودود بن عبد الله الحيلاني فك فيه رموز الطرة وفتح مقفلها وحل مشكلها وبين فيه معاني اصطلاحات ابن بونه؛ راض فيه صعب الطرة قال عنه ابن الأمين الشنقيطي « نحوي شهير، وانفرد به من غير نكير وأوضح أسرار وأعلى مناره وبلغ مبلغا لم يبلغه غيره في عصره »².

ومما أنتجته حلقات تدريس الطرة ودراستها ومراجعتها مجموعة كثيرة من الأنظمة والحواشي جمعها محمد بن محفوظ في كتاب نشره بعنوان « ألفية ابن مالك مع احمرار ابن بونا مع أنظام الطرة في الفوائد النحوية لعدد من العلماء الموريتانيين » ؛ وهو عمل توثيقي ليس فيه تحقيق ولا تعليق على هذه الأنظمة.

ب - ابن الحاج احماه الله الغلاوي وربانيه:

سبق أن نقلنا قول ابن الأمين الذي قال فيه إن كل من جاء بعد ابن بونا مستفيد منه؛ وهو ما جعل محمد المختار ولد اباه يصفه بالمعلم الثاني ؛ ومن تلامذة ابن بونا الذين ألفوا في النحو ابن الحاج احماه الله الغلاوي الذي ألف كتابا سماه الرباني اعتمد فيه على ابن بونا كثيرا مع اعتماده على كتاب لوالده سماه المفيد بالإضافة لكتاب السيوطي النقاية يقول في مقدمته:

يقول عبد الله بعد حمده
دونك في الإعراب ربانيا
مصليا على الرسول عبده
أرجوه أن يوسط الذكيا
ضمنته المفيد والنقاية
بالجد منهما لذي البداية³

وقد سار في ترتيبه على منهج ابن مالك في ترتيب الألفية كما يقول محققه محمد الأمين ابن عبي⁴

1 الوسيط ص 97.

2 المرجع السابق ص 374.

3 ترجم له فتح الشكور في علماء التكرور ص: 170 .

4 ينظر تاريخ النحو العربي ص 467.

ج- ابن زين وتوشيه:

غير بعيد من شهرة ابن بونه في التأليف النحوي وشهرة مؤلفه الجامع شهرة الحسن بن زين وتوشيه في مجال الصرف ومن المفارقة أن كلا العاملين تكميل وتوشيح لمؤلف من مؤلفات ابن مالك؛ وهو ما يؤكد المكانة التي احتلها ابن مالك ومؤلفاته في المحاضر الشنقيطية دراسة وإضافة؛ فقد امتزج توشيه بلامية ابن مالك كما امتزج جامع ابن بونه بخلاصته حتى أصبحت كتابا واحدا في الأدبيات المحظرة.

تطورت المدرسة البونية على يد الحسن بن زين¹؛ فقد كان كما وصفه محمد المختار بن أباه «مفكرا منهجيا وصانعا ماهرا حرص على إضفاء صبغة من التجديد في تنظيم القضايا النحوي؛ فانصب اهتمامه على تقريب بعض القواعد المعقدة سواء في أحكامها أو عواملها أو شروطها وبتخريج أوجه الحكم في استعمالات لغوية خاصة كما اهتم بالبحث والتدقيق في بعض المصطلحات وبيان حدودها وإبراز الفوارق بينها»²

كان سلس النظم شيق الأسلوب من أشعاره النحوية السلسلة:

ونصبك يوما قبل دارة جلجل	على سيما قول على القول يعتلي
وظرفا يراها بعضهم صلة لما	بتقدير فعل قبله غير منجل
ومن قال ما كفت و يوما مميز	لسي كعندي مثله سيف صيقل
يرد بأن اليوم يوم مغاير	لسي فما في قوله من معول
وذا الرد في الصبان قد جاء بينا	وما قبل في همع الهوامع ينجلي ³

ومن رقيق أشعاره النحوية:

ورفع ما بعد لولا قيل هو بها	أصلا وقيل بأن نابت عن انعدما
وضعفوا رفعه بها لأن به	خروجها عن مدى أشباهها لزما
وقيل رافعه يوجد مقدرة	وذا به كل ناحي كوفة حكما ⁴

ومن أعماله الجليلة توشيه على لامية الأفعال الذي صار معتمد الشناقطة في علم الصرف؛ وقد امتزج مع لامية ابن مالك بشكل كامل بحيث لا يمكن التمييز بينهما؛ نأخذ مثلا الأبيات الآتية لنكتشف حجم الامتزاج:

بفعل الفعل ذو التجريد أو فعلا	يأتي ومكسورين أو على فعلا
تضعيف ثان أو أن الياء آخره	أو عينه كالوقوع قلما نقلا
وهو لمعنى عليه من يقوم به	مجبول أو كالذ عليه قد جبلا
وجاء ثالثا مطاوعا ويجي	مغن لزوما ونقلا عن بنا فعلا
والطبع واللون والأعراض جاء لها	وللجسامة فالتقصير فيه علا

1 ولد سنة 1225 هـ وتوفي سنة 1314 وقيل 1315 هـ نحوي بارع درس على شيخه من شيوخ النحو هما عبد الودود بن عبد الله وبلا بن فاضل الشقروي شيخ شيخه بعد وفاة شيخه سنة 1268. ينظر توشيح الحسن بن زين مرجع سابق ص 107.

2 تاريخ النحو العربي مرجع سابق ص 516.

3 المرجع السابق ص 518.

4 الطرة شرح لامية الأفعال تحرير وتنسيق عبد الرؤوف. حسين علي.

وصوغ أولها مما يناسبه من اسم عين لمعنى كالأخير جلا¹
فلا يمكن لغير العارفين التمييز بين النصين ؛ - ولاحظ استخدام مصطلحي « الوقوع
والتقصير » للتعدي واللزم - ؛ وقد تم الاعتناء بهذا التوشيح أيما اعتناء وشرح أكثر من شرح
وممن شرحه محمدو السالم بن الشين اليدوكي نزيل تتمدغه بشرح سماه « الاخضرار »²

الدرس النحوي في شنقيط ... وعاء التوظيف

في هذه النقطة نقدم نماذج ممن وعوا النحو فوظفوه في التدريس والتعليم؛ وهؤلاء أكثر
عددا من سابقهم ؛ وسنأخذ منهم نماذج معبرة.

أ. يحظيه بن عبد الودود ... سيبويه زمانه

لئن كان المختار بن بونا أشهر مؤلف نحوي في بلاد شنقيط فإن يحظيه بن عبد الودود أشهر
مدرس نحوي في شنقيط ؛ فقد لقب بسيبويه زمانه جمع بين علمي علمين من أعلام النحو
في زمانه هما الحسن بن زين و«مع» وكابد في سبيل تحصيله مكابدة شديدة وكان يردد دائما:

ولم تك ممن أدرك المجد بالمنى ولكن بأيام أشبن النواصيـ
لبست لهم كدر العجاج وإنما ترى صافيا أن لا ترى الجو صافيا
تنقل في رحلات علمية شاقة جعلته يقول عن نفسه مقارنة بشيخه في النحو: «الحسن كان
خييرا بأبيات السواد أي بنصوص ابن مالك، وإن مع كان ماهرا بالأبيات الحمراء أي في نصوص
ابن بونا، وأنه هو كان عارفا بالأسود والأحمر»³

وإذا كان العلماء بعد ابن بونا مستفيدين من علمه؛ فإن مدرسي النحو بعد يحظيه بن عبد
الودود في الغالب تلامذته إما مباشرة أو بالواسطة.

ب. الشيخ سيديا الكبير

وهو ممن جمع بين التأليف والتدريس ؛ فقد شرح لامية الأفعال والمقصود والممود ؛ لكنه
شرحه للأجرومية كان الأشهر والأوسع انتشارا تميز فيه باختيار الأمثلة ذات الحمولة القيمة ؛
فمن أمثلته:

لأستهلن الصعب أو أدرك المنى فما انقادت الآمال إلا لصابر

ومنها:

استغن ما أغناك ربك بالغنى وإذا تصبك خصاصة فتجمل
وغيرها من الأبيات ذات المدلول القيمي الذي لا يخفى «القصدي إليه بالتبع» على حد تعبير
الشاطبي ؛ ولعل السر في ذلك جمعه في التكوين بين الجانب النحوي والصوفي؛ فهو نحوي
بارع وصوفي متمكن⁴

1 الطرة شرح لامية الأفعال مرجع ص 11.

2 توشيح الحسن بن زين بخياطة محمد سالم ولد عدود ص 119.

3 تاريخ النحو العربي ص 522.

4 ينظر تاريخ النحو العربي ص 484.

ج- محنص بابه بن ابييد:

عالم موسوعي ونحوي بارع ممن جمع بين التأليف والتدريس له طرة على ألفية ابن مالك لم تبلغ من الشهرة ما بلغت طرة ابن بونه ؛ التقى به بونه في أحد أسفاره وذاكره في النحو وبعض أبوابه ؛ نظم فصلي القواعد والجمل من كتاب المغني لابن هشام يقول في مقدمته:

الحمـد لله الذي علمنا	بفضله وشكره ألهمنا
ثم صلاته مع السلام	على النبي أحمد التهامي
وأله وصحبه وكل من	تبع نهج الحق في أي زمن
وبعد فالمقصود نظم جملة	حاوية لشرح أمر الجملة
وشبهها من ظرف أو مجرور	والله أستعين في أموري

وفي ما سبق غنية للباحث تشده إلى هذا التراث النحوي الضخم وتحفزه على الإسهام العلمي الجاد في كشفه وإخراجه للعلن لينال حظه من الدراسة وليتبوأ مكانته في المكتبة النحوية العربية.

خاتمة:

ونختتم هذه الوقفات العجلى التي نرجو أن تكون قدمت للقارئ والباحث صورة عن الدرس النحوي الشنقيطي تدفعه لاقتحام ميدانه واستخراج كنوزه المعرفية الدفينة في خبايا الزوايا بخلصة واقتراح:

أما الخلاصة فهي: وجود إسهام نحوي شنقيطي ثري استطاع من خلاله النشاقطة تحقيق أمور عديدة من أهمها توطينهم للمعرفة النحوية في الربوع الشنقيطية ؛ واستنباتهم لها حتى أصبحت مع الوقت جزءا من مكونات الشخصية الشنقيطية وملمحا من ملامحها البارزة في مناظراتها ومذاكراتها ومطاراتها المعرفية في المشرق الإسلامي.

أما الاقتراح فهو ضرورة قيام المؤسسات الجامعية بدورها في استعادة الألق الشنقيطي في جانب العلوم العربية وبالأخص علم النحو؛ ويكون ذلك عن طريق:

- مراجعة المناهج والمقررات؛ حتى تتواءم مع ما يتطلبه السياق المعرفي المختلف في آليات التحصيل والتوصيل عن السياق المعرفي الذي أنتجها أولا ووظفها ثانيا.
- العناية الكبيرة بمواد العربية العربية واختيار المتمكنين منها معرفة القادرين على توصيلها بسلاسة وسهولة تقربها من الطلاب وتجذبهم إليها؛ حتى يصحوا علاقة الطلاب بها ويعيدوهم إلى ما كان عند الشناقطة الأوائل من ملكة لغوية وسلاقة تعبيرية تفتح لهم الباب واسعا للتميز والتبحر فيها كما تبحر أولئك وتميزوا.
- تأسيس مراكز علمية مختصة تكون مهمتها الأساسية العمل على استخراج هذا التراث الضخم وتكوين جيل من النحاة الشناقطة يجددون عهد السلف ويكونون خير خلف لخير سلف.

هوامش البحث

ابن مالك (600 - 672 هـ = 1203 - 1274 م) « محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجبالي، أبو عبد الله، جمال الدين: أحد الأئمة في علوم العربية. ولد في جيان (بالاندلس) وانتقل إلى دمشق فتوفي فيها. أشهر كتبه (الالفية - ط) في النحو، وله (تسهيل الفوائد - ط) نحو، و (شرحه له - خ) المجلد الأول منه، في الرباط (213 أوقاف). و (الضرب في معرفة لسان العرب) و (الكافية الشافية - ط) أرجوزة في نحو ثلاثة آلاف بيت، و (شرحها - ط) و (سبك المنظوم وفك المختوم - خ) نحو، و (لامية الأفعال - ط) و (عدة الحافظ وعمدة اللفظ - خ) رسالة، و (شرحها، و (إيجاز التعريف - خ) صرف، و (شواهد التوضيح - ط) و (إكمال الأعلام بمثلث الكلام - ط) و (مجموع - خ) فيه 10 رسائل، و (تحفة المودود في المقصور والممدود - ط) منظومة، و (العروض - خ) و (الاعتضاد في الفرق بين الظاء والضاد - خ) قصيدة من بحر البسيط على روي الظاء المفتوحة، مشروحة شرحاً متقناً من انشائه. وغير ذلك» الأعلام للزركلي؛ ج 6 ص 233.

(708 - 761 هـ) (1309 - 1360 م) عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن هشام الانصاري، المعروف بابن هشام (جمال الدين، أبو محمد). نحوي، مشارك في المعاني والبيان والعروض والفقه وغيرها. ولد في ذي القعدة، وقرأ العربية وأقام بمكة، وتوفي بمصر في 6 ذي القعدة، ودفن بمقبرة الصوفية. من تصانيفه الكثيرة: قطر الندى وبل الصدى، مغني اللبيب عن كتب الاعاريب وكلاهما في النحو، شرح الجامع الصغير لحمد بن الحسن الشيباني في فروع الفقه لحنفي، شرح بانت سعاد، وشرح الشافية وسماه عمدة الطالب في تحقيق تصريف ابن الحاجب» معجم المؤلفين ج 6 ص 163.

البدر الدماميني (763 - 827 هـ = 1362 - 1424 م) محمد بن أبي بكر بن عمر بن أبي بكر بن محمد، المخزومي القرشي، بدر الدين المعروف بابن الدماميني: عالم بالشريعة وفنون الادب. ولد في الاسكندرية، واستوطن القاهرة ولازم بن خلدون. وتصدر لاقراء العربية بالأزهر. ثم تحول إلى دمشق. ومنها حج، وعاد إلى مصر فولي فيها قضاء المالكية. ثم ترك القضاء ورحل إلى اليمن فدرس بجامع زيد نحو سنة، وانتقل إلى الهند فمات بها في مدينة (كلبرجا). من كتبه (تحفة الغريب - ط) شرح لمغني اللبيب، و (العيون الغامزة - ط) شرح للخزرجية في العروض، و (إظهار التعليل المغلق - خ) في مسألة نحوية، و (شرح تسهيل الفوائد - خ). الأعلام للزركلي؛ ج 6 ص 57.

الاشموني (838 - نحو 900 هـ = 1435 - نحو 1495 م) علي بن محمد بن عيسى، أبو الحسن، نور الدين الاشموني: نحوي، من فقهاء الشافعية. أصله من أشمون (بمصر) ومولده بالقاهرة. ولي القضاة بدمياط. وصنف « شرح ألفية ابن مالك - ط » في النحو، و « نظم المنهاج » في الفقه، وشرحه « و نظم جمع الجوامع » المرجع السابق؛ ج 5 ص 10.

تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب لمحمد المختار ولد اباه؛ ص 438.

ابن أجروم (672 - 723 هـ = 1273 - 1323 م) محمد بن محمد بن داود الصنهاجي، أبو عبد الله: نحوي، اشتهر برسائله (الاجرومية - ط) وقد شرحها كثيرون. وله (فرائد المعاني في شرح حزر الاماني - خ) مجلدان منه، الاول والثاني لعلهما بخطه، في خزانة الرباط (146 أوقاف) ويعرف بشرح الشاطبية. وله مصنفات أخرى وأراجيز. مولده ووفاته بفاس « الأعلام للزركلي مرجع سابق ج 7؛ ص 33.

تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب مرجع سابق؛ ص 438.

ينظر تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب ص 440.

الحريري (446 - 516 هـ = 1054 - 1122 م) القاسم بن علي بن محمد بن عثمان، أبو محمد الحريري البصري: الأديب الكبير، صاحب « المقامات الحريرية - ط » سماه « مقامات أبي زيد السروجي ». ومن كتبه « درة الغواص في أوهام الخواص - ط » و « ملحّة الاعراب. الأعلام للزركلي؛ ج 5؛ ص 177.

- ملحة الإعراب للحري ص 8 .
- أفية ابن مالك مع الاحمرار والحواشي النظامية التوضيحية ص 33.
- ملحة الإعراب للحري ص 8.
- أفية ابن مالك مع الاحمرار والحواشي النظامية مرجع سابق ص 53.
- توشيح لامية الأفعال بخياطة وترشيح محمد سالم ولد عدود تحقيق محمد بن عبد المجيد الأنصاري ص 83.
- المرجع السابق ص 50
- ينظر في حياة موريتانيا الثقافية للمختار بن حامد ص 198
- ترجمة محمد يحيى الولاتي .
- الجلال السيوطي (849 - 911 هـ = 1445 - 1505 م) عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد ابن سابق الدين الخضير السيوطي، جلال الدين: إمام حافظ مؤرخ أديب. له نحو 600 مصنف، منها الكتاب الكبير، والرسالة الصغير (...)(الاشباه والنظائر - ط) في العربية، و (الاقتراح - ط) في أصول النحو، و (الافية في النحو - ط) واسمها (الفريدة) وله شرح عليها» الأعلام للزكي ج 3؛ ص: 301.
- تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب مرجع سابق؛ وقد أورد مقطعا من شرحه لباب الظرف من الفريدة ليبين منهجه في الشرح والتوصيل.
- المرجع السابق.
- تقريب طرة ابن بونه ج؛ 1 ص 20.
- ديوان المختار ابن بونه ص 136.
- الوسيط في تراجم أدباء شنقيط لابن الأمين الشنقيطي 282.
- تاريخ النحو العربي مرجع سابق 537.
- تاريخ النحو العربي مرجع سابق ؛ ص 511.
- المختار بن بونا عالم موسوعي بلغت شهرته الآفاق لم يعرف تاريخ مولده بشكل دقيق؛ توفي سنة 1220هـ قال عنه بان الأمين الشنقيطي « وكان من أجل الزوايا في العلم قبيلة العقوبيين خصوصا في علم العربية فأستجلبوه إليهم ليأخذوا عنه علم النحو وعلم الكلام وكان لا يجارى فيهما » ينظر تقريب طرة ابن بونا ص 20.
- الوسيط ص 97.
- المرجع السابق ص 374.
- ترجم له فتح الشكور في علماء التكرور ص: 170 .
- ينظر تاريخ النحو العربي ص 467.
- ولد سنة 1225 هـ وتوفي سنة 1314 و قيل 1315 هـ نحوي بارع درس على شيخن من شيوخ النحو هما عبد الودود بن عبد الله وبلا بن فاضل الشقروي شيخه بعد وفاة شيخه سنة 1268. ينظر توشيح الحسن بن زين مرجع سابق ص 107.
- تاريخ النحو العربي مرجع سابق ص 516.
- المرجع السابق ص 518.
- الطرة شرح لا مية الأفعال تحرير وتنسيق عبد الرؤوف .حسين علي.
- الطرة شرح لامية الأفعال مرجع ص 11.
- توشيح الحسن بن زين بخياطة محمد سالم ولد عدود ص 119.
- تاريخ النحو العربي ص 522.
- ينظر تاريخ النحو العربي ص 484.

الماء والتعمير في صحراء الملثمين من خلال مسالك البكري

الدكتور عبد السلام يحي

أستاذ تاريخ وسيط
كلية اللغة العربية والعلوم الإنسانية
جامعة العلوم الإسلامية بلعبون



مقدمة

تحاول هذه الورقة تسليط ضوء كاشف على مصدر عتيق يعد من أهم موارد المعلومات عن صحراء الملثمين خلال العصر الوسيط، وهو «المسالك والممالك» لأبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري (ت 487هـ / 1094م)، لكن من زاوية لم يتم تناولها من قبل حسب علم الباحث، بالرغم من أن هذا المصدر يوفر عنها كمًا معتبرا من البيانات، يتعلق الأمر بمشكلة الماء والتعمير في صحراء الملثمين، حيث يمنحنا البكري فرصة ثمينة للربط بين هذين العنصرين بشكل وثيق من خلال كلامه عن أنواع الآبار وملكيته وشأنها في العمران «الثابت» و«المتحرك».

إن العمران، كما هو معلوم، مصطلح خلدوني عرّفه صاحب «المقدمة» بقوله: (هو التساكن والتنازل في مصر أو حُلّة للأنس بالعشير، واقتضاء الحاجات، لما في طباعهم من التعاون على المعاش)¹، وقد قيّده أثناء وصفه لأحوال العرب حين انتقد عليهم كثرة الرحلة والتغلب، واعتبر ذلك «مناقضا للسكون الذي به العمران»²، مما ينفي نظريا، على الأقل في العرف الخلدوني، أن يوجد عمران «متحرك»، لكن مؤلف «العبر» يوضح في مقدمة «المقدمة» أن العمران يأتي على صنفين: بدوي وحضري، فالحضري هو المرتبط بالسكون، أما البدوي؛ فيدخل فيه «العمران المتحرك»، أو بتعبيره هو بنفسه «الجَلل المنتجة في القفار وأطراف الرمال»³، وهذا ما سمح للباحث بتوسيع مفهوم العمران المتنازل، في هذه الدراسة، ليشمل أصنافا منها يمكن وصفها بغير «المستقرة»، وإن كانت البداوة سمة مجمل العمران الصحراوي⁴ فإن وصفه بذلك هنا لا يضيف شيئا للموصوف، لذلك ميز الباحث داخل هذا العمران بين «الثابت» منه (كالمدن والمجالات الطغنية)، و«المتحرك» (كمحطات توقف القوافل، ومواقع الترسد، والمراتع المائية).

وقبل البدء في الموضوع يستحسن أولا المرور سريعا؛ لمناقشة بعض الإشكالات التي ما تزال محل خلاف، مثل تاريخ ولادة البكري، وطبيعة المصادر التي اعتمد عليها في «مسالكه».

1 - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، (بيروت، دار الفكر، 2001)، ص 53.

2 - نفسه، ص 187.

3 - نفس المصدر، ص 53.

4 - ينظر لتفصيل ذلك، أحمد مولود أيده الهلال، مدن موريتانيا العتيقة: قصور ولاته وودان وتيشيت وشنقيط، الرباط، مركز الدراسات الصحراوية، 2014.

1 - المؤلف والكتاب

لقد تحدث البكري عن مجالات الملثمين ضمن جزء من عمله المعنون بـ «المُعَرَّب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب»، والذي يتميز عن بقية الكتاب بتحيين معلوماته ومعاصرتها لفترة التأليف، بخلاف الحال في أجزاء أخرى من بلاد المغرب يعتقد أن حديثه عنها مستقى من مؤلفات تعود لقرن كامل قبل وقت كتابة «المسالك»¹، وبغض النظر عن هدف البكري من تأليف الكتاب²، فقد اعتبره حسين مؤنس «قمة من قمم التأليف الجغرافي»³، لا بمفهوم الجغرافيا العلمي (فهو لم يورد خرائط كسابقه ولا حقيقه من الجغرافيين)، بل بمعناها البشري والاقتصادي، فضلا عن استطرادات البكري التاريخية المهمة⁴، ويحاول المرحوم حسين مؤنس الاستدلال على شهرة «المسالك والممالك» وأثرها على الكشوفات الجغرافية الكبرى في عصر النهضة الأوربية بالإشارة إلى احتمال أن يكون البحار الإيطالي المعروف اكريستوف كولومبوس قد اطلع عليها واستفاد منها نظريا ومعرفيا⁵. أما أبو عبيد البكري؛ فقد كتب عنه الأولون والآخرون ما عم وشمل، مع أخذ بعضهم عن بعض حتى تكررت الرواية وترسخت مع الزمن وصارت شبه معتمدة، وعموما فإن موارد دراسة حياة البكري تأتي على أربعة أنواع: أولها: وأهمها هي كتب التراجم الوسيطة (مثل «قلائد العقيان» لابن خاقان (ت 529هـ / 1135م)، و«الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» لابن بسام الشنتريني (ت 542هـ / 1147م))، وثانيها: الموسوعات العلمية المهمة بالتراث الإسلامي، (مثل «دائرة المعارف الإسلامية» و«موسوعة أعلام العلماء...») وثالثها: المصنفات الموضوعية المهمة بالإرث الجغرافي الإسلامي (مثل ما قام به الكاتبان كراتشكوفسكي وحسين مؤنس)، أما الرابع والأخير؛ فهو مقدمات تحقيق مؤلفاته (مثل ما فعل عبد العزيز الميمني في تحقيقه لكتاب اللكي)، وبالرغم من كل ذلك فمن المعلوم أنه لا توجد كلمة أخيرة في أي موضوع، وإضافة الباحث «المزعومة» إلى هذا الركام المعرفي المهم تتعلق بمناقشة نقطتين أساسيتين، الأولى حول سنة ميلاد البكري، والثانية حول مصادره.

1 - 1 - مولد البكري

هناك شبه إجماع بين كتب التراجم العتيقة على أن البكري قد توفي سنة 487هـ / 1094م⁶، بالرغم من أن أقدم ترجمتين وأقربهما لزمانه (في «قلائد» و«الذخيرة»)، لم تذكر له سنة ميلاد ولا وفاة، مما يجعل التساؤل واردا عن مصدر تواريخ المصادر؛ إذ أنها في حديثها عن البكري لم تخرج عن أحد مصدرين، أولهما ابن حيان القرطبي (ت 469هـ / 1076م) في كلامه عن دولة البكريين من ملوك

- 1 - موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، إشراف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، (بيروت، دار الجيل (2005)، ج3، ص 728.
- 2 - وقد حصره كراتشكوفسكي في مجرد "إرضاء مطالب الإدارة"، ينظر: أغناطيوس يوليانوفيتش كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، (جزآن)، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، منشورات اللجنة الثقافية في جامعة الدول العربية (د ت)، ج1، ص 275.
- 3 - حسين مؤنس، تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس، منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، (مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الثانية 1986)، ص 148.
- 4 - موسوعة أعلام العلماء، مرجع سابق ج3، ص 726.
- 5 - تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس، مرجع سابق ص 143.
- 6 - ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك الأنصاري، الصلة، (3 أجزاء)، تحقيق: إبراهيم الأبياري، (دار الكتاب المصري - القاهرة و دار الكتاب اللبناني - بيروت، 1989)، ج 2، الترجمة رقم 638، ص 437. وابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، الحلة السَّيِّرا، جزآن، تحقيق: حسين مؤنس، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة 1985، ج 2، الترجمة رقم 139، ص 186، وإن خالفهما الضَّبِّي وجعلها سنة 496هـ / 1103م، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، (جزآن)، تحقيق إبراهيم الأبياري، (دار الكتاب المصري - القاهرة و دار الكتاب اللبناني - بيروت 1989)، ج 2، الترجمة رقم 933، ص 449.

الطوائف في ولبة وشلطيش، و ثانيهما ما ورد من شعره وأخباره في «القلائد والذخيرة». ويعد المؤرخ الأندلسي ابن حيان القرطبي أقدم من ذكر البكري، وقد ورد عنده، أثناء حديثه عن إسقاط المعتضد بن عباد لدولة البكرين عام 443هـ / 1051م، بصيغة الفتى¹، الأمر الذي جعل بعض المؤرخين يظنون حداثة سن أبي عبيد ساعتها، حيث جعل غايانجوس ولادته عام 432هـ / 1041م²، وهو التاريخ المعتمد في «موسوعة أعلام العلماء العرب والمسلمين»، بالرغم من الاعتراضات عليه، في حين نجد بروفنسال يقترح عام 413هـ / 1021م لميلاد البكري³، وهو تاريخ قريب جدا من ما اقترحه حسين مؤنس عندما اعتبر أن البكري كان بين العشرين والخامسة والعشرين عام 443هـ / 1051م (مما يجعل ولادته بين عامي 418هـ / 1027م و 423هـ / 1032م)⁴، في حين اعتبر محررو مادة «أبي عبيد البكري» في الموسوعة المذكورة ولادته بداية العقد الأول من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، استنادا فقط إلى أنه قد توفي معمرا عام 487هـ / 1094م⁵، في حين أنه كان بإمكانهم الاستدلال على ذلك بأكثر من قرينة، وعدم اعتماد عام 432هـ / 1041م كتأريخ للمترجم له. وبما أن الفتح بن خاقان (ت 529هـ / 1135م) قد حضر مع أبي عبيد البكري مجلس قاضي إشبيلية ابن منظور، ولما يبلغ الفتح بعد الرابعة عشر من العمر⁷، في حين أن البكري كان قد بلغ الثمانين من العمر، ثم علمنا بأن الأخير قد خرج من إشبيلية باتجاه قرطبة بعد إسقاط المرابطين للمعتمد بن عباد عام 484هـ / 1091م⁸، اتضح أن البكري قد ولد فعلا مطلع القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، خصوصا وأن محقق كتاب «القلائد» رجح مولد الفتح بن خاقان في بحر العقد الثامن من هذا القرن⁹، كما أن وصف الفتوة الذي وُسم به البكري عند ابن حيان لا تعني بالضرورة الشاب حديث السن، بل إنها تدل أيضا على «الكامل الجزل من الرجال»¹⁰، (.)، ولا كمال إلا بعد الأربعين، فهذا كله مما يرجح أن يكون مولد أبي عبيد بعد عام 403هـ / 1012م.

2 - 1 - مصادر البكري

لهجت أقلام مترجمي البكري بصنوف المدح والإطراء، فهو «عالم الأوان ومصنفه¹¹»، وآخر علماء الجزيرة بالزمان، وأولهم بالبراعة والإحسان¹²، وأحد «مفاخر الأندلس و الرؤساء الأعلام»¹³، لكن أهم

- 1 - وردت في: ابن بسام الشنتريني، أبو الحسن علي، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، (أربعة أقسام)، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت (الأقسام الثلاثة الأولى 1997، القسم الرابع 1979). القسم الثاني / المجلد الأول، صص 233-235.
- 2 - نقلها عنه حسين مؤنس، سبق ذكره، ص 115.
- 3 - نقلا عن: موسوعة أعلام العلماء العرب والمسلمين، ج3، (سبق ذكره)، ص 725.
- 4 - تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس، ص 115.
- 5 - أعلام العلماء العرب والمسلمين، ج3، سبق ذكره، ص 725.
- 6 - عائلة ابن منظور تقلد عدة فقهاء منها القضاء في إشبيلية، فمن المرجح أن يكون المعني هو أبو القاسم أحمد بن القاضي أبي بكر محمد بن أحمد بن محمد بن منظور القيسي، توفي عام 520هـ / 1126م عن 84 سنة، أو أبوه أبو بكر الموصوف بالقاضي أيضا، ينظر: الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، تحقيق، شعيب الأرنؤوط و محمد نعيم العرقسوسي، (بيروت، مؤسسة الرسالة، 1984) ج 18 الترجمة رقم 190، صص 389-390 و ج 19 الترجمة 301 ص 518.
- 7 - وقد كنى عنها بلاغته المعهودة بقوله "وأنا غلام ما أقمر هلال"، ينظر: أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي، قلائد العقيان في محاسن الأعيان، (جزءان)، تحقيق: حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، الأردن 1989، ج2، ص 616.
- 8 - موسوعة أعلام العلماء العرب والمسلمين، ج3، (سبق ذكره)، ص 726.
- 9 - قلائد العقيان في محاسن الأعيان، (سبق ذكره)، ص 8.
- 10 - ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري الإفريقي، لسان العرب، بعناية عبد الله علي الكبير وآخرين، القاهرة، دار المعارف، 1998، المجلد الخامس، مادة "فتا".
- 11 - نفس المصدر، ص 615.
- 12 - ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، (ق 2/م 1) (سبق ذكره)، ص 232.
- 13 - ابن الأبار، الحلة السيرة، (سبق ذكره)، ج 2/ص 185.

وصف يعنينا هو قول ابن بشكوال عنه إنه كان «متقنا لما قيده .. ضابطا لما كتبه»¹، وقد تحدث حسين مؤنس باستفاضة عن مصادر البكري التي اعتمدها في تأليف «المسالك والممالك»²، وبيّن محررو مادته في «موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين» كيف أنها تتنوع بين المؤلفات السابقة، والوثائق الرسمية المحفوظة في خزانات قرطبة، والشهادات المباشرة، مع ملحوظة حجم التباين الزمني بينها³، مما يحتم على القارئ ضرورة التمييز بين بيانات عصر البكري وبيانات ما قبله، لكن ما يعني الباحث هنا بالضرورة هو مصادر البكري حول صحراء المثلثين، ما مدى خصوصيتها؟ وبماذا تميزت عن غيرها من المصادر؟

إن أول ملحوظة على مصادر البكري عن الصحراء هي أنها تبدو للوهلة الأولى روائية شفوية، مستقاة من شهادات مباشرة، فكل ما ورد عنده حول الصحراء، من حيث الطرق والسكنة وتُفّ التاريخ وغيرها، يقتزن بالحديث عن بلاد السودان، ومحصور بين روايتين تبدأ أولاهما من مؤمن بن يومر الهواري، وتنتهي عند بداية الأخرى مع الفقيه أبي محمد عبد الملك بن نخاس الغرفة أثناء حديثه عن غانة، وهذا ما يعزز فرضية اعتماد البكري الرواية الشفهية مصدرا رئيسا حول الصحراء تاريخا وواقعا.

ومهما يكن هذا الهواري؛ فإن مقارنة نصوصه بما أورده بعد ذلك ابن عذارى المراكشي (ت بعد 712هـ/1312م)، دون أن يشير إلى أخذه عن البكري بل إلى عنوان الكتاب، يدل على أننا ربما نكون أمام مؤلف مكتوب، ذكر البكري صاحبه وهو مؤمن بن يومر الهواري، فيما نجد عنوانه عند ابن عذارى وهو «المجموع المفترق»، وكلا المصنّفين يمتحان من عين واحدة أسلوبا وبيانا⁴.

وعلى العموم يُحفظ للبكري أنه قد دون لنا بدقة لم يُسبق لها، وبسخاء معرفي كبير، فسيفساء تاريخية واجتماعية وبشرية تبقى عبر الأزمان معينا لا ينضب لكل مقاربة تاريخية جديدة، ومن ذلك مشكلة «الماء والتعمير بصحراء المثلثين»⁵، فكيف عبرت «مسالك البكري» عن تلازم هذي المعطيين بالرغم من ندرة الماء وكثرة الرمال؟ وما مدى تنوع آبار الصحراء؟ وأي شأن لهذا التنوع؟ وكيف استفاد العمران «الثابت» و «المتحرك» من ذلك؟

II - الماء والتعمير في مجالات المثلثين

يبدو من معلومات البكري حول طبيعة الصحراء وسكانيتها، وما قدمه من معطيات حول التحرك والظعن، والترحال والسكن، أننا أمام نموذجين دالين من العمارة الصحراوية، أحدهما يتعلق بنقاط التبادل ومراكز السلطة، حيث المدن والحصون ومجالات سكن القبائل، وهو الذي عبرنا عنه بالعمران الثابت، وفيه كان للماء شأن بارز في التقري والاستقرار من جهة، مع التواؤم مع قلته وندرته من جهة ثانية، أما الآخر فيمكن التعبير عنه تجوزا بالعمران المتحرك، ويقصد به الباحث تحركات

1 - الصلة، ج2، سبق ذكره، ص 638.

2 - تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس، (سبق ذكره)، صص 132 - 148.

3 - ج 3، سبق ذكره، صص 726-728.

4 - يقول البكري: (...) مدينة بنكلايين، وهي مدينة يسكنها جماعة من المسلمين يعرفون ببني وارث من صنهاجة، وخلف بني لمتونة قبيلة من صنهاجة تسمى جدالة، وهم يجاورون البحر ليس بينهم وبينه أحد، وهذه القبائل هي التي قامت بعد الأربعين وأربعماية بدعوة الحق ورد المظالم وقطع جميع المغارم، وهم على السنة متمسكون بمذهب مالك بن أنس رضي الله عنه) أبو عبيد البكري، عبد الله بن عبد العزيز، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، بعناية دي سلان، الجزائر 1837، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة. د ت. ص 164. أما نص ابن عذارى فهو (قال بعض المؤرخين في "المجموع المفترق" وفي كتب غير ذلك: إن بعد الأربعين والأربعماية قامت/ قبائل في الصحراء من صنهاجة يعرفون ببني وارث وخلفهم لمتونة وجدالة وهم يجاورون البحر ليس بينهم وبينه قبيل غيرهم، وهذه الثلاث قبائل في ذلك الوقت مسلمون قاموا بدعوة الحق ورد المظالم وقطع المغارم، وهم متمسكون بالسنة). وبعدها مباشرة يقول "قال أبو عبيد" (يقصد البكري)، مما يفهم منه أنه قد عاد إليه بعد انقطاع. (ينظر: ابن عذارى المراكشي، أبو العباس أحمد بن محمد، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الرابع، تحقيق ومراجعة: الدكتور إحسان عباس. الطبعة الثالثة، دار الثقافة، بيروت 1983. صص 10-11).

قوافل التجارة وعصابات الترسد وقطعان الإبل الباحثة عن مراتع مائية، وهنا يتضح الشأن الكبير للماء في تزويد الأول، واغتنام الثاني للفرصة، وري الثالث وارتواءه، ومن خصائص هذا العمران الأخير راهنيته وظرفيته واختفاؤه بمجرد انتهاء شأنه، بعكس الثابت الذي يتحدد بقيام الدول وسقوطها، أو بتحول مسالك العبور والتبادل مما يؤدي إلى ظهور أجيال من المدن على حساب أخرى. ولعل أول نقطة تلفت النظر حول جدلية الماء والتعمير في الصحراء هو مدى توفر أو توفير هذا المورد الحيوي، فماذا يضيف لنا البكري حول هذا الموضوع؟

1 - II - الماء بين الندرة والريافة

هنا يخبرنا أبو عبيد البكري عن ثلاث علامات دالة على ندرة الماء لدى المثلثين، وتكفيهم مع ذلك، بل واكتسابهم مهارة البحث عنه في مضافه، فمن حيث الندرة تكلم البكري عن أربع مجابات رمل لا تتوفر فيها المياه إلا بعد عدة أيام من المسير، اثنتين منها على الطريق من وادي درعة إلى الصحراء إلى بلاد السودان، طول إحدهما أربعة أيام من آبار تزامت و الجمالين وناللي إلى أرض لمتونة¹، وطول الثانية ثمانية أيام من جبل الحديد إلى أرض بني ينتسر من صنهاجة، وهي المجابة الأكبر في الصحراء²، والأخرتين تقعان على الطريق بين مدينتي تامدلت وأودغست، حيث توجد مجابة قبل بئر وانزيمن طولها أربعة أيام، وأخرى قبل مجال بني وارث من صنهاجة تقطع في خمسة أيام³. ومن دلائل ندرة المياه في صحراء المثلثين أيضا، أو على الأقل في مجالات ظعن قبيلة لمتونة، استعاضتهم عن الماء باللبن كمشروب، حيث « يبقى الرجل منهم الأشهر لا يشرب ماء»، وقد استغرب البكري من عدم تأثر صحتهم وأبدانهم من ذلك⁴، ومع هذه الندرة المائية إلا أنه كانت لسكانة الصحراء وعابريها طرقهم الخاصة في التعرف على مكامن المياه في بواطن الأرض، يستدل على ذلك من ما ذكره البكري من عثور القوافل على المياه بأرض أوكازنت، على الطريق بين تامدلت وأودغست⁵، لكنه لم يبين طريقتهم في العثور عليها.

وما ساقه صاحب «المسالك» في سياق الاستدلال على صلاح عبد الله بن ياسين⁶، قد لا يعدو معرفة هذا الداعي بعلم الريافة، وهو نوع من الفراسة الحاذقة، يُتعرّف بها على مكامن المياه في باطن الأرض، إما بشم التراب، أو برائحة النبات، أو بنوع الحيوان⁷، وبالتالي فمن الوارد أن يكون قد نقل هذا العلم إلى المثلثين كجزء من المعارف الضرورية لسكانة الصحراء، ليتمكنوا من حفر الآبار والاستفادة منها، والتي يبدو أنها تختلف ذوقا ورشاشا وحجما.

2 - II - أنواع الآبار

يطالعنا البكري في قطعه الثمينة عن الصحراء وسكانتها بسلسلة من الآبار متنوعة من حيث العذوبة، والقرب أو البعد من السطح، وكثرة أو قلة مياهها، كما يمكننا إضافة بُعد تاريخي بتصنيفها

- 1 - البكري، "المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب"، سبق ذكره، ص 164. وسنعتبر عن الكتاب مستقبلا بصيغة "المغرب" فقط.
- 2 - نفس المصدر والصفحة.
- 3 - نفسه، ص 157.
- 4 - نفسه، ص 170.
- 5 - "المغرب"، ص 157.
- 6 - حين عطشوا في بعض أسفارهم فأمرهم بالحفر بين يديه ففعلوا ووجدوا الماء بأدنى حفر، (نفس المصدر)، صص 168-169.
- 7 - حسن حافظي علوي، "طرق الاستدلال على وجود الماء وتدبير قلته ودفع مضاره بصحراء بلاد المغرب في العصر الوسيط"، ضمن أعمال الندوة الدولية الثالثة لوحدة البحث "ابن خلدون: المجتمع والعمران بالبلاد التونسية عبر التاريخ" المنعقدة بالمكتبة الوطنية بتونس أيام 15-16-17 نوفمبر 2007 تحت عنوان: "الماء والتعمير ببلاد المغرب في العهدين القديم والوسيط"، أعدها للنشر الأستاذ محمد حسن، تونس 2009، (صص 181-196)، ص 186.

إلى آبار أموية من صنع عبد الرحمن بن حبيب (مثل آبار تنزامت والجمالين و ويطونان)، وأخرى حفرها المسافرون في طريقهم، (مثل مياه تندفس و أوكازنت) وثالثة مجهولة المستحدث، (مثل بئري وين هيلون و وانزمين) لكن في النماذج الثلاثة الأولى غناء تمثيلية مجزيا.

1 - 2 - II - آبار عذبة/مالحة

أغلب الآبار التي ذكرها البكري في الطريقين الكبيرين المخترقين للصحراء باتجاه بلاد السودان تنقسم إما بالعذوبة، أو القابلية للشرب، أو الملوحة، لكن الالف للنظر هو تدرج المياه غير الصالحة للشرب بين القريب من الملوحة، والمالح، والزقاق، وكلها ذات خصائص استعمالية مختلفة عن الأخرى.

ففي الطريق بين درعة وبلاد السودان توجد بئر تنزامت، وقد وصفها بأنها قريبة من الملوحة، مما يعني إمكانية استعمالها لشرب الحيوان فقط¹، وكذلك الحال بالنسبة للبئرين التاليين على نفس الطريق (الجمالين وناللي)، وفي الطريق الأخرى بين تامدلت وأودغست تبرز البئر الكبيرة المسماة ويطونان باعتبار مائها زقاقا يسبب الإسهال لشاربه من الناس والدواب بالرغم من كثرة مائها²، كما توجد على الطريق نفسه بئر «أغرف» المالحة أيضا، لكنها مرتع «خصب» لجمال صنهاجة، لأن «كل ماء ملح موافق للإبل»³، وهي آخر مذكور من الآبار غير العذبة بين حدي بني واث وقبيل آخر من صنهاجة.

وهنا تبرز ملحوظة طريفة تعتبر من مضمرات البكري - إن صح التعبير - وهي ارتباط الآبار العذبة بمواطن سكن المجموعات البشرية (بني ينتسر، بني واث، بني لمتونة)، في حين اتسمت آبار عبد الرحمن بن حبيب كلها بالملوحة (تنزامت - الجمالين - ويطونان)، فهل من دلالة تاريخية لذلك قد تفسر فشل الأمويين في الوصول للعمق الصحراوي؟

2 - 2 - II - آبار قريبة/بعيدة الرشاء

كان من الأهمية لسالكي الطريق بين تامدلت وأودغست أن يجدوا الماء ببسر، ودون كبير مشقة، غير أن هذه السبيل عرفت كلا النوعين من الآبار، القريب الماء وبعيده، ورغم أن البكري لم يحدد لنا المعدل المطلوب للحكم على قرب الرشاء أو بعده، إلا أن وحدات قياسه قد تراوحت بين الذراعين كأقل تقدير، وبين الأربع قامات بالكثير، ويأتي موضع أوكازنت في الصنف الأول، حيث يوجد به الماء على بعد ذراعين أو ثلاثة⁴، وكذلك الأمر بالنسبة للطريق الساحلي الرابط بين أوليل جنوبا ونول لمطة شمالا، حيث يشرب سالكوه من قلات⁵، يرى البكري أنها يحفر عنها عند جزر البحر فيوجد بها الماء العذب⁶، كما أن بئر وانزمين، على طريق تامدلت وأودغست، قريبة الرشاء أيضا⁷.

أما الصنف الآخر من الآبار السحيقة؛ فلا توجد بها المياه إلا بعد حفر بمقدار ثلاث أو أربع قامات عمقا، وتغلب عليها الملوحة، كما أن ما ذكر البكري منها كلها من عمل بني أمية، وتلك خصيصة أخرى تستحق التأمل، ومن هذا الصنف بئر الجمالين التي تمر بها مسالك كلا المحورين (تامدلت -

1 - "المُعَرَّب"، ص 163.

2 - نفسه، ص 157.

3 - نفس المصدر والصفحة.

4 - نفسه، ص 157.

5 - جمع لكلمة القَلْت: وهي "لُقْرَة في الجبل تمسك الماء"، وكذلك "كل نُقْرَة في أرض أو بدن"، لسان العرب، سبق ذكره، المجلد الخامس، مادة "قَلْت".

6 - "المُعَرَّب"، ص 172.

7 - نفسه، ص 157.

أودغست و وادي درعة - بلاد السودان)، حيث يبلغ عمقها أربع قامات¹، وتوجد على مسلك تاملت - أودغست بئر أموية أخرى لم يسماها البكري ولم يحدد طبيعتها، لكن عمقها أيضا أربع قامات²، وآخر الآبار على هذا المسلك هي بئر ويطونان التي يبلغ طولها ثلاث قامات³.

3 - 2 - II - آبار قليلة / غزيرة المياه

هنا أيضا يرشدنا البكري إلى معيار تقييم مهم للآبار الصحراوية يتعلق بمنسوبها المائي، وقد تدرج في الوصف بين عبارات «النزر» و«الكبير» و«الذي لا ينزف» و«العظيم» و«مجتمع الماء»، ولكل واحدة دلالتها في الكثافة، ففي الطريق بين تاملت وأودغست نجد بئرا واحدة فقط وُصِفَت بالنزر وهو ماء تيرقي⁴، في حين أن الآبار الأخرى على ذات المسلك متفاوتة الحجم، فبئر وين هيلون كبيرة⁵، وبئر ويطونان لا ينزف⁶، والتي في حَدِّ بني وارث الصنهاجيين عظيمة⁷، واكتفى بتفسير كلمة «أقرندي» إلى معناها العربي الدال على وفرة المياه وهو «مجتمع الماء»⁸، ومن دلائل ذلك كثرة نباتاته وتنوعها، ولكن البكري لم يحدد لأي تجمع صنهاجي ينتمي هذا «المجتمع» المائي.

3 - II - ملكية الآبار

وبالرغم من أن معظم «آبار البكري» إما أن تكون قديمة من صنع الأمويين - كما قال - أو حفرها المسافرون لأغراض سريعة وآنية، إلا أنه حرص على أن يبين ملكية كل قبيلة لمائها الخاص بها، كنوع من السيادة على المجال، دون أن يحدد طبيعة إدارة هذه القبيلة لمائها، وما إذا كان مشاعا أم حصرا عليها، لكن المؤكد من كلامه أن الماء قد خلق ديناميكية مجالية حددت خريطة توزيع القبائل على المجال الصحراوي، وعليه؛ فإن أبرز الآبار المملوكة هي:

1 - 3 - II - ماء بني يَنْتَسِرْ: وهم قبيل من صنهاجة يقعون على الطريق بين وادي درعة وبلاد السودان، وتبدو الحاجة الماسة لمائهم من كونه يأتي بعد مجابة رمل تقطع في ثمانية أيام⁹، ولعلها التي تسمى عند الشريف الإدريسي مجابة تيسر، وتقع عنده على الطريق بين سلجماسة وغانة، وطولها أربعة عشر يوما¹⁰.

2 - 3 - II - ماء بني لمتونة: موضعه يقترب أهمية من موقع ماء بني ينتسر باعتبار أنه أيضا يوصل عليه بعد قطع مجابة رمل طولها أربعة أيام¹¹، ويوجد في مجالات ظعن واستقرار وتقرّي قبيلة لمتونة الصنهاجية، حيث جبل إيزل، الذي يبلغ طوله مسيرة ستة أيام وعرضه يوما كاملا من السير، ويتصف بكثرة الماء والكلأ¹².

1 - نفسه، ص 156.

2 - نفسه، ص 157.

3 - نفس المصدر والصفحة.

4 - نفسه، ص 156.

5 - نفس المصدر والصفحة.

6 - نفسه، ص 157.

7 - نفس المصدر والصفحة.

8 - نفسه.

9 - "المُغْرِب"، مصدر سابق ص 164.

10 - الشريف الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحموي الحسني، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتاب، بيروت 1989، ج1، ص 18.

11 - "المُغْرِب"، ص 164.

12 - ويسميه جبل لمتونة في موضع آخر، (نفسه) ص 167.

ويلاحظ على البكري في حديثه عن مجالات بني لمتونة نوع من التناقض حين يتكلم من ناحية عن هذا الجبل «الأخضر» المفعم بالحياة الطبيعية ماء وكلاً، ومن ناحية أخرى عن ندرة الماء وشحه عند اللمتونيين¹، مع قلة الحرث والزرع والخبز لديهم²، بما يتنافى والصورة الأولى، ولا نجد من تفسير لذلك سوى مسوغ الحميري الشهير عند كلامه عن مادة أودغست حين لاحظ تناقضا في معلوماته عنها فقال «ولعل ذلك في وقتين مختلفين»³.

3 - 3 - II - ماء بني وارث: يأتي بدوره بعد مجابة رمل طولها خمسة أيام، وقد وصفه البكري بالبئر العظيمة⁴، وربما دلت عبارة «حد بني وارث» على ملكية هذه القبيلة الصنهاجية لهذه البئر لوجودها ضمن حدودها «المفترضة»، والتي، حسب البكري، تأتي في ركن قصي من الصحراء على مشارف بلاد السودان حيث مدينتهم المسماة بانكلايين⁵.

4 - 3 - II - ماذا عن قبيلة جدالة؟ تعد الضلع الثالث من التجمع القبلي المنشئ للدولة المرابطية، لم يذكر لها البكري بئراً أو ماء معيناً، ولأنها تسكن بمحاذاة البحر، «ليس بينها وبينه أحد»⁶، فربما استعملت طريقة شرب مشابهة لتلك المعروفة لدى القوافل المارة على الطريق الساحلي بين أوليل ونول لمطة، حيث اعتماد القلت بدلا من الآبار⁷، خصوصا وأن الأدوار البحرية لهذه القبيلة بقيت راسخة إلى عهد ابن فاطمة الذي مر بمرباعهم في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، واشتروا منه مركبه⁸.

وعلى هذا الأساس يتضح أن ملكية الآبار في صحراء المثلثين قد تماشت مع الخريطة البشرية لسكانتها، فماذا عن استعمالات الماء داخل المجالات؟ وأي شأن له في العمران «الثابت» و«المتحرك»؟

4 - II - الماء والتعمير:

انطلاقاً من المبدأ الذي اعتمده في المقدمة بافتراض وجود نمطين من العمران (البدوي بالمفهوم الخلدوني، الصحراوي بالمعنى المتداول)، أحدهما ساكن والآخر «متحرك»، نجد البكري يبين ذلك بجلاء في «مسالكه»، فأى شأن للماء وأي نوع من الاستعمالات خضع لها في كلا النمطين؟

1 - 4 - II - العمران الثابت

ويتجسد في مجالات سكن القبائل الصحراوية كبني ينتسر ولمتونة وبني وارث، إضافة إلى ما أقاموه من مدن أو حصون، مثل أركى في جبل لمتونة، ومدينة بانكلايين عند بني وارث، فضلا عن أودغست التي ينقل البكري واقعها المزدهر عن محمد بن يوسف الوراق، وفيه تبدو مدينة شبيهة بتلك التي وصفها ابن حوقل في نفس الفترة، نافقة الأسواق، كثيرة الزرع والضرع، متنوعة الشجر

1 - نفسه، ص 170.

2 - نفسه، ص 164.

3 - ابن عبد المنعم الحميري، محمد، كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار (معجم جغرافي)، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، 1984، ص 64.

4 - «المغرب»، ص 157.

5 - نفسه، ص 164.

6 - نفس المصدر والصفحة.

7 - نفسه، ص 172.

8 - ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى، كتاب الجغرافيا، تحقيق: إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1970، ص 112. وإن كان كراتشكوفسكي يفترض أن ابن فاطمة عن عاش قبل ذلك بقرن، (ينظر: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، سبق ذكره، ج1، ص 359).

والثمر، وهنا تتضح لنا الاستعمالات المختلفة للماء في كل نموذج على حدة؛ ففي المجالات السكنية لا يذكر البكري شيئاً عن استخدامات صريحة للماء، ولا نريد هنا أن نطلق من مجرد افتراضات أو مسلمات من قبيل ضرورة الماء الحياتية، لكن بعض التصريحات الواضحة والتلميحات المضمرة للبكري تقيد في هذا المجال، مثل حديثه عن بناء حصن أزكى من يانو بن الحاج، وكان يتوسط غابة بها نحو عشرين ألف نخلة، مما يعني وجود زراعة سقاية في جبل لمتونة كثير الماء والكلأ، ومثل ربطه بين بئر بني وارث العظيمة وبين شجر السفنى كما أسماه (وقد فسره بالإهليلج)2، وإن كان شجره غير مثمر فربما تكون لأوراقه فوائد علاجية لم يبينها البكري بالرغم من خبرته الطيبة في النبات3.

أما في أودغست؛ فيبدو واضحاً تعدد استعمالات الماء، فوجود غلة كبيرة من الحناء، وبساتين نخل مع شجيرات التين يعني حياة فلاحية مزدهرة، ويبدو أنه كان لملوك أودغست وأغنياؤها عناية خاصة بزراعة محلية للقمح استخدم فيها السقي بالدلاء4، ويبدو مهما حرص البكري على ذكر وجود آبار عذبه بأودغست، مما يشي بأنه ربما كانت هناك عدة أنواع من المياه، بعضها للزراعة، وبعضها لسقي الأنعام الكثيرة، وأخرى عذبة للشرب، وكلها إشارات دالة على تنوع استعمال الماء في العمران الحضري «الساكن»، ولا يختلف الأمر كثيراً في العمران «المتحرك».

2 - 4 - II - العمران «المتحرك»

يستعمل الباحث هذا المصطلح هنا استعاضة عن العمران البدوي عند ابن خلدون، ولأن كل عمران الصحراء بدوي كما سبقت الإشارة، فإن العمران «المتحرك» هنا يكاد يطبع تاريخ الصحراء أكثر من الساكن، فطبيعة شعبها التحرك من مكان لآخر، فضلاً عن حركية القوافل العابرة إلى بلاد السودان والقادمة منه، والتي تسبب نشاطها في ازدهار القرصنة وقطع الطرق عند نقاط المياه بالذات، وهنا يكمن شأن الماء في توجيه حركة هذه القوافل من جهة، وتحديد مواقع ترصد القراصنة وقطاع الطرق من جهة أخرى، كما برزت أخيراً ظاهرة الإنتاج المائي التي خلقت نوعاً من القوافل لا تحمل زادا ولا متاعاً للتبادل، وإنما همها العثور على الماء لري السوام، لذلك يتجسد هذا العمران «المتحرك»، وفق منظور البكري، في ثلاث مظهرات رئيسية هي: آبار القوافل، آبار الترصد، وآبار المراتع.

1 - 2 - 4 - II - آبار القوافل: وقد أبان البكري عن صنفين منها، أحدهما يتم حفره من طرف عناصر القافلة (مثل ماء تندفس)5، والآخر يُعثر عليه على ما يبدو بطرق الريّافة المعروفة (كماء أوكازنت)6، ومن خصائص المحفورة أنها إما أن تكون على طريق بري، وهذه ما تلبث أن تنهار وتندفن (ماء تندفس)، وإما أن تكون على طريق ساحلي محاذٍ للبحر، وهذه عرضة لأمواج المد7، وفي كلتا الحالتين يبدو هذا النوع من الآبار وقتياً وظرفياً، ينتهي بانتهاه الشأن الآتي منه، ولا يعول عليه كمورد ثابت.

1 - "المُغْرِب"، ص 167.

2 - نفسه، ص 157.

3 - حسين مؤنس، تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس، (سبق ذكره)، ص 123.

4 - "المُغْرِب"، ص 158.

5 - "المُغْرِب"، ص 156.

6 - نفسه، ص 157.

7 - نفسه، ص 172.

2 - 2 - 4 - II - آبار الترمذ: وهي المواضع التي يقصدها قطاع الطرق لعلمهم بإفشاء القوافل إليها طلبا للماء، وتعطر بئر وانزمين الأشهر على المسلك الرابط بين تاملت وأودغست، فهذه البئر تبدو ذات موقع استراتيجي مهم، فهي ملتقى طرق بلاد السودان، آبارها قريبة الرشاء، وماؤها منه العذب (للشرب) و الشريب (للقافلة)، وهي خصائص جعلته ممرا شبه إجباري لمختلف الرفاق، الأمر الذي حدا بقبيلتي لمطة وجزولة للإغارة على السابلة التي تقصدها¹. وعلى ذات المسلك لا يبدو مستغربا أن تجعل بعض قبائل السودان من جبل أزجوانان مرصدا للقوافل العابرة له، خصوصا بعد تجاوزها «مجتمع المياه» الذي يسبق هذا الجبل بقليل².

3 - 2 - 4 - II - آبار المراتع: وهي صنف من الآبار يبدو أنه مخصص للأنعام نظرا لملوحته، وقد أكد البكري أن «كل ماء صالح موافق للإبل»³، ومع كثرة وتعدد الآبار المالحة في الصحراء تتعدد المراتع المائية بها، خصوصا مع الوفرة الكبيرة للإبل لدى المثلثين، حتى أن إحدى سيدات المجتمع الصنهاجي كانت تملك وحدها ألفا وخمسمائة رأس منها⁴. وقد نص البكري تحديدا على مرتعين مائيين في الطريق بين تاملت وأودغست، أولهما بئر الجَمَّالين في بداية هذا المسلك⁵، وربما كانت لتسميته دلالة على استخدامه لهذا الغرض، أما الآخر فيسمى ماء «أغرف»، ويبدو أنه يُقصد لخصائصه العلاجية أيضا، فضلا عن كونه مرتعا مائيا، حيث تدل عبارة البكري من أنه ترده «أذواد لصنهاجة فتصلح عليه وتصح به»⁶، على شيء من هذا القبيل.

الخاتمة

لقد استعرض لنا الجغرافي الأندلسي أبو عبيد البكري فسيفساء متنوعة من الآبار، تعددت مهماتها بقدر تعدد أنواعها، مما يسمح بتحديد ملامح الخريطة العمرانية للصحراء ومتساكنيها وفق أماكن توزع هذه الآبار، فما كان منها في حد معين تملكته قبيلة ما، لتجعل منه نواة لعمران ساكن، وما كان منه متفرقا في المسالك وعلى طول الطرقات اختلفت عليه مختلف تشكيلات العمران «المتحرك» لتجعل منه نقطة توقف أو ارتواء أو ترصد، فإلى أي جهة يجب أن تتوجه أنظار الأتريين وهم يبحثون عن بقايا الماضي العمراني لصحراء المثلثين؟ وكيف يستفيد منه الناس اليوم؟

1 - نفسه، ص 157.

2 - نفس المصدر والصفحة.

3 - نفسه.

4 - ابن حوقل النصيبي، أبو القاسم، كتاب صورة الأرض، الطبعة الثانية، بريل - ليدن 1938، ص 98.

5 - «المُعَرَّب»، ص 156.

6 - نفسه، ص 156.

البعد البيئي في المخططات الحضرية لمدينة نواكشوط

محمد عبد الرحمن صالح

باحث في سلك الدكتوراه بكلية الآداب
والعلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة ابن طفيل - القنيطرة - المغرب



الملخص: يروم ها المقال واحدة من أهم القضايا العالمية المطروحة على الساحة المحلية والدولية، فالمسألة البيئية لم تعد مسألة محلية فقط، بل إن تداعياتها، وتأثيراتها تطال العالم بأسره، لذلك فإن الاهتمام بها، ووضعها في أولوية السياسات الحضرية، بات أمرا ملحا، أكثر من ذي قبل. حقيقة أصبح القائمون على الشأن الحضري في موريتانيا يقدرونها، ولو بعد حين، لذلك أصبح إدراج البعد البيئي في أغلب النشاطات البشرية، الموجهة للإنسان، حاضرة، ومنها المخططات التوجيهية لمدينة نواكشوط، التي أصبحت البيئة فيها مطلبا ملحا لابد من إدراجه ضمن هذه المخططات. **الكلمات المفتاح:** البعد البيئي، المخططات التوجيهية، مدينة نواكشوط

مقدمة:

يشكل الاهتمام بالبيئة والتنمية المستدامة أحد الانشغالات العالمية الكبرى، وذلك نظرا لما لها من أهمية في حياة البشر، وما إعلان ستوكهولم سنة 1972 وإعلان (ريو) (Rio) بالبرازيل سنة 1992 إلا تأكيدا لذلك الاهتمام المتزايد بالبيئة، ولما كان الأمر كذلك فإن أهمية البيئة وخلق الوعي المتزايد بها جعل أصحاب القرار والمشرعون يحرصون على إعطائها أهمية خاصة، كونها ظاهرة عالمية، تحظى باهتمام دولي.

لقد بات من الضروري إيجاد نوع من التناغم بين النشاط العمراني، ومشاريع التهيئة من جهة، وتزايد الوعي البيئي، والتنمية المستدامة من جهة أخرى، مسألة أصبح المشرع الموريتاني على دراية تامة

بها وأصبح إدراج البعد البيئي في المخططات التوجيهية، أمراً محسوماً وذو أهمية بالغة بالنسبة له. فكيف كان حضور البيئة في المخططات التوجيهية لمدينة نواكشوط؟ وما مدى احترام هذه المخططات للبيئة كركيزة من ركائز التنمية المستدامة؟

الإشكالية:

يعد موضوع البيئة من مواضيع الساعة، نظراً لاهتمام المنظومة الدولية به، ولكونه يشكل خطراً على الإنسان إذا لم تم معالجته، ووضعها في السياسات العمرانية التي تتحكم في المدن وتسيرها، وقد حاولنا في هذا المقال الاستفسار عن مدى حضور البعد البيئي في مخططات مدينة نواكشوط، وذلك لكون هذه المدينة تعاني من وسط بيئي هش، فهي مهددة بالغرق، بسبب تآكل شريطها الساحلي، من جهة وزحف الرمال على مناطقها الشرقية من جهة أخرى، إضافة إلى نسيجها العمراني الفوضوي، وما يخلفه من آثار على المجال تحتم على واضعي المخططات وضع تصور وحلول بيئية للمدينة التي باتت تعاني في بيئتها أكثر من أي وقت مضى. المنهجية:

من أجل الإجابة على التساؤلات المطروحة اعتمدنا على المنهج الوصفي التحليلي، للإشكالية المطروحة، وذلك لن يتأتى إلا بالاعتماد على العمل الجيولوجي الجغرافي، باعتباره هو المصدر المطابق لاشكاليتنا.

المحور الأول: المخططات التوجيهية لمدينة نواكشوط:

تكمن أهمية إنشاء مخططات صديقة للبيئة، في المبادئ التي تعتمد عليها، كاحترام الهوية والطابع المحلي أثناء عمليتي التصميم والتنفيذ، وذلك باستعمال أنماط و تشكلات معمارية تصون التراث والموروث التقليدي، وتوفير العناصر الجمالية، التي تتوافق مع المناخ المتوقع، واستخدام المساحات الخضراء لتخفيض معدلات التلوث وتنقية الهواء.

وتعتبر المخططات الحضرية (وثائق التعمير) هي الأدوات المناسبة لإدماج الانشغالات البيئية في السياسة العمرانية، انطلاقاً من خضوعها لمنطق التعمير الوقائي، الذي يستهدف في المقام الأول توقع واستنزاف الصورة المستقبلية للتجمعات السكنية، والعمرانية، بما يكفل وقاية مسبقة ضد المخاطر المحتملة بالبيئة، فكيف كان حضور البيئة في مخططات نواكشوط؟

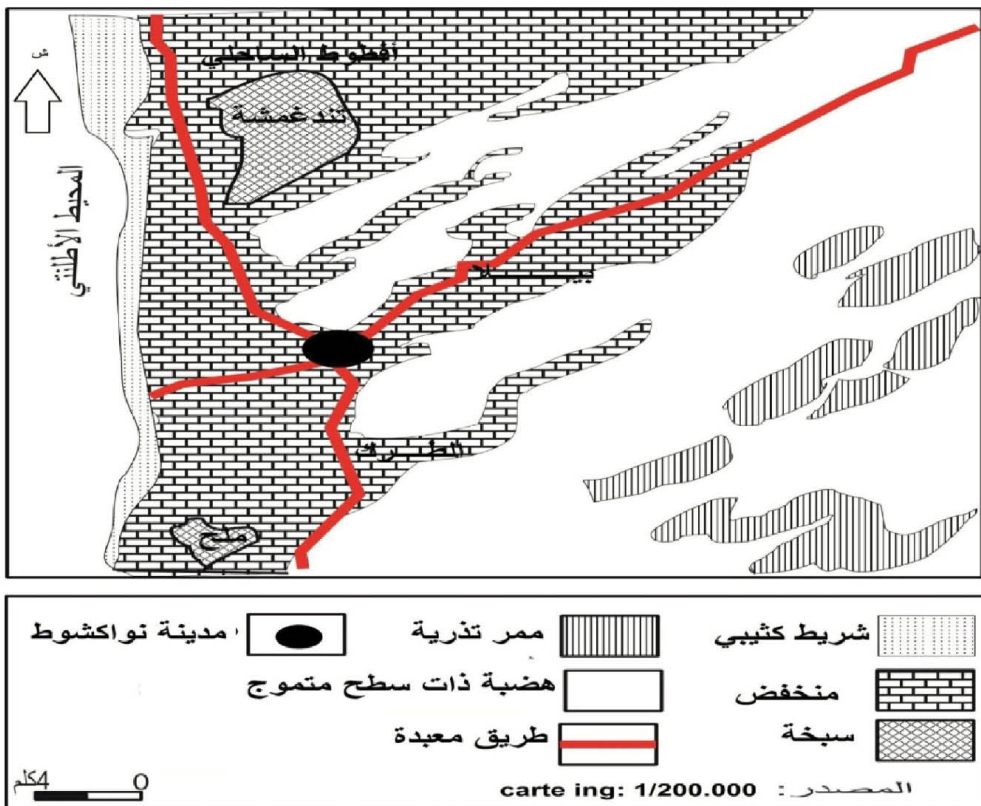
قبل الحديث عن هذه المخططات نشير إلى مدينة نواكشوط نشأت تعاني من بعض المشاكل والضغوط البيئية الحرجة، حيث تم إنشائها في وسط بيئي هش، و يتميز بمخاطر طبيعية متعددة1 فالمدينة محاطة من الناحية الشرقية بالكثبان الرملية، ويحدها من الغرب شريط ساحلي ضعيف (آفطوط الساحلي)، ومنخفض مالحي، عبارة عن مجموعة من السباح، مما أهلها أن تكون مدينة محاصرة،2 ومهددة بزحف الرمال من الشرق والملوحة والغمر من الغرب.

1- مجموعة نواكشوط الحضرية، الو رشات الدولية حول ربوبية الإشراف على العمل الحضري، نواكشوط 26 ابريل

2014 ، ص 17

2- Agence de Développement Urbain ; ADU. Schéma directeur D'aménagement Urbain. Nouakchott ;

Novembre ; 2002 ; p 2



أولاً: المخططات الحضرية إبان نشأة المدينة:

1- مخطط موراك (MOURAGUES) مارس 1957

نشأت مدينة في ظروف جيو سياسية خاصة، حيث تم نقل العاصمة الجديدة لموريتانيا، من مدينة سينلوي السنغالية عام 1957م، والتي كانت تدار منها مستعمرات إفريقيا الغربية، هذا القرار بشأن نقل العاصمة إلى نواكشوط، صاحبه إنشاء للمدينة من جديد، وعلى عجل، فكانت بداياتها تشهد نوعاً من التعثر والاختلالات، بما فيها وضع مخطط لها.

في إطار توجيهي إلى ميدان التحضر قام الوالي الفرنسي آن ذاك، موراك (MOURAGUES) بإعداد مخطط حضري، وهو مخطط أولي بسيط، مسود على ورقة بيضاء، وينم عن السرعة في إيجاد العاصمة، حيث اعتمد الوالي على نفسه في إعداده، ولم يلجأ إلى خدمات مهندس معماري متخصص في التحضر، ولقد كان لهذا المخطط ميزات إيجابية وأخرى سلبية حيث ظهرت إيجابيته من خلال كون هذه الخطة تلائم كثيراً طبوغرافية نواكشوط، ويعتبر إنجازها سهلاً واقتصادياً للأرض، أما سلبياته فكثيرة حيث غاب عن تصور موراك المحوران العموديان اللذان عملا قيمة لهذه الخطة الشطرنجية طريقان كبيران متعامدان يلتقيان في قلب المدينة وهما « الكارد » وهو شارع يربط الباب الشمالي بالباب الجنوبي، و« الديكومانوس » وهو شارع يربط الباب الشرقي بالباب الغربي، كما أن هذه الخطة لم تعط الاعتبار للمشاكل التي تواجه حركة مرور السيارات في المدينة، لوجود الشوارع المعتمدة وما يتبع ذلك من توقف مستمر لحركة المرور، كما أنه لا يعطي أولوية لاتجاه الرياح، وخاصة في منطقة صحراوية، كما أن تفكير الوالي اتجه إلى أن مدينة نواكشوط لا

يمكن أن تكون إلا مدينة إدارية بسيطة وذلك لأن التمويل الذي أعطته فرنسا لإنشائها لا يسمح بأكثر من ذلك¹.

الصورة رقم 1-- منظر جوي لشكل مدينة نواكشوط سنة 1965



2- مشروع هرش (HIRSH) ابريل 1957

أمام عدم الدقة والطابع البدائي لمخطط الوالي موراك، قام مدير الأشغال العامة في موريتانيا السيد هرش، في ابريل سنة 1957، بإعداد مخطط أكثر تلاءما مع طبوغرافية المنطقة، مع أنه كان مجملا للغاية، فكل جنوب الهضبة الرملية الواقعة غرب حي (لكصر)، والتي اقترح أن تكون مكانا للعاصمة مشغول والطريق على الطرف يتعامد مع الحافة، ومع محور كبير يمتد من الشرق إلى الغرب يعبر المدينة ويوصل طريق روصو - أكجوجت بطريق نواكشوط - كبولاني، والمنشآت وكذا حي سكني، وبجانب الهضبة حرص على ريع مساحة للتهوئة، تعطي نظرة جميلة تطل على البحر بمسافة 5 كم من الموضع وفي وسط المدينة تقام ثكنة عسكرية، ودار للبلدية وكنيسة، وتبين هنا نسخة طبق الأصل من مدينة سنلوي السنغالية العاصمة القديمة للمستعمرة الفرنسية. وفي الشرق تجتمع الأنشطة التجارية مع فندق ومعسكر للجيش، وحافة الهضبة الرملية معتبرة كنهائية مطلقة لتوسع المدينة، ويعتقد «هرش» أيضا أن مدينة نواكشوط ستظل مدينة إدارية بسيطة بدون احتمال أي تزايد سكاني أو سكني، ولكن خلال الأشهر الموالية وعند التمعن في تفاصيل المخطط ودراسته تم إجراء تغيير فيه وذلك بالأمر القانوني المفصل للمخططات الحضرية.

1 - - هند منت أشبيه، السكن والإسكان في موريتانيا، أنموذج تخطيط الأحياء العشوائية في مدينة نواكشوط، بحث لنيل شهادة الماستر في علم الاجتماع شعبة الفلسفة وعلم الاجتماع، مقدمة إلى جامعة نواكشوط العصرية، سنة 2016-2017، ص 43

مخطط هيرش

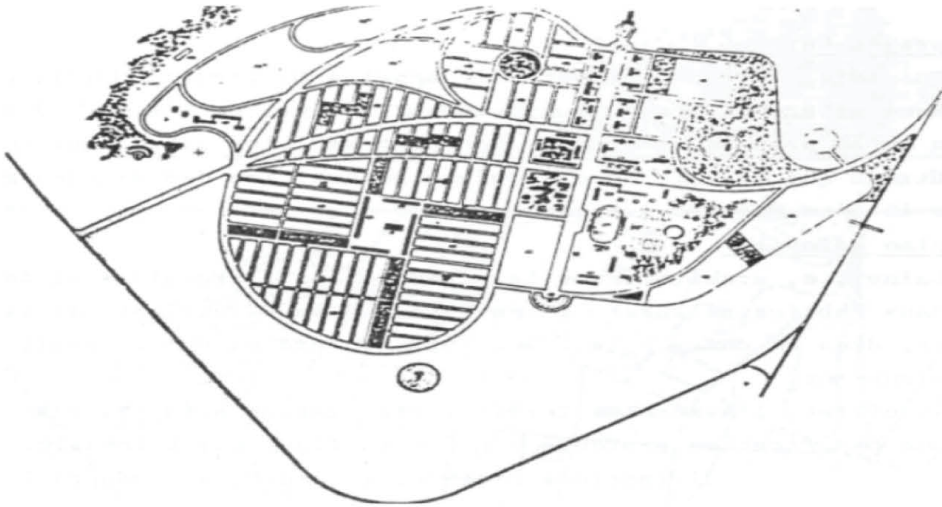


المصدر: مجموعة نواكشوط الحضرية

3- مشروع سيرتي مارس 1957

استدعت الحكومة الموريتانية حينها السيد « سيرتي » الحائز على جائزة روما للتعمير وهو مهندس معماري معتمد من لدن الحكومة الفيدرالية في دكار، وذلك من أجل أن يقدم مقترح مشروع مخطط أكثر دقة من مشروع مخطط هرش السابق، الذي لم يكن سوى توزيع الكتل البشرية الكبيرة، إلا أنه في الأخير اعتمد عليه بصورة كبيرة كما يوضح الشكل. فالطريق الرئيسي لنصف المدينة يفصل بين الحي الإداري والأحياء السكنية الأخرى في المدينة. والتي تنتشر في الجنوب وحتى نهاية الهضبة هذا مع احتمال إمكانية امتداد المدينة شمالا، وإبداع منطقتين جديدتين هما: منطقة صناعية صغيرة ومنطقة استجمامية (بحيرة في شرق المدينة)، والشكل يوضح المشروع النهائي، وبصفة خاصة اعتبر السوق مبدئيا ضمن وسط المدينة محاطا بالمسجد وهذا ما يعبر عن الوسيلة الأفضل لخدمة السكان، وإمكانية إبعاد التزاحم عن المركز الإداري وكذلك السكني.

مخطط سيرتي



المصدر: مجموعة نواكشوط الحضرية

4- المخطط التوجيهي للتهيئة الحضرية لمدينة نواكشوط

صمم هذا المخطط على تغطية فترتين (أفقين)، أولاهما تمتد إلى سنة 2010 والثانية تمتد إلى 2020 وتبنى إسقاطا لسكان يوصلهم إلى 8.85.000 نسمة، سنة 2010 وإلى 1.250.000 سنة 2020 بنسبة زيادة سنوية تبلغ 4.7 % خلال المدة الأولى، و3.5 % خلال المدة الثانية %، وتم انجازه من طرف وكالة التنمية الحضرية، في إطار التوجهات الجديدة لسياسة التنمية الحضرية، والهادفة إلى رد الاعتبار للمجال الحضري، والتخلي عن أشكال النمو الفوضوي الذي طبع هذه المدينة خلال الفترات السابقة.

لقد جاء هذا المخطط الذي تمت المصادقة عليه وفقا للمرسوم رقم 013 / 2003 ، ليشكل إطارا مرجعيا للنمو المستقبلي لمدينة نواكشوط، متجاوزا بذلك المعوقات التي أدت إلى فشل المخططات السابقة سواء من حيث سوء التقديرات والافتراضات، أو أنماط الممارسات التي أدت إلى اشتداد الأزمات الحضرية بالمدينة، وهكذا انطلق من ضرورة الإسراع في تنفيذ بعض الإجراءات الضرورية لإنجاحه، وخلق مناخ دائم لوضع ضوابط ومرجعيات عمرانية تمكن من تنظيم المدينة وتسييرها وفقا للمبادئ الأربعة التي وضعها.

لقد تم التوقيع على هذا المخطط من طرف الوزارات المعنية في 22 مارس 2003. (2) واعتمادا على تشخيصه للوضعية السابقة لمدينة نواكشوط، والمراحل الحضرية التي مرت بها خلال نموها، تقدم بإطار للتدخل من شأنه أن يمكن السلطات العمرانية من إعادة التحكم في رقابة النمو العمراني للمدينة. ومن الطبيعي في الوقت الذي أنشئت فيه مؤسسات عمومية جديدة خاصة بالتخطيط الحضري (المجموعة الحضرية، وكالة التنمية الحضرية)، أن تتخذ بعض الإجراءات لضمان رقابة صارمة على المجال الحضري في المستقبل لتلافي بروز أحياء جديدة تتميز بنفس الخصائص التي تتميز بها الأحياء الفوضوية القديمة، في الوقت الذي يعاد فيه تنظيم هذه الأحياء بتكلفة باهظة. وقد اعتمد هذا المخطط على أربع توجهات بدونها لا يمكن الوصول إلى أي تحسن في تطور التخطيط الحضري حسب تصوره، أهمها:

أولا- التوقف عن الممارسات العقارية السائدة

إن هذا التوجه يوحى بتبني إرادة صارمة في إطار القطيعة مع الممارسات العقارية السابقة التي ستؤثر مخلفاتها على تنمية المدينة لسنين قادمة، لأن عدم التخلص من رواسب الماضي هو الذي ساهم في إيجاد ظروف عيش لا تتماشى مع النمط الحضري. ولأن العديد من المواطنين أصبحوا مستعدين للمساهمة المنتظمة في اتخاذ القرار المتعلق بشؤونهم اليومية، فقد أصبح من الممكن تغيير الممارسات الاستيلائية التي ينتهجها هؤلاء السكان في إطار الحصول على قطع أرضية غير مهيأة للسكن أصلا، كما أن تغيير الممارسات العقارية يمكن تقبله من الناحية الاجتماعية والاقتصادية. (3)

ثانيا- إدراج العوائق البيئية للمدينة

لم يسبق لمدينة نواكشوط أن حظيت بإدراج البعد البيئي لها على الإطلاق، في أي مخطط حضري يستهدفها، على الرغم من أن الدولة الموريتانية وضعت قانونا للبيئة،⁴ يوصي في مادته الثالثة

1- محمد بياه بن محمد ناصر، أطروحة دكتوراه دولة، من أزمة البادية إلى التحضر الفوضوي في موريتانيا، جامعة محمد الخامس - الرباط، 2006-2007، ص 288

2- وكالة التنمية الحضرية، المخطط التوجيهي لمدينة نواكشوط أفق، 2010، 2020، مرجع سابق، ص 25.

3- وكالة التنمية الحضرية، مرجع سبق، ص 28.

4- قانون، رقم 045، 2000، صادر تاريخ 26، يوليو، سنة 2000، وهو القانون الاطار للبيئة

بتوفيق التنمية مع حماية الوسط الطبيعي، ولعل السبب في عدم إدراجها، كما أشرنا إليه سابقا، من خلال تعرضنا للمخططات الأولى للعاصمة، غير أن المخطط التوجيهي للتهيئة الحضرية للمدينة أشار بالصريح إلا ضرورة إدراج العوائق البيئية لها، بحيث أن المدينة أصبحت تعاني من بعض التحديات البيئية، التي لم يعد السكوت عنها ووضعها ضمن الخطط التنموية للمدينة مقبولا. حيث أن مدينة نواكشوط تقع في وسط بيئي هش، نتيجة للتغيرات المناخية، وعوامل التعرية الهوائية القوية والبحرية أحيانا، فهذه العناصر الطبيعية بالإضافة إلى تلك الناجمة عن النشاط البشري يجب أن توجه ويتم التحكم فيها من أجل التنمية المستقبلية للمدينة.

ثالثا- توضيح صلاحيات الباحثين

إن القرارات المتعلقة بالتخطيط الحضري متعددة الأبعاد، مما يؤدي إلى التباطؤ في عملية توزيع المشاريع الحضرية. ولتبسيط الإجراءات فقد تم إنشاء إدارات جديدة إضافة إلى تلك السابقة ويتعلق الأمر بـ:

- مجموعة نواكشوط الحضرية: وهي مؤسسة عمومية للتنسيق بين بلديات المدينة أنشئت في يوليو 2001، لتجمع بلديات نواكشوط التسع.
- وكالة التنمية الحضرية: تم إنشاؤها سنة 2001، في إطار تنفيذ مشروع التنمية الحضرية.
- كما أن إنشاء وثيقة حضرية كالمخطط التوجيهي للتهيئة الحضرية لمدينة نواكشوط، ومتابعة تطبيقها تتطلب معرفة كاملة ومستمرة لتطور المدينة. وبالمناسبة فقد تم إنشاء مرصد للمدينة يعهد إليه بجمع المعطيات المنتجة من طرف مختلف الهيئات العاملة في العاصمة لمتابعة ومراقبة النمو المجالي للمدينة.

المحور الثاني:

البعد البيئي في المخططات التوجيهية:

اعتما على ما تعرضنا له من خلال مخططات مدينة نواكشوط فإن البعد البيئي في هذه المخططات ظل غائبا، إلى وقت قريب، حيث نلاحظ أن المخطط الوحيد الذي أدرج البعد البيئي للمدينة هو المخطط التوجيهي للتهيئة والتعمير، أفق 2010 و 2020، وذلك عندما أدرج وبشكل واضح البيئة في مبدئه الثاني، حيث اعتبر أن مدينة نواكشوط لديها من هشاشة الوسط الطبيعي ما يجعلها، تحظى باهتمام خاص، وهي أور الخطوات في مجال الاهتمام بالبيئية من زاوية المخططات الحضرية. المحور الثالث: تحديات الاستدامة الحضرية لمدينة نواكشوط:

تتطلب نظم التخطيط الحضري المستقبلية التنفيذ ضمن سياق ينطوي على إدراك تام لمختلف العوامل التي تساهم في تشكيل الجوانب الاجتماعية والعمرانية في المدن، إلى جانب إدراك الهياكل المؤسسية التي تسعى لإدارتها. كما تتطلب تلك النظم أيضا إدراك كلا من التحديات الديموغرافية، والسوسيو اقتصادية والبيئية الهامة والتي تلوح في الأفق القريبة¹.

1- Ibrahim Thiaw1 Environnement et développement durable en Mauritanie: défis et opportunités
Conférence organisée par le Collectif des Cadres Mauritaniens de l'Etranger, Animée Nouakchott, 26
Décembre 2019.p4 <https://www.climate-chance.org/cas-etude/nouakchott-mauritanie-adaptation>

1 - تحديات النمو الديموغرافي:

يعتبر النمو الديموغرافي من العناصر التي تؤثر على عملية التمدين، وذلك من خلال تزايد البطالة على الحاجيات الأساسية، وخاصة الشغل، والسكن، وقد عرفت مدينة نواكشوط تحديات اجتماعية كثيرة خلا السنوات الماضية، كالبطالة، والأمية، والهشاشة الاجتماعية، وضعف الاندماج الحضري بين الأحياء، بسبب الانقطاع المجالي، داخل المدينة، وتدهور النسيج العمراني، بسبب انتشار الأحياء العشوائية، وهذا كله راجع إلى النمو الديموغرافي السريع الذي عرفته المدينة، حيث انتقل عدد سكانها من إلى 134704 سنة 1977، إلى 958399 سنة 2013.

الجدول رقم 1 يوضح تطور سكان مدينة نواكشوط خلال تعدادات مختلفة

التعداد	عدد السكان	%
1977	134704	10
1988	393325	20
2000	558195	22.2

-المكتب الوطني للإحصاء - 2013RGPH

2 - التحدي السوسيو اقتصادي:

تعرف مدينة نواكشوط تحديات اجتماعية كثيرة كالبطالة التي تصل نسبتها حوالي 30%، والأمية بنسبة 40% 2، والهشاشة الاجتماعية وضعف الاندماج الحضري بين الأحياء بسبب تدهور النسيج العمراني للمدينة بسبب الأحياء العشوائية. كما أن غياب وحدات صناعية متعددة كفيلة بالتشغيل، وخلق الثروة، يعتبر من التحديات التي يجب العمل على رفعها، وذلك بالاعتماد على الاقتصاد الأخضر القليل التكلفة والمدر للدخل.

خاتمة:

في ظل التردّي الذي أصبحت تعيشه المدن بشكل عام، ومدينة نواكشوط بشكل خاص، أصبحت مسألة رد الاعتبار لهذه المدن أمرا واردا، وخاصة في بعدها البيئي، الذي أصبح يطرح نفسه بالحاح على القائمين على تدبير الشأن الحضري، وذلك لإدماجه ضمن أي خطة، أو دراسة تستهدف المدينة. فمدينة نواكشوط وكما رأينا، لم تكن تحظى بالاهتمام الكافي في بعدها البيئي، ضمن المخططات التي وضعت لها، بل إنها لم تتعرض له على الإطلاق، وخصوصا مخططات نشأة المدينة، بل عن المخطط الوحيد الذي أشار إلى ضرورة إدراج عوائقها البيئية، هو المخطط التوجيهي للتهيئة الحضرية، هذا الانتباه الجديد إلى البعد البيئي للمدينة وإن كان متأخرا، إلا أنه يوحى بتوجه من أصحاب القرار، والقائمين على الشأن الحضري، بضرورة إدماج المسألة البيئية للمدينة في كل خطة تنموية تستهدفها، فالمدينة لديها من التحديات البيئية، ما يهدد وجودها كيان، نتيجة تغيرات مناخية، وتجاوزات بشرية، إضافة موقع جغرافي جعلها محصورة بين البحر، والصحراء.

1- المركز الديمقراطي العربي، آفاق استدامة وتخطيط المدن، - مقاربات وتجارب، كتاب دولي محكم، عزيز الصبري، مليكة المعقلي: المدينة المغربية: تحديات واستراتيجيات الاستدامة الحضرية، حالة مدينة سطات، 2020، ص 22

2- المركز الموريتاني لتحليل السياسات، " الأمية في موريتانيا التشخيص والتوجهات الاستراتيجية"، تقرير مؤقت، نوفمبر، 2004، ص4

المراجع المعتمدة:

مراجع عربية عامة:

وكالة التنمية الحضرية، المخطط التوجيهي لمدينة، نواكشوط أفق، 2010، و 2020
هند بنت أشبيه، السكن والإسكان في موريتانيا، أنموذج تخطيط الأحياء العشوائية في مدينة
نواكشوط، 2016-2017
المكتب الوطني للإحصاء
المركز الموريتاني لتحليل السياسات، «الأمية في موريتانيا التشخيص والتوجهات الاستراتيجية»،
تقرير مؤقت، نوفمبر، 2004
المركز الديمقراطي العربي، آفاق استدامة وتخطيط المدن، - مقاربات وتجارب، كتاب دولي محكم،
2020
محمد بياه بن محمد ناصر، أطروحة دكتوراه دولة، من أزمة البادية إلى التحضر الفوضوي في
موريتانيا، جامعة محمد الخامس - الرباط، 2006-2007
مجموعة نواكشوط الحضرية، 2014
قانون البيئة الموريتانية

مراجع أجنبية:

9-Agence de Développement Urbain.(ADU(Novembre 2002

Site internet :

<https://www.climate-chance.org/cas-etude/nouakchott-mauritanie-adaptation/>

الفكر الصوفي عند العلامة الشيخ محمد المامي (ت 2821هـ)

من خلال شعره الفصيح
والحساني

أحمد بزيد بآرك الله

باحث بمسلك الدكتوراه
مؤسسة دار الحديث الحسنية بالرباط (المغرب)



تروم هذه الورقة الكشف عن بعض ملامح الفكر الصوفي ومعالمه في تراث العلامة الباركي الشيخ محمد المامي بن البخاري (ت 1282 هـ / 1861م)، وذلك عبر استنطاق بعض نصوصه الشعرية بنوعها الفصيح والشعبي، في ديوانيه العربي والحساني. وينتظم تناولي للموضوع ضمن محورين رئيسيين: يُعرف الأول بشخصية الشيخ محمد المامي وآثاره العلمية، و يركز الثاني على تراثه الصوفي الموثوث في شعره، متأملا قيمه الروحية ومُستجليا مضامينه العرفانية و أبعاده الإيمانية المنبثقة من معين التصوف والمعرفة الربانية، ومستوقفا الإشارات التاريخية و الأدبية والروحية والعلمية التي يحبل بها.

المحور الأول:

العلامة الشيخ محمد المامي حياته وآثاه العلمية

المطلب الأول: نسبه وبيئته العلمية

هو الشيخ محمد المامي بن البخاري بن حبيب الله بن بآرك الله فيه، واسمه المختار- وهو الجد الجامع لقبيلة أهل بآرك الله- بن أحمد أبي زيد بن يعقوب بن أبي يعلى (أبيال) بن عامر أبي يعلى بن أبي هندام (أبهنضام) 2.

1 - قبيلة زاوية عريقة استمدت اسمها من جدها الجامع بآرك الله بن أحمد بزيد، وينتهي نسبها إلى جعفر بن أبي طالب، أسهمت بقسط وافر في تدمير منطقة تيرس وأردار سطف ونـاجير باقليم أوسرد، وذلك عن طريق حفر الآبار وتشبيد المدارس العلمية العتيقة المعروفة بالمحاضر المتنقلة مع مضارب البدو، كما أنجبت مجموعة من العلماء والصلحاء ورجال السياسة والعالمات المدرسات، ومن أشهرهم: العلامة القاضي سيدي عبد الله بن الفاضل المتوفى سنة 1209هـ، والعلامة المؤرخ الأديب محمد عبدالله بن البخاري بن الفلاي، والعلامة الولي الصالح الشيخ محمد المامي بن البخاري المتوفى سنة 1282 هـ، و الولاية الصالحة مريم بنت أحمد بزيد التي عرفت بدينها وعلمها وتصوفها، و تصنف أول أدبية في المجال البيطاني. راجع في التعريف بهذه القبيلة وأعلامها وإشعاعها: معلمة المغرب (نشر دار الأمان الرباط. ط الأولى 2014)، ج 26 الملحق 3 ص 83. و انظر كذلك كتاب: قبائل الصحراء المغربية: أصولها جهادها وثقافتها للدكتور حمداني شبيها ماء العينين: ص 171 - 173.

2 - وهو خامس الخمسة المعروفين بتشمشة: يطلق هذا الاسم على مجموعة من القبائل المنحدرة من خمسة رجال

وُلِدَ مطلع القرن الثالث عشر الهجري¹ في تيرس²، و نشأ في وسط علمي يطبعه الصلاح والاستقامة، فوالده البخاري كان رجلا صالحا صاحب كرامات، وقد عرف جد قبيلته "بارك الله" بالصلاح والاستقامة³، وينتهي نسبه إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب⁴، وأم أبناء عبد الله بن جعفر بن أبي طالب هي زينب بنت علي بن أبي طالب وأُمها فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، لذلك فإن ذريتها تعرف بالزيبين⁵. يقول الشيخ محمد المامي، في شأن النسب الجعفري لأهل برك الله: ورثتم جدودا من جدود رواجح إلى جعفر الطيار حلو الشمائل⁶. ويقول العلامة الباركي محمد عبد الله بن البخاري بن الفلالي⁷: من علي وأخيه جعفر ————— قرني المجد فخرنا من غمط قد نمتنا زينب بنت علي لرسول الله مردي من قسط⁸ نشأ الشيخ محمد المامي في فضاء اجتماعي عرف باهتماماته العلمية و اشتغاله الدائم بالمعرفة تدريسا وتلقينا و تألفيا وتدوينا، وتأثر كثيرا بمحيطة الأسري العلمي خصوصا خاله العلامة سيدي عبد الله بن الفاضل⁹، الذي ترعرع في حضنه وكان له نصيب الأسد في كفالاته العلمية، كان أحد

انطلقوا من تارودانت في سوس، جنوب المغرب، واستقروا أواخر القرن السابع الهجري بتيرس (الصحراء)، وأسسوا حلفا سموه حلف "تشمش"، و هي اشتقاق لكلمة صنهاجية "شمش" بمعنى الخمسة. انظر نصوص من التاريخ الموريتاني للشيخ محمد البدالي - تحقيق وتقديم محمد ولد باباه - المكتبة الثقافية المغاربية - بيت الحكمة - قرطاج تونس 1990 ص 57

1 - نجد اختلافا واسعا بين المصادر التاريخية في تحديد سنة مولده: قيل سنة 1200 وقيل: سنة 1204 وقيل: سنة 1206. وهذا أمر ليس غريبا على مجتمع بدوي لا يولي أهمية لتدوين تواريخ مواليد، فضلا عن أنه يعتمد الحفظ والمشاهدة أكثر من حرصه على التدوين وذلك راجع لطبيعة الترحال والتنقل التي تقتضيها الظروف الرعوية للمجتمع البدوي. انظر كتاب البادية (ضمن مجموعة من مؤلفات الشيخ محمد المامي الشمشوي اليعقوبي الباركي، تقرير مجموعة من العلماء، نشر زاوية الشيخ محمد المامي، الطبعة الأولى 1428 هـ/ 2007 م) ص 9.

2 - اختلفت الروايات حول المكان الذي ولد فيه الشيخ محمد المامي فنجد في هذا السياق أربع مناطق هي: "أشكك لعظام" و"نشل" و"أوسرد" و"أرش عمر". انظر: كتاب صداق القواعد للشيخ محمد المامي (نشر زاوية الشيخ محمد المامي، الطبعة الأولى، سنة 2010) ص 9.

3 - معلمة المغرب المجلد 26 ملحق 3 ص 85

4 - وهذا النسب محل إجماع عند علماء الأنساب مثل المجبدي بن حبيب الله (المتوفى فيما بين 1787 و 1791 م) في منظومته أنساب بني يعقوب الجامع، وكذلك العلامة محمد صالح بن عبد الوهاب الناصري (المتوفى 1853م) في كتابه الحسوة البيسانية في الأنساب الحسانية وأحمد بن خالد لناصر في كتابه "طلعة المشتري في النسب الجعفري". انظر كتاب نصوص من التاريخ الموريتاني للشيخ محمد البدالي، تحقيق وتقديم محمد ولد باباه (المكتبة الثقافية المغاربية بيت الحكمة - قرطاج تونس 1990) ص 91.

5 - انظر معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، لمؤلفه عمر رضا كحالة ج 2 ص 493، و نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب لأبي العباس أحمد بن علي: ج 2 ص 360.

6 - انظر ديوان الشيخ محمد المامي (نشر زاوية الشيخ محمد المامي، ط الثانية، 2014 / انواكشوط/موريتانيا) ص

437

7 - محمد عبدالله بن البخاري بن الفلالي بن أحمد مسكه بن برك الله، حفظ القرآن الكريم ودرس العلوم الشرعية على والده، ثم اتصل بمحمد بن سيد محمد التيشيتي فدرس عليه بعض المتون في الفقه، ثم تتلمذ على أحمد بن الطلبة فأخذ عنه الشعر الجاهلي والإسلامي. له كتاب: «الحياة العمرانية»، و له ديوان جمع وتحقيق الباحث سيد محمد بن محمد سدينا - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة نواكشوط 1996. انظر ترجمته في معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين الاسع عشر والعشرين، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري 2008 م (على الموقع الالكتروني <http://www.almoajam.org>).

8 - ديوان محمد عبد الله بن البخاري بن الفلالي، جمع وتحقيق الباحث سيدي محمد بن محمد سدينا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة انواكشوط /1996. ص: 45- 55

9 - سيدي عبد الله بن الفاضل بن برك الله فيه بن أحمد بزيد، خال الشيخ محمد المامي وشيخه، من العلماء العاملين وعباد الله الصالحين. توفي سنة 1209. انظر ترجمته في فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، لأبي عبد الله البرتلي: ص 169 - 170.

أشهر علماء وزعماء القطر آنذاك، و قد رحل لطلب العلم و الحج إلى بيت الله الحرام، ومارس القضاء لعدة سنوات في مصر كما يذكر ذلك الخليل النحوي في كتابه " المنارة والرباط " 1، حيث ربطته علاقات علمية واسعة مع علماء الأزهر آنذاك، خاصة منهم محمد بن أحمد بن عبد العزيز السنباوي الأزهري، المعروف بالأمير²، مما مكنه من تشكيل مكتبة علمية كبرى، عُدَّت أول مكتبة تتأسس بمنطقة تيرس حينها³، و كانت أهم مصدر ومنهل للشيخ محمد المامي الذي ترعرع في كنفها وبين رحابها. يقول رحمه الله مشيدا بالمكانة العلمية لآل الأفضل 4 - وهم ذرية «الفاضل» والد خاله سيدي عبد الله المذكور آنفا- منوها بوجود بعض الكتب النادرة في مكتبته، و مشيرا لبعض ما تحفل به من مصنفات نفيسة في علوم وفنون مختلفة، ألمع في هذه الأبيات إلى أن فيها كتباً للإمام السنوسي⁵، وكتاب «الأطول» لعصام الدين الأسفراييني⁶، وهو شرح على « تلخيص المفتاح » للقرظيني، في علوم البلاغة:

لله در علوم آل الأفضل
فتحوا جنود العلم لما أصبحت
أشفقت قبل اليوم أن يرى
أحوال صدق غير أن حفيدهم
ويحف زائرهم وطالب علمهم
أدعو بطلبة و دمعزة لهم

ويذكر صاحب كتاب " فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور " في ترجمته لسيدي عبد الله بن الفاضل أنه (كان رحمه الله تعالى من العلماء العاملين وعباد الله الصالحين، له حظ من علم

- 1 - انظر كتاب « بلاد شنقيط المنارة والرباط: عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر) »، نشر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم 1987 م ص 274.
- 2 - هو محمد بن محمد بن أحمد بن عبد القادر بن عبد العزيز السنباوي الأزهري، المعروف بالأمير، عالم بالعربية، من فقهاء المالكية. ولد في ناحية سنبو (بمصر) وتعلم في الأزهر وتوفي بالقاهرة. اشتهر بالأمير لأن جده أحمد كانت له إمرة في الصعيد، وأصله من المغرب. أكثر كتبه حواش وشروح أشهرها (حاشية على مغني اللبيب لابن هشام) في العربية، ومنها (الإكليل شرح مختصر خليل). توفي سنة 1232هـ. انظر ترجمته في الفكر السامي للحجوي (ط الأولى 1995)، دار الكتب العلمية لبنان، ج 2 ص 354.
- 3 - انظر الخلاف والاختلاف و الاستخلاف (الطبعة الأولى، منشورات معهد سيدي عبد الله بن الفاضل للبحث العلمي، 2010). ص 54
- 4 - أهل الفاضل: من ذرية الفاضل بن برك الله الذي ترك أربعة أبناء، هم أصل الأعراس الأربعة، أهل سيدي عبد الله ولد الفاضل، وأهل اسحاق ولد الفاضل، وأهل يعقوب ولد الفاضل، وأهل يوسف ولد الفاضل.
- انظر معلمة المغرب (ج26 الملحق 3 ص 83).
- 5 - محمد بن علي بن السنوسي الهاشمي القرشي ولد سنة 1202 بلدة مستغانم في الجزائر، تزعم حركة إصلاحية سياسية ودعوية في ليبيا خلال القرن الثالث عشر ودعا إلى فتح باب الاجتهاد والإصلاح الاجتماعي، وسافر إلى مصر والحجاز وقدم إلى فاس بالمغرب للتعليم بالقرويين. من مؤلفاته: "الكواكب الدرية في أوائل الكتب الأثرية"، و"المنهل الروي الرائق في أسانيد العلوم وأصول الطرائق"، و"إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن". انظر ترجمته في: (الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا لمؤلفه علي محمد الصلابي: ج1 ص22 و154 و155). و (فهرس الفهارس و الأثبات لمحمد عبد الحّي الكتاني: ج1 ص103).
- 6 - هو العصام إبراهيم بن محمد بن عرب شاه الأسفراييني عصام الدين، صاحب (الأطول) في شرح تلخيص المفتاح للقرظيني، في علوم البلاغة. ولد في أسفرايين (من قرى خراسان) وكان أبوه قاضيا، فتعلم واشتهر وألف كتبه فيها. وزار في أواخر عمره سمرقند فتوفي بها. وله تصانيف غير (الأطول) منها (ميزان الأدب) و (حاشية على تفسير البيضاوي) توفي 945 هـ. انظر ترجمته في: شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد (ج 8 ص 291)
- 7 - تيشل: تقع جنوب شرق مدينة الداخلة وسط صحراء تيرس، وتبعد عن أوسرد مركز الاقليم بـ 80 كلم في اتجاه الجنوب، وقد عرفت "تيشلا" قديما على أنها نقطة ماء كانت تعبرها القوافل الصحراوية في اتجاه الجنوب والشمال، كما تحدث عنها الشعراء في ابداعهم الأدبي. انظر معلمة المغرب (26 / 3 ص 169). مادة (تيشلة).
- 8 - انظر ديوان شعر الشيخ محمد المامي ص 119

التصوف، متفننا في علوم شتى، ناصر السنة ومحمد جمر البدعة، ورعا في مطعمه لا يعيش إلا من لبن نياق ورثهم عن والديه رحمهم الله تعالى، موضحا للمسالك، محذرا من المهالك، قام وقعد مع ابن حب الملقب بالمجيدري لما ظهرت بدعته، وجد في اطفائها، وألف رحمه الله تعالى تأليفا في كراستين في الرد عليه سماه: بتحفة التابع السني في الرد على المشايق البدعي، وآخر في كراسته نحو كراسة في الرد عليه سماه: نصرة الوارث في الرد على أبي الحارث، وقد أجاد فيها وأفاد وفيها ما يدل على وسع باعه وتفننه في الفنون (1)، وقد تتلمذ على القطب الرباني الشيخ أبي العباس أحمد بن مبارك اللمطي السجلماسي (ت 1156 هـ)، أحد أقطاب العلم والتصوف بمنطقة تافيلالت، قال عنه ابن الطيب القادري: «كان علامة الزمان، فريد الأوان، فارس التدريس والتحقيق، وحامل راية التحرير والتدقيق، شيخا متبحرا وإماما حجة متصدرا إلى أن انتهت إليه الرياسة في جميع العلوم، واستكمل أدوات الاجتهاد على الخصوص والعموم»² أشار الشيخ محمد المامي رحمه الله إلى أخذ خاله سيدي عبد الله عن الشيخ أحمد الحبيب اللمطي، في خاتمة نظمه للمختصر الخليلي، وكان يسميه «فحل تيرس».

يقول رحمه الله تعالى:

والفحل عبد الله نجل الفاضل خالي حامي الدف ذو الفضائل
بأمر شيخه غنى اللبيب أخي الكشف أحمد الحبيب³.

هاجر الشيخ محمد المامي إلى شرق موريتانيا وهو إذ ذاك لم يبلغ العشرين من عمره⁴، ثم عبر النهر إلى السينغال بحثا عن الكتب، وجال في إقليم "ديمار" ⁵ وهو الإقليم الغربي من مملكة فوتاه تورو⁷ على ضفتي نهر السنغال. وقد أشار إلى هذه الرحلة في كتاب البادية، مشيدا بعلمين من أعلام الغرب الإفريقي وزعمائه: أحدهما هو الشريف الأمير العالم آلمان ب بكر كان (1721م - سنة 1851م)، الزعيم السياسي والمرجع الديني لإقليم ديمان، وهو صاحب رحلة، قرأ على علماء البيضان والسودان⁸ ويعد من أبرز المراجع الدينية والسياسية

- 1 - انظر فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور لأبي عبد الله البرتلي الولاتي، تحقيق محمد ابراهيم الكتاني ومحمد حجي (الطبعة الاولى، دار الغرب الاسلامي بيروت، 1981 م) ص 169 - 170..
- 2 -انظر نشر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تأليف محمد بن الطيب القادري، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، (نشر وتوزيع مكتبة الطالب، الرباط/1982)، 117/2.
- 3 - انظر كتاب نظم مختصر خليل في الفقه المالكي للشيخ محمد المامي: ص 106.
- 4 - انظر «الصادح و الباغم للشيخ محمد المامي: دراسة وتقديم» رسالة جامعية للدكتور احمد كوري بن يابه بن محمادي، تحقيق ودراسة كتاب للشيخ محمد المامي، عنوانه: «الصادح و الباغم». ص 9
- 5 - ديمان: تحريف لكلمة «دمشق» التي تعود إليها الجذور التاريخية لعائلة "كان" السنغالية، وهي العائلة التي كانت لها الإمارة في الإقليم بالسنغال، وتنحدر من ذرية هلال بن عبد الله بن الشريف بن عبد الرحمن الدمشقي. انظر: الخلاف والاختلاف والاستخلاف: ص 80.
- 6 - أو دولة الأئمة في فوتاتور: قامت في سياق ظهور الحركات الإصلاحية بالغرب الإفريقي، بقيادة "سليمان بال" و "عبد القادر كان"، وأطاحت بحكم الاستبداد، وسعت لنشر الإسلام ورعاية المساجد وتشجيع مجالس العلم، وهي التي أمدت السنغال كذلك بأهم رجالته الدينية والفكرية منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى الربع الأول من القرن الحالي، أمثال: عمر الفتوي - 1864، مالك سي 1822، أحمد بمبا 1927). انظر المسلمون في السنغال معالم الحاضر وآفاق المستقبل، عبد القادر محمد سيل، ص 36. للمزيد حول دولة الأمة في فوتا: راجع كتاب محمد سعيد باه: (دولة الأئمة في فوتاتور: تجربة اسلامية على ضفاف نهر السنغال)، الطبعة الاولى، 2010، القاهرة).
- 7 - منطقة فوتا تورو: المنطقة الواقعة على ضفاف نهر السنغال، وهي كلمة فلانية أصلها (فوتَ تورو)، وتعني (اترك عبادة الأصنام)، ويقال أن أصل التسمية أطلقه أحد ملوك المنطقة تخليدا لاسم زوجته التي كانت تسمى (فوتا)، وهناك عدة روايات وتفسيرات حول معنى (فوتاتورو). لمزيد اطلاع راجع: "الدولة الإمامية في فوتاتورو ودورها في نشر الثقافة الاسلامية و اللغة العربية"، مقال للدكتور علي يعقوب استاذ بالجامعة الاسلامية بالنيجر، منشور بمجلة قراءات تاريخية: العدد 9، شتبر 2011.
- 8 - أشهى العلوم وأطيب الخبر في سيرة الحاج عمر، تأليف الشيخ موسى كمر، تحقيق وتقديم: خديم محمد سعيد امباكي، منشورات معهد الدراسات الافريقية 2001. ص 125

في الدولة الفوتية آنذاك. يقول عنه الشيخ في كتاب البادية مشيدا به، لما زار عاصمة إقليم «ديمار» المسماة (جالت): «وقد شاهدت آيمان بوبكر1 بـجالت2 يقيم الحدود فله دره»3. وأما الآخر فهو أحمد لب (أو لوبو)4، وإليه يشير في كتاب البادية بقوله: «أو يكون فيهم زعيم كأحمد لب»5 تأثرا بهذه الرحلة إلى منطقة فوتا السنغالية، حمل الشيخ محمد المامي لقب أحد زعماء دولة «فوتا تور» السنغالية في القرن التاسع عشر، وهو المامي عبد القادر كان (1779 م - 1806 م)،6 لذلك يرى بعض الدارسين أن كتابتها «المام» بدون إضافة حرف الياء إلى الميم في الآخر (أي هكذا: الشيخ محمد المام) - خلافا للممارسة الشائعة - هو الصواب، لأن أصلها هو «المام» التي يطلقها الأهالي في منطقة «فوتا» على «الإمام»، لذلك على الأرجح فهي تحريف لهجي لهذا الأصل العربي الأخير7.

و سواء كان حمل الشيخ محمد المامي للقب (المامي) بفعل تأثره بحركة الأئمة في المنطقة المشار إليها، أو لأن الأهالي في تلك المنطقة أيام إقامته هناك كانوا يطلقون عليه اللقب المذكور، فإن الأمر في كلتا الحالتين لا يقتضي إضافة ياء النسبة8. وقد أشار الشيخ محمد المامي لأصل الكلمة، في مطلع نظم أهل بدر المسمى «وسيلة السعادة لنيل الحسنى مع الزيادة»9:

قال محمد الفقيه بالله بن البخاري بن حبيب الله
سمي والي بوصياب10 المامي صاحب الاستهداف بالأنظام11.

- 1 - | الخلاف والاختلاف والاستخلاف: ص 80.
- 2 - عاصمة إقليم ديمار، وهو الإقليم الغربي من مملكة فوتا تورو الممتدة آنذاك على ضفتي نهر السنغال. انظر الخلاف والاختلاف والاستخلاف: ص 80.
- 3 - انظر كتاب البادية: ص 249.
- 4 - هو الشيخ أحمد (لب) بن محمد بوبو؛ فقيه، صوفي ومجاهد من شعب الفلان، قاد حركة جهادية انتهت بتأسيس دولة (ماسينا) الإسلامية بالنيجر، كما قام بتطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية في دولته، فأنشأ بيتاً للمال، وأقام نظاماً عسكرياً للدفاع عن حدود الدولة، وعيّن الأمراء في مختلف إمارات الدولة). راجع حول ترجمته كتاب: انتشار الإسلام في غرب إفريقيا، د. عبد الله عبد الرازق إبراهيم، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى 2006. (ص 44/43)
- 5 - انظر كتاب البادية: ص 40.
- 6 - ذكر ذلك الخليل النحوي في ترجمته لعبد القادر كان في كتابه «بلاد شنقيط المنارة والرباط: عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر)»، ص 520
- 7 - أشار لذلك الدكتور محمد البرناوي في كتابه الخلاف والاختلاف والاستخلاف محاولة حفر حول فكر الشيخ محمد المامي ص15.
- 8 - انظر الخلاف والاختلاف والاستخلاف للدكتور محمد البرناوي، ص15.
- 9 - وسيلة السعادة لنيل الحسنى مع الزيادة نظم وشرح على من شهد بدرا من المسلمين، صدر عن زاوية الشيخ محمد المامي - ط 1 - 1406 هـ/ 1986 م
- 10 - بوصياب (بإمالة): تعني بالفلاية نسبة جمع إلى إحدى المناطق التي تتكون منها بلاد فوتاتور، مثل: تونز، لاو، بيلابي، ونسبة المفرد "بوصياح". انظر دولة الأئمة في فوتا تور تجربة إسلامية في ضفاف السنغال، تأليف سعيد باه، ص 76. و كتاب (نبذة من تاريخ فوتا السنغالية، مطبعة الرسالة، القاهرة 1956، ص 92).
- 11 - انظر كتاب «صداق القواعد للشيخ محمد المامي (نظم القواعد الفقهية وشرحه)»، ص 13 و 14.

المطلب الثاني: مصنفاته العلمية وثناء العلماء عليه.

اشتهر الشيخ محمد المامي بالتأليف وكثرة المصنفات في علوم شتى، لكن جل تراثه ضاع بسبب ظروف البداوة والترحال التي طبعت حياة مجتمعه الصحراوي، و تذكر المصادر التاريخية أن مؤلفاته بلغت 300 كتاب¹ أو تزيد، فقد تميز الرجل بغزارة الإنتاج وتنوعه، وغرابته وطرافته، خاصة إذا ما تعلق الأمر بالعناوين التي يختارها لكتبه وتصانيفه، كما عرف بسعة المعارف و موسوعية التأليف في العلوم الدينية والإنسانية، وانفرد عن أهل عصره وقطره بالخوض في نظريات وحقائق علمية كثيرة مثل كروية الأرض ونسبة اليابسة والماء على سطحها، و عد الحصى، وعلم التوقيت والفلك.. وغيرها.

يقول فيه العلامة محمد الخضر بن حبيب الباركي² (ت 1345هـ) شارح نظمه لمختصر خليل الموسوم بـ (مفاد الطول والقصر على نظم المختصر): " ما علمت في الأمة أكثر من الناظم تصانيفاً، فهو أعجوبة دهره ولو سراج الدين بن الملقن، أو السيوطي في ما أرى، لكن تصانيفه لم يحفظ منها عشر عشر معشارها"³ و من أشهر مصنفاته نذكر ما يلي:
كتاب البادية 4:

وهو كتاب خاص بأحوال البدو وعوائدهم وضرورتهم ونوازلهم، ألفه الشيخ نظراً لغياب فقه البادية في الكتب الفقهية لعلماء السلف، وسكوتهم عنها، وقد تميز بنظريته الاجتهادية الواقعية من خلال اعتماد نسق اجتهادي متكامل للفتوى، استقاه من النصوص والمقاصد الشرعية، واعتمد مبدأ التيسير والتسهيل. كما يعد الكتاب سجلاً للظواهر الاجتماعية والتاريخية السائدة في المنطقة في عصره.

نظم القواعد الفقهية المالكية: ويسمى « صداق القواعد»⁵.

رد الضوال والهمل إلى الكروع في حياض العمل⁶

الجمان⁷

الدلفين وشرحها⁸

الميزابية وشرحها⁹

كتاب الإجماعات¹⁰

نظم مختصر خليل بن اسحق المالكي¹¹.

سفينة النجاة في الحشر والحياة والممات في ما يتعلق بكلمة التوحيد.

1 - المنارة والرباط: ص 518.

2 - هو العلامة محمد الخضر بن حبيب الباركي ولد في الشمال الغربي بموريتانيا وفيه توفي، قضى جل حياته متفرغاً للتأليف والتدريس ونسخ الكتب، له عدد من المؤلفات منها (مفاد الطول والقصر على نظم المختصر)، و (تشريع الجوازي في تنظيم نظم المغازي). انظر ترجمته بمعجم البابطين لشعراء العربية في القرن التاسع عشر والعشرين (على شبكة الانترنت)

3 - مفاد الطول والقصر على نظم المختصر، مخطوط بزاوية الشيخ محمد المامي (نواكشوط/موريتانيا).

4 - ضمن "مجموعة من مؤلفات الشيخ محمد المامي"، صدر عن زاوية الشيخ محمد المامي، ط1/2008.

5 - « صداق القواعد للشيخ محمد المامي (نظم القواعد الفقهية وشرحه) » نشر زاوية الشيخ محمد المامي (الطبعة الأولى دار الفكر نواكشوط 2010 م).

6 - ضمن "مجموعة من مؤلفات الشيخ محمد المامي"، صدر عن زاوية الشيخ محمد المامي، ط1/2008.

7 - ضمن "مجموعة من مؤلفات الشيخ محمد المامي"، صدر عن زاوية الشيخ محمد المامي، ط1/2008.

8 - ضمن "مجموعة من مؤلفات الشيخ محمد المامي"، صدر عن زاوية الشيخ محمد المامي، ط1/2008.

9 - ضمن "مجموعة من مؤلفات الشيخ محمد المامي"، صدر عن زاوية الشيخ محمد المامي، ط1/2008.

10 - مخطوط بزاوية الشيخ محمد المامي.

11 - صدر عن زاوية الشيخ محمد المامي، ط الاولى 2005.

الدولاب في المذاهب الأربعة والأربعين¹.

ادخالات البحر في الغدير²

نظم ورقات امام الحرمين³

مجموعة الرسائل⁴.

الشيخ الأجم والشيخ الأقرن (في فنون مختلفة)⁵

وسيلة السعادة و شرحها (نظم أهل بدن)⁶

أثنى العلماء كثيرا على علم الشيخ و موسوعيته و ولايته و صلاحه، و تحدثوا على جميل خصاله و نبيل خلاله. يصفه العلامة محمد الخضر بن حبيب، مورا بعض أقوال معاصريه فيه، فيقول رحمه الله: (مَشْهُور كَشَف وكرامات، يقول بعض أهل عصره: "إنه موقف عقل"، وبعض: "لا مامي بعده"، يداعب تلاميذه و يتوسل بهم و بهممهم و كدهم و أفعالهم و بآبائهم.. فائق في كل علوم الشرع، ما من فن إلا و له فيه تصانيف، نثرا و نظما عربيا و غيره، بارع في الشعر بنوعيه، و لم أر أكثر منه استسقاء بهما، و كان يمدحه صلى الله عليه وسلم بقصيدة يسميها "حمراء العرقوب".. و أخبرني الثقات أنه أعقل أهل زمانه، وأنه جميل صورة، زاهد لاسيما بما في أيدي الملوك، كريم الخلق، ممدار للناس، منصف ذو مروءة، و منحر و أنه ينحر كل ليلة جمعة، كثير ضيف و مواساة..⁷

و يقول فيه العلامة سيدي أحمد بن اسمه الديماني: (و منهم الشيخ محمد المامي المذكور، ناظم مختصر الشيخ خليل، و مؤلف الكتاب المسمى كتاب البادية، و صاحب القصيدة العجيبة المعروفة بالدلفينية و الأخرى المعروفة بالميزابية في الجدل، و الذي نظم العلوم كلها من فقه و نحو و توحيد و منطق و بيان و سيرة و أنساب و هيئة و غير ذلك..⁸

1 - مخطوط بزواوية الشيخ محمد المامي.

2 - مخطوط بزواوية الشيخ محمد المامي.

3 - مخطوط بزواوية الشيخ محمد المامي.

4 - طبع بعضها ضمن كتاب " مجموعة مؤلفات الشيخ محمد المامي "، صدر عن الزاوية في طبعته الأولى سنة 2008.

5 - مخطوط بزواوية الشيخ محمد المامي.

6 - طبع ضمن سلسلة " ذخائر التراث الاسلامي " بتحقيق الأستاذ محمد يحيى بن سيد احمد، ط الأولى 2017، وزارة الثقافة و الصناعة التقليدية / موريتانيا.

7 - تشريع الجوازي في تنظيم نظم المغازي للعلامة محمد الخضر بن حبيب، مخطوط بمكتبة أهل محمد الخضر / موريتانيا، ص 2.

8 - " ذات ألواح و دسر " للعلامة سيد أحمد بن اسمه الديماني، مخطوط بمكتبة العلامة محمد بن أحمد مسكة الباركي،

بموريتانيا، ص 26.

المطلب الثالث: السلطانية

عاصر الشيخ محمد المامي السلطان العلوي محمد بن عبد الرحمن بن هشام 1، و أثنى عليه في قصيدته المسماة «السلطانية»، وهي قصيدة جعلها مسك ختام نظمها 2 لمختصر خليل بن إسحاق 3 المالكي، وأهداه لهذا السلطان سيرا على سنة العلماء المتقدمين في إهداء ثمرات فكرهم إلى سلاطين المسلمين المعاصرين لهم. يقول رحمه الله مصرحا بمعاصرته للسلطان العلوي محمد الرابع، مُبديا استحقيقه دون غيره لهديته، متحدثا عن مناقبه و معددا فضائله، ومثنيا على الدوحة العلوية الشريفة و مكائنها المنيقة، داعيا لسلطينها بالعز والتمكين، و ذاكرا فضلهم في إمداد المحاضر العلمية في الصحراء بالكتب «الممجة» 4:

فَنَزَلَ الْمُلُوكُ عَنْ ذَا الشَّانِ
كَأَنَّمَا كَانَتْ لَهُ مُدْخَرَةٌ
كَأَنَّمَا وَافَقَ سَنٌ طَبَقَهُ
إِمَامٌ أَهْلَ الْمَغْرِبِ الْمُوَفَّقُ
مُثَلَّثَ الْعَدْلِ وَإِخْمَارِ الْفِتَنِ
أَشْرَقَ فِي الْغَرْبِ زَمَانُ الْغَيْهَبِ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى الْمُعَاصِرَةِ
وَاللَّهُ أَسْأَلُ نَسَاءَ الْأَجَلِ
فَإِنْ يَعْشَ فِي الْمُسْلِمِينَ مُضْعَبٌ¹
بِعُضْرِهِ نُبَاهِي الْأَعْصِرَ الْأَوَّلِ
وَبِبَنِيهِ الْغُرَّ الْأَكْرَمِينَ
أَلْوَارِثِينَ الشَّرَفَ الْأَثِيلَ
أَبْقَاهُمُ اللَّهُ لَنَا فِي الْأَرْضِ
قَاعِدَةً عَلَى رِقَابِ الْمَرَدَّةِ

لِلْمَلِكِ ابْنِ عَابِدِ الرَّحْمَنِ
لَكِنَّهَا عَنْ غَيْرِهِ مُوْخَرَةٌ
وَجَاءَ الْأَغْشَى قَاصِدًا مُحَلِّقَهُ
لِوَاوِهِ لِسَمَرْقَنْدٍ يَخْفِقُ
بِالْكَشْفِ عَنْ مُخْذَرَاتِ كُلِّ فَنٍ
وَقَدْ يَكُونُ مَشْرِقٌ بِالْمَغْرِبِ
لِحَافِظِ كُلِّ حَقٍّ أَصِرَهُ
فَيَتَمَتَّعُ بِهِ ذُو أَمَلٍ
فَذَلِكَ مِنْ زَمَانِنَا مَا نَطْلُبُ
وَكُلَّ دَوْلَةٍ خَلَّتْ مِنَ الدُّوَلِ
زَوَاخِرِ الشَّرَفِ الْأَعْظَمِينَ
سِلْسِلَةَ الْيَاقُوتِ إِسْمَاعِيلًا
رَوَاسِيَا فِي طُولِهَا وَالْعَرْضِ
هَادِيَةً لِكُتُبِ الْمُمَجَّدَةِ

- 1 - المولى محمد بن عبد الرحمن بن هشام الحسني: من ملوك الدولة السجلماسية العلوية بالمغرب الأقصى. توفي سنة 1290 هـ. انظر: لاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للناصرى 4: 211، والدرر الفاخرة بآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة لعبد الرحمن ابن زيدان، ص 89
- 2 - نظم مختصر خليل في الفقه المالكي للشيخ محمد المامي بن البخاري الباركي، نظم به مختصر خليل بن إسحاق الجندي، الطبعة الأولى ابريل 2005، مطبعة فضالة المحمدية المغرب.
- 3 - خليل بن إسحاق بن موسى: ضياء الدين الجندي، فقيه مالكي، من أهل مصر. كان يلبس زيّ الجند. تعلم في القاهرة، وولي الإفتاء على مذهب مالك. له "المختصر" في الفقه، يعرف بمختصر خليل، وقد شرحه كثيرون، وترجم إلى الفرنسية، و "التوضيح" شرح به مختصر ابن الحاجب. انظر الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: 852هـ) تحقيق محمد عبد المعيد ضان مجلس دائرة المعارف العثمانية - صيدر اباد/ الهند الطبعة: الثانية، 1392هـ / 1972م ج 2 ص 207
- 4 - انظر "السلطانية" خاتمة نظم مختصر خليل للشيخ محمد المامي بن البخاري الباركي، ص 413.

وإلى تلك الخزائن والكتب النفيسة التي كان السلاطين العلويون يمدون بها علماء الصحراء ومدارسها العلمية العريقة، يشير الشيخ محمد المامي بقوله¹:

وَأِنَّمَا كَانَتْ بِهِ مَقْرُونَةٌ إِذْ هُوَ مِنْ دَوْلَتِكَ الْمَيْمُونَةِ
وَمِنْ فَوَائِدِ الْخَزَائِنِ الَّتِي مِنْهَا ارْتَوَتْ نُفُوسُنَا وَعَلَّتْ
وَتَمَرَّةٌ مِنْ ثَمَرَاتِ فَضْلِكُمْ وَنَفْحَةٌ مِنْ نَفْحَاتِ أَصْلِكُمْ

و في السلطانية تبدو العناية الفائقة للشيخ محمد المامي بهديته جليلة، فقد ألبسها أفخر الملابس، وسخر أمهات تصانيفه العلمية وعبون كتبه في سبيل تجهيزها، فعقدتها «نظم أهل بدر»، وهو نظم طويل لمن شهد بدرا من الصحابة رضوان الله عليهم، وسوارها «الميزابية»، وهي قصيدة من الطوال في علم الجدل، وعطرها «اللازوردية» وهي نظم لكتاب الأحكام السلطانية للإمام الماوردي، وبرقعها «مشاكل الألقاب» في علم الحديث، وخدرها «شقق التخريج والترجيح في أصول الفقه»..
يقول - رحمه الله - في وصفها²

إِنْ لَمْ تَكُنْ فَائِزَةً النَّفَائِسِ لَا بَسَةَ مِنْ أَفْخَرِ الْمَلَابِسِ
مِنْ سُنْدُسِ الْهَمْزِيَّةِ الْجَدِيدِ وَعَقْدَ أَهْلِ بَذْرِ الْفَرِيدِ
وَعُطِرَتْ بِرَوْضِ لَازُورِدِ فِي نَظْمِنَا مَسَائِلَ الْمَاوَرِدِ
أَحْكَامُ سُلْطَانِ هِيَ السَّوَامِي لِأَنَّهَا سَلَا طِنَ الْأَحْكَامِ
وَبُرْقِعَتْ مَشَاكِلَ الْأَلْقَابِ فِي عِلْمِ الْحَدِيثِ زِيَهُ لَمْ يُوَلَفِ
وَحَدَّرَتْهَا خَدَمُ التُّوشِيحِ بِشَقِّقِ التَّخْرِيجِ وَالتَّرْجِيحِ
وَسُورَتْ بِجَدَلِ الْمِيزَابِ فَفَنَّتْهُ عَنَّا مِنَ الْعَزَابِ
وَحُلْخِلَتْ بِالْذُرْرِ الْبُرُوسِ فِي كُلِّ تَقْسِيمٍ مِنَ الْمُنَاسِبِ

وفضلا عن القصيدة السلطانية، فإن للشيخ قطعة أخرى في الثناء على عالم يسمى عبد السلام، ترجح المصادر أنه عبد السلام بن السلطان المولى سليمان العلوي (ت1261هـ)، وقد أنشده هذه الأبيات فرحا بنسخة من ديوان الشعراء الستة الجاهليين أهداها له، وضمن الشيخ سنة الإهداء بحساب الجمل في هذه الأبيات، بقوله:

رب حور مقصورة في الخيام لم تجاوز قباب عبد السلام
بينما هي بين عود وريط إذ ترامت بها ربي الآرام
قد أتننا في عام "نبش" تبغي في ديار الشنطور حسن المقام
وديوار القضاة غب جميل شهدته في سالف الأيام
فجفاها أهل الخيار من القوم ومالت لفتية الإلزام⁴

1 - انظر "السلطانية" ص 414.

2 - انظر نظم مختصر خليل ص 412 - 413

3 - سنة 1252هـ

4 - ديوان شعر الشيخ محمد المامي، ص 234

المطلب الرابع: زاويته العلمية

أسس الشيخ محمد المامي رحمه الله زاوية علمية صوفية ظلت منارة في الصحراء، تعلم الجاهل وترشد المستفتي، و تؤمن الخائف وتطعم الجائع، وتغني الفقير وتقضي وتصلح بين المتنازعين، ومازال إلى اليوم أشعاعها العلمي والثقافي مستمرا في الصحراء وموريتانيا. وقد شهد أفاضل العلماء والصالحين بالأدوار الكبرى لهذه الزاوية و مكانتها المتميزة وعطائها العلمي والاجتماعي.

يقول فيها العلامة الموسوي الشيخ محمد المصطفى بن تكرر¹:

وزاوية عن زورها ينجلي الفقر	وشيدها العلم المورث والنصر
وأبرق فيها مزن علم جرت به	من الشيخ أنهار يواصلها بحر
وتسمع ضوضاء الحجيج أمامها	ويطربك الدرس والترتيل والذكر
فما حاتم الطائي في حلم أحف	على عقل إياس إذا مده عمرو
بأطول باعا في العطا من محمد	ولا العارض الهتان في صوبه قطر ²

توفي الشيخ محمد المامي سنة 1282هـ/1861م، و دُفن عند جبل أيك بتيرس، في الطرف الشرقي من منطقة آدرار سطف³ التابعة لإقليم أوسرد.

- 1 - هو العلامة الجليل محمد المصطفى بن الشيخ محمد عبد الله بن تكرر الموسوي اليعقوبي، يتصل نسبه بجعفر بن أبي طالب ولد سنة 1312هـ وتوفي عن ثلاث وستين سنة. كان من الزهاد والعباد الكرماء، أهل الأدب والسكينة والوقار، شاعرا رقيق الشعر، يؤثر العزلة والتجافي عن الخلق والخمول. أخذ العلم عن شيوخ أجلاء منهم محمد سالم بن ابوه، والقاضي محمد موسى بن محمد بن أبي، و مشايخ أجلاء من آل محمد بن محمد بن محمد سالم المجلسي، وأخذ الطريقة القادرية على مريد والده، خاله الشيخ محي الدين بن ابوه. له تأليف في التوسل بالأنبياء والصحابة والصالحين، محقق في رسالة تخرج بالمعهد العالي للدراسات والبحوث الاسلامية بموريتانيا سنة 2014. وله ديوان شعر حققه الأستاذ الدكتور الحسن بن محمد بن بدي الشريف. راجع في ترجمته نبذة كتاب ابنه الأستاذ العالم الجليل الاشياخ بن تكرر، الموسوم بـ (الجمع الرفيع على قاطرة التسبيع)، ويقع في 344 صفحة، راجعه ووضع فهرسه وقدم له محمد عبد الله بن محمود بن تكرر (الطبعة الأولى منشورات دار الأمان الرباط سنة 2015م) ص 28 - 32.
- 2 - انظر ديوان الشعر الحساني للشيخ محمد المامي (لغن)، تصحيح اللجنة العلمية لزاوية الشيخ محمد المامي، مركز الدراسات الصحراوية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، سنة 2015، ص 62

- 3 - مجموعة مرتفعات تقع جنوب شرق مدينة «الداخلية»، وعلى الحافة الغربية لمنطقة تيرس. راجع: مادة (آدرار سطف) في معلة المغرب الملحق (ج3)، (13/26).

المحور الثاني:

معالم الفكر الصوفي عند الولي الصالح الشيخ محمد المامي
من خلال شعره الفصيح والحساني (لغن)

يشكل التصوف أحد ثوابت الهوية المذهبية والعلمية الأصيلة للشيخ محمد المامي، والتي دأب على التنويه بها في جميع منظوماته وكتبه، إذ نجده دائماً يعرف نفسه أنه أشعري العقيدة، مالكي المذهب، و قادري التصوف.

يقول في مقدمة نظمه لمختصر خليل¹:

بيمن	بسم الله	واللتميم	بلفظة	الرحمن	والرحيم
يقول	ذو الفقر	والاضطرار	لرحمة	المقتدر	الغفار
محمد	الذي له	المامي علم	ابن البخاري	بين ضال	وسلم
الأشعري	المالكي	المذهب	المغربي	الباركي	النسب

ويقول في مطلع نظم القواعد الفقهية المسمى بـ«صداق القواعد»:

قال	عبيد ربه	المقتدر	محمد ابن البخاري	الأشعري
القادري	المالكي	المذهب	المغربي	الباركي النسب ²

وقد كانت العوامل المحيطة بتربية الشيخ تؤهله لأن ينال حظاً وافراً من الزهد والتصوف، كما أن الصحراء عرفت طرقاً صوفية كثيرة، لكن وسط الشيخ عرف طريقين هما: الشاذلية والقادرية³، وهذه الأخيرة هي التي كان عليها الشيخ، وتفيد الرواية أنه أخذها عن أخيه عبد العزيز، وأن هذا الأخير أخذها عن الشيخ سيدي المختار الكنتي⁴، و قد ذكره الشيخ محمد المامي في (الدلفينية)، حين قوله:

وقطبها شيخنا الوافي ذاك عزا لعدة مالكيات مواطن⁵

و كان معاصرو الشيخ يمثلون به للشيخ الصوفي المربي الكامل، الموصوف في رائية الشريشي⁶، كما يقول العلامة محمد الخضر بن حبيب الباركي:

1 - انظر كتاب نظم مختصر خليل في الفقه المالكي للشيخ محمد المامي: ص 21.

2 - صداق القواعد ص 191.

3 - انظر معلمة المغرب (الجزء 26 الملحق 3 ص 86).

4 - هو الشيخ سيدي المختار بن أبي بكر الكنتي الشنقيطي (ت 1226هـ/1821م)، كان من أفراد عصره علماً وصلاً، مجمعا على ولايته عند أهل الطريق، تخرج على يديه كوكبة من العلماء والصالحين، ومع ظهوره بلغت الطريقة القادرية أوج مجدها في الغرب الأفريقي. من مؤلفاته: (الكوكب الوفاة في ذكر فضل المشايخ وحقق الأوراد)، و(جذوة الأنوار في الذب عن مناصب أولياء الله الأخيار). انظر: فتح الشكور للبرتلي ص 153، و الوسيط في تراجم ادباء شنقيط ص 361.

5 - معلمة المغرب المجلد 26 ملحق 3 ص 86. وانظر ديوان الشيخ محمد المامي ص 598 (جاء فيه أن "شيخنا" أي: المختار)

6 - منظومة الرائية للعارف بالله تاج الدين أبي العباس أحمد بن خلف الشريشي السلوي الصوفي (ت سنة 641هـ)، و تسمى "أنوار السرائر وسرائر الأنوار"، حجة عند أهل الطريقة لأنها من أوائل ما نظم في قواعد التصوف، ويمكن تصنيفها ضمن الشعر التعليمي التربوي، أجاد ناظمها وأفاد، ورسم فيها طريق القوم، وبين أبرز الشروط التي ينبغي توافرها في الشيخ والمريد على حد سواء، تضم وصفاً دقيقاً لأحوال ومقامات يعيشها المريد في سلوكه إلى التحقق بمعرفة الله تعالى. وقد شرحها أبو مدين الفاسي (ت 1181هـ) في مؤلف أسماه: (إزالة الخفاء وكشف الأستار عن وجوه أنوار السرائر وسرار الأنوار). و حقق هذا الشرح في أطروحة جامعية لنيل شهادة الدكتوراه بعنوان " شرح أبي مدين الفاسي (ت 1181هـ) لرائية الشريشي المسماة: "أنوار السرائر وسرائر الأنوار" تحقيق ودراسة" للباحث: عادل المنوني، تحت إشراف الأستاذ: الدكتور خالد سقاط، نوقشت يوم الاثنين 17 أكتوبر 2016 بكلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس.

« فلأنه الممثل به عند صيارفة وقته لقول القائل:

ولا تقدمن قبل اعتقادك أنه مرب ولا أولى بها منه في العصر1 »

أشرنا قبل أن الشيخ كان كثير التأليف والتصنيف، لكن ضاعت جل تأليفه في ظروف البداوة التي طبعت نمط حياة مجتمع الصحراء قديماً، وبالرغم من ذلك فإن المتأمل في ما وجد من تراثه الشعري بنوعيه الفصيح والشعبي، يلحظ أن فكره الصوفي غني المعاني ومتعدد الأبعاد، أمكن بعد النظر والتمعن في ديوانيه العربي والحساني تحديد معالمه العامة في خمسة أساسية:

الأول: شرعية تعدد الطرق الصوفية.

الثاني: في معنى الزهد في الدنيا والتذكير بالآخرة

الثالث: الابتهاالات الربانية

الرابع: تزكية الباطن وطهارة القلب

الخامس: العناية بالأدب الصوفي وأعلام التصوف

أولاً: شرعية تعدد الطرق الصوفية

يدعو الشيخ محمد المامي إلى تقدير وتوقير كافة المذاهب والطرق الصوفية المتعددة وعدم الإنكار على أحد منها، إذ كلها تمثل مسالك ترشد الحائر، وتهدي السائر في الطريق الى الله تعالى، وتمتج جميعها من مورد واحد هو المنهل النبوي الصافي، ولا ينبغي للمريد إنكار شيء منها. يقول رحمه الله:

رسول الل حاس بارد لشيخ امراير للذاهب
ول لا تنكريا الوارد للحاس كثرت المذاهب2

وقد أجابه ابن عمه محمد عبد الله بن البخاري بن الفلالي مكملاً ومؤكداً لمعنى « الكاف » السابق، موضحاً أن على المريد مع إجلاله لشيخه أن لا ينكر فضل غيره، لأن ذلك من فضل الله الواسع الذي لا يحد ولا يحصر أو يُقصر:

حكم التلميد يعتقَد عَن شيخ ما كيفُ حد
ألا ينكر شيخ اوخر فبلد الل واسع والمواهب
ما يثّر يحصيههم بالعد يكون الكريم الواهب3

إن هذه الرؤية «المامية»4 الأخوية المنفتحة على مختلف الطرق الصوفية، باعتبارها آخذة كلها من مصدر واحد هو مشكاة النبوة والسنة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم، يُزكيها قول شيخنا العلامة الرباني الشيخ ماء العينين، في منظومته الشهيرة « مفيد الراوي على أني مخاوي»:

إني مخاو لجميع الطرق أخوة الإيمان عند المتقي
ولأفرق للأولياء كمن يفرق للأنبياء
قال تعالى:المؤمنون إخوة وعدم التفريق فيه إسوة
وانظر لمبدا طرق و المنتهى تعلم ما قلت بما قد يشتهى
وذاك أنهم كلهم لك يقول عليك باتباع فعل ذا الرسول
عليه أفضل الصلاة والسلام وهكذا تتبع منه للكلام

1 - مفاد الطول والقصر: ص 20.

2 - انظر ديوان الشعر الحساني (لغن) للشيخ محمد المامي بن البخاري الباركي (ص 148

3 - انظر ديوان الشعر الحساني (ص 148

4 - نسبة للشيخ محمد المامي.

ومستحيل أن يقول اتبعا
لذا تحققن أن الطرقا
غيرها ليست طريقا وثق
منه لذا وذا له لا تتبعا
طريقة النبي وحده ثقا
إني مخاو لجميع الطرق1.

ثانيا: في معنى الزهد في الدنيا والتذكير بالآخرة

يحرص الشيخ محمد المامي على تعميق القيم الصوفية الحققة، المنبثقة من معين المعرفة القرآنية والحكمة النبوية، وفي هذا السياق نجده كثير الإلماع إلى حقيقة الدنيا الفانية، والتنبية على عدم الغفلة عن الآخرة. يقول في هذا الشأن، مضمنا للمعنى الوارد في حديث النبي صلى الله عليه وسلم (لو كان لابن آدم واديان من مال لا تبغى واديا ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب) 2

يا لاه للدني تبني واخرتك بيه مأتعن
لا يشكيك ال ما يغن ما هو الا السراب
ولا يملأ جوف ابن آدام إلا التراب3

والمعنى الاجمالي هنا: أيها المقبل على تحصيل الدنيا غافلا عن آخرتك غير معتن بأمرها، لا يُشقيك ما لا يغني ولا ينفع من شؤون الدنيا، فحقيقتها إنما هي سراب، وفي الحديث: (ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب).

ويقول مذكرا بالآخرة، واعظا المنهمك في الدنيا، منبها إياه على التوسط فيها، وعدم الغلو في الاشتغال بها والغفلة بذلك عن الموت وأمر الله الذي لاراد له إذا قضاها:

بالاهي للدني تكدح
أل لا ترخ لا تشبج
أمر الخلاك إلى دحدح
ول جججج ما يزحزح
تجر فيه ولل تردح
غير اعلم لك عن بعد اص
ما يغالب ما يعص
ولى بند ما يرص4

وله أيضا في بيان حقيقة الدنيا وتقلب أحوالها، و ذم التعلق التام بها، و تقويم التصور السلبي لمفهوم الزهد فيها:

دلو الدنيا عايد مشكوك
ما يتمونك فيه مخلوك
وافطن زهدك ماهُ برباك
أبد ماهو هو هذاك
وُكلت بلكة يكان اعطاك
الله الل داير فية5
گايلك يالمولع بيه
ما هو واحد زاهد فيه
واتكدويك وكلت مزاك
هو ثلثت حزن اعليه

يشبه الدنيا هنا بالدلو المخروم قعره (مشكوك)- وهو إناء يستقى به في البئر كما هو معلوم - وهذا التشبيه كناية عن عدم التعلق بالأسباب الدنيوية تعلقا كبيرا و قطع الاعتقاد فيها بشكل تام لتحقيق المراد، بحيث يكل المرء إليها أمره بالكلية، بل الصواب أن يتخذ الأسباب ويتوكل في الأمر على الله وحده، ووجه استعارة الدلو للبيان أنه سبب لاستجلاب الماء من البئر، لكنه قد يكون مخروما وبالتالي لا يفيد في الحصول على المطلوب والمرجو وهو السقيا وتحصيل الماء، فهو

1 - مفيد الراوي على أني مخاوي للشيخ ماء العينين، تحقيق محمد الظريف، نشرة مؤسسة الشيخ مريبه ربه، المغرب ص 44/43/42

2 - صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال، عن ابن جريج عن عطاء، رقم الحديث 6436

3 - انظر ديوان الشعر الحساني (لغن) ص 169

4 - انظر ديوان الشعر الحساني (لغن) للشيخ محمد المامي بن البخاري الباركي. ص 173

5 - انظر ديوان الشعر الحساني (لغن) للشيخ محمد المامي بن البخاري الباركي (ص 169)

سبب لكنه غير كاف وحده لحصول المراد، لما يعتربه من عوارض النقص والخلل، وكذلك حال الأسباب الدنيوية، فهي مجرد وسائل لا تجدي، بغير استعانة بالله، فله الأمر وهو المدبر سبحانه. ولما كانت تلك حقيقتها فإنه يعظ المولع بها بالزهد فيها لأنه لا راحة للمخلوق إلا بذلك، و حقيقة الزهد الصوفي كما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم، هي قوله: (الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يديك أوثق مما في يد الله) 1. و يوجه الشيخ محمد المامي أيضا إلى بعض المظاهر التي لا صلة لها بالزهد الصوفي، فالزهد ليس سلبية واعتزالا للدنيا و التماطل والتقاعس (أرياك)، و التراخي (اتكديك)، وعدم المردودية والفاعلية والإنتاجية (مزاك)، بل هو مرتبط بالقلب ومدى خلوه من التعلق بالدنيا والشهوات، و التحقق بهذا المعنى يفضي إلى عدم الحزن على فقد الدنيا وتقلب أحوالها من حسن إلى سيء، هذا في حال الشدة، كما أن من حقيقة الزهد أيضا عدم التكبر و الغرور والتعالي على الخلق إذا أفاء الله عليك منها، وبلغ مرادك منها، و هذا في حال الرخاء. ومن ثم، فالتصوف بريء كل البراءة مما يحاول إلصاقه به بعض الذين يدعون أنه خمول وتواكل وسلبية، وترك للعمل، إن التصوف هو وضع للدنيا في موضعها الصحيح، وقد قال عليه الصلاة والسلام للنفر الذين أعرضوا عن الدنيا بالكلية: « أمّا والله إنني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، و أتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» 2.

ثالثا: الابتهالات الربانية

للشيخ محمد المامي رحمه الله تعالى أشعار كثيرة في الابتغال لله تعالى بأسماءه العلى، والتوسل بنبية المصطفى صلى الله عليه وسلم وصحبه الأبرار خاصة منهم أهل بدر الأخيار، وذلك سيرا على نهج العلماء العارفين وأهل الله الربانيين. يقول في التحصن والتوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم:

تحصنت بالهادي من سوء والأذى ومن حصنه الهادي من سوء قد نجا
ووجهته لله فيما رجوته ومن وجه الهادي فقد نال ما رجا

و من أشهر ابتهالاته الربانية نظمه لأسماء الله الحسنى في اثني عشر بيتا، متبركا فيها بعدة الشهور عند الله، ويتميز بسهولة العبارة ورقة المعنى وعذوبته، يقول فيها رحمه الله:

أَدْعُوكَ يَا رَبَّ الْوَرَى رَبَّ الْوَرَى
أَوَّلَ مَنْ نَظَّمْ هَذِي الدُّرَى
تَبَسُّعًا وَتَبَسُّعِيْنَ نَظَّمْ رَاهِ
بِالضَّمِّ وَالْبِنَاءِ لِلتَّغْيِيْنِ
وَعَبْرَ يَا الْبَغِيْجِ تَطْلُبُ
مُنَاسَبَاتٍ حَسْبَ الْإِمْكَانِ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانِي
إِلَى رَحْمَتِكَ وَسَلَامُ مُؤْمِنٍ

اللَّهُ وَالرَّحْمَنُ أَرْجُو أَنْ أَرَى
مِنْ السُّلُوكِ الْعَرَفِ فِي اثْنِي عَشْرًا
فِي عِدَّةِ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ
مِنْ غَيْرِ تَعْرِيفٍ وَلَا تَنْوِينِ
وَأَنْتَ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ أَقْرَبُ
أَلْتَمِسُ الْجَزَاءَ بِالْإِحْسَانِ
ثُمَّ صَلَاتُهُ عَلَى الْبُرْهَانِ
عَزِيزُ قُدُّوسٌ وَلِيٌّ مُهَيْمِنٌ... الخ 4

1 - سنن الترمذي، باب ماجاء في الزهادة في الدنيا، عن أبي ذر، حديث رقم: 2340

2 - صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، عن انس بن مالك، رقم الحديث 5063

3 - ديوان شعر الشيخ محمد المامي، ص 387.

4 - انظر الأنظام المباركة للشيخ محمد المامي (نشر زاوية الشيخ محمد المامي، ط الاولى)، ص 17

و يبدع الشيخ رحمه الله في التضرع لله تعالى في أشعاره الاستسقائية خاصة - وهي كثيرة - فيمتعنا بهذه القطعة الرائعة جاعلا بداية كل بيت منها بحرف من حروف آية (ادعوني أستجب لكم) [غافر/60]، مرتبة في نظم بديع، وسبك رفيع، حيث يقول فيها رحمه الله:

أَدْعُوكَ يَا خَيْرَ مَدْعُوٍّ وَمَأْمُولٍ وَمُسْتَعَاثٍ وَمَرْجُوٍّ وَمَسْئُولٍ
دُعَاءَ مُضْطَرِبٍ أَعْيَبَتْ مَذَاهِبُهُ
عَوْدًا بِرَبِّي مِنْ جَذْبٍ وَمِنْ جَرَبٍ
عَوْدًا بِرَبِّي مِنْ جَذْبٍ وَمِنْ جَرَبٍ
وَنِعْمَةً فِي بَسَاطِ الرَّهْرِ نَافِزَةٍ
تَبْلُ الْكَرِيمِ جَدِيرٌ أَنْ يَفِيضَ عَلَى
يَأْمَنُ يُجِيبُ دُعَا الْمُضْطَرِّ كَيْفَ دَعَا
أَسْبَلُ عَلَيْنَا غِيُوثًا مِنْكَ غِيُوثَ هُدًى
سَتَرًا جَمِيلًا عَلَى الرِّلَاقِ عَوْدَنَا
تَجَبَّرَتْ ثَلَمَاتُ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ
جَبْرًا بِهِ تَأْخُذُ الْأَنْعَامُ زِينَتَهَا
بَلْ أَظْهَرَ الشُّكْرُ مِنْهُ كُلُّ ذِي نَكْدٍ
لُكُنَّ الْجَمَادَاتِ يَحْكِي شُكْرَ السَّنِيهَا
كَمْ بَلَدَةٍ مَيَّتَ أَخِيَا رَبُّنَا بِحَيَّا
مَالَتْ بِفَائِحٍ نَشْرُ الْمُضْطَفَى طَرَبًا
وَاللَّيْلُ مَعَالِيهَا

والشيخ عناية خاصة بأهل بدر، فقد توسل بأسمائهم في نظمين أحدهما يعرف بالصغير، بدأه بذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم والعشرة المشهود لهم بالجنة، ثم ذكر بقية البدرين اختصارا وإجمالا مرتبا لهم على حروف المعجم، وأما النظم الكبير فقد سماه « وسيلة السعادة لمبتغي الحسن مع الزيادة »، وتميز بالتفصيل والبيان، أفرد فيه كل واحد من الصحابة المذكورين ببيت، وربما يجره الاستطراد إلى الاتيان بأبيات².

يقول رحمه الله في نظم أهل بدر الصغير:

ياربنا بجاه أهل بدر
ياربنا بجاههم وجاه
بجاههم بارك لنا في المغرب
وفي المفاتيح وفي المخاتم
وفي الوسائل وفي المقاصد
وفي المراكب وفي المضاجع
وجاه من كان عظيم القدر
كل عظيم الجاه عند الله
والعمر يا رب وفي ذا المكتب
وفي الفواتح وفي الخواتم
وفي المصادر وفي الموارد
وفي المذاهب وفي المراجع³

وكما في شعره العربي الفصيح، نجد أيضا للشيخ محمد المامي رحمه الله روائع وبدائع حسانية تنطق بعمق ربانيته و سمو روحانيته، يظهر ذلك للمتأمل في أدعيته الأثيرة، وابتهالاته الكثيرة، منها قوله متوكلا على الله سائلا إياه من فضله:

يملان من عندك ل
خلص لي دين واغفر لي
ماه من عند الل غيرك
واعطين ياسر من خيرك⁴

1 - ديوان شعر الشيخ محمد المامي، ص 76

2 - انظر شرح نظم أهل بدر المعروف بوسيلة السعادة، تحقيق الاستاذ محمد يحيى بن سيد احمد، (ط الاولى، 2017)

ص 11/10

3 - الأنظام المباركة للشيخ محمد المامي، نظم أهل بدر الصغير، ص 45

4 - انظر ديوان الشعر الحساني (لغن) ص 190

و يقول أيضا:

يملأن كان اطلب: ———اك
واحمدناك اكبل و اشكرناك
كل انفس ملي ارضك واسماك
أنعمت الايمان اكبر من ذاك
فيه منيت الانفاس اركاك
واخريف العا في سلكناك
افصلن في كثرت معطاك
اعل ذا الحاصل في اللبن
من لوك لحمر واخن
بعد النار أصوك اجن
ول ما يمكن يمين
اوجدناه اكبل طلبتن1

ويقول في الافتقار لله تعالى والتذلل له وطلب رحمته ولطفه:

فصلي فيك الحي المليك
فصل أملازم ودور ادوم
اليوم افصل من يامس فيك
والصبح افصل فيك من اليوم
و المعنى اجمالا: أنه مفتقر لله تعالى افتقارا دائما وملازما له في كل الأوقات وجميع الأحوال، وهو
افتقار لا ينقطع: ففي يومه أشد افتقارا لله تعالى من أمسه، وفي غده أكثر حاجة له من أمسه.

رابعاً: تزكية الباطن وطهارة القلب

إن جوهر التربية الصوفية هو الاشتغال بتزكية النفوس و إصلاح القلوب بالاستقامة على الطاعة، وإصلاح الباطن تخلية وتحلية. وقد اعتنى الشيخ محمد المامي عناية كبيرة بهذه الجوانب كلها، و يجد الناظر في روائعه الشعرية الشعبية والفصيحة تجليات كثيرة لهذه المعاني والمقاصد، منها قوله رحمه الله في دلالة ظاهر الإنسان على باطنه:

أوجه ول آدم مستظيك
عن سر اكبر منو يخفيه
وامع ذاك الظيك ازرك
بسمن حيلة يدرك شي فيه2

ومعنى الـ«كاف»3، أن الانسان يبدي وجهه ما في باطنه، ومهما حاول اخفاءه أو التحايل لإظهار خلاف ما يبطن فإن ظاهره لا ريب سيكشف ما يُبسر، لذلك فعلى الإنسان أن يصلح باطنه ويشغل بتزكية نفسه وتطهير قلبه، وهذا هو مناط التربية الصوفية و مقصدها الأسمى. و يصدق هذا المعنى قول الشاعر:

محيا المرء أصدق ترجمان
على كنه المغيب في الفؤاد
و يقول رحمه الله تعالى، في الوعظ والتحذير من قساوة القلب الموجبة لاتباع الشهوات:

الكلب حاس مستح
واكساه للغرظ اكارب
و اغيات سيخت تدرم
اتكرظ البار الشارب4

هنا يمثل الشيخ محمد المامي حال القلب القاسي بالبئر (الحاس)، و هو منحى واختيار حكيم في أسلوب الخطاب و استثمار المعجم البدوي في تقريب وترسيخ المعاني في نفوس المتلقين، انطلاقاً مما هو مألوف ومعروف في بيئتهم وثقافتهم، وهو ما يحقق ويعمق فهمها لديهم. يصور قساوة القلب بالبئر مرتفعة الحرارة، وهو ما عبر عنه بقوله: (حاس مستح)، ذلك أن أهل البادية لهم معرفة واسعة بأنواع وأحوال الآبار وطبيعة كل منها، لكونها المصدر الأساسي

1 - انظر ديوان الشعر الحساني (لغن) ص195

2 - انظر ديوان الشعر الحساني (لغن) للشيخ محمد المامي بن البخاري الباركي ص169

3 - يطلق هذا المصطلح على مقطع من الشعر الحساني، وأصل الكلمة صنهاجية وهو (يكيف). انظر الخلاف والاختلاف والاستخلاف ص 206

4 - انظر ديوان الشعر الحساني (لغن) للشيخ محمد المامي ص170

للتزود بالماء، ولهم في حفرها واختبار حرارتها الداخلية طرائق ووسائل متعددة، ولذلك حين يريدون اكتشاف حالة البئر الحرارية، فإنهم يعمدون إلى انزال نبات أو حيوان في عمقه ثم يستخرجونه، يُقدروا بذلك هل داخلها شديد الحرارة (مستحم) أم لا، بناء على ما يظهر من تغير لون النبات من عدمه، أو رجوع الحيوان سليماً أو ميتاً، وانطلاقاً من هذه التجربة يقررون إنزال شخص لاستكمال حفره، وإزالة البقايا الحجرية التي تحول دون تفجر الماء من باطن الأرض في البئر- وهو ما يعبرون عنه بالحسانية بقولهم: (أَجَوَ الحاس)- حتى يمتلئ ليتم استخراجها بالدلاء، و حصول الماء هنا بالبئر يعبرون عنه بقولهم (يجم الحاس).

إن الغرض إذن من تشبيه حال القلب القاسي بالبئر الشديدة حرها، هو التنبيه على سوء حال صاحبه، لأن ذلك دليل على غفلته عن ذكر الله وعن الطاعة، و تَمَادِيهِ فِي الذنوب والمعاصي، واتباعه لهواه وشهوته، وهو ما عبر عنه بقوله: (اكسَاه للغرظ اكارب)، و ههنا تشبيه

لهذه القساوة القلبية بصلابة وقوة إحدى الطبقات الصخرية في عمق الأرض أثناء حفر البئر، وهي آخر مراحل هذه العملية، إذ بعدها ينبع الماء داخله من باطن الأرض، و هذه الطبقة الصخرية هي المسماة بالحسانية (سيخت يدرم)، ويكفي دلالة على شدتها أنها تُشَتَّت و تُشْطِي (اتشطرط) آلة الحفر الحديدية المستعملة في محاولة شقها، على الرغم من كونها مصنوعة من أجود أنواع الحديد، المعبر عنه بـ (البار الشارب).

إن في هذا التصوير لبلاغة واضحة على الخطر البالغ لقسوة القلب، إذ أنها قد تضاهي في شدتها صلابة الصخرة الصماء التي لا يجدي في بترها أرفع أنواع الحديد شيئاً، بل إنه يتحطم بسبب مناعتها ومقاومتها الصلبة، و هذا الحال من القسوة الذي يصير إليه القلب هو المعبر عنه في القرآن بالرين، في قوله تعالى: (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) 1، والرين في اللغة هو الطبع والدنس والصدأ الذي يعلو السيف والمرآة 2، وفي الآية هو ما غلب على القلوب وغمرها وأحاط بها من الذنوب 3، واستحضار الشيخ لهذا المعنى القرآني مطرد في شعره كثيرًا.

خامساً العناية بالأدب الصوفي وأعلام التصوف

اعتنى الشيخ محمد المامي رحمه الله بالتراث والأدب الصوفي، و مما يدل على ذلك القصيدة التي قرّضها في التعليق على السينية المعروفة بـ "النفحات القدسية في مناقب الأربعين السادة الصوفية"، وهي قصيدة للقاضي أبي علي الحسن بن أبي القاسم التلمساني المعروف بابن باديس (ت 787هـ) 4، وقد نظمها تأثراً بكتاب «روض الناظر في مناقب الشيخ عبد القادر» 5، الذي أعاره إياه

1 - المطففين، الآية: 14

2 - لسان العرب لابن منظور: 192/13.

3 - تفسير الطبري: 286/24

4 - هو الفقيه القاضي الشهير المحدث أبو علي حسن بن أبي القاسم بن باديس، ولد وعاش بمدينة قسنطينة بالجزائر، و روى عن ناصر الدين المشذالي وابن غريون البجائي، وابن هشام النحوي صاحب المغني. له تأليف منها: (أوجز السير لخبر البشر) وهو شرح "مختصر ابن فارس" في السيرة، و (النفحات القدسية) المتضمن لقصيدته السينية. انظر ترجمته في كتاب الوفيات لابن قنفذ القسنطيني، معجم زمني للصحابة وأعلام المحدثين والفقهاء والمؤلفين، تحقيق: عادل نويهض (دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة: الرابعة، 1403 هـ - 1983 م) ص 377/376.

راجع أيضاً كتاب: " تعريف الخلف برجال السلف" لأبي القاسم محمد الحفناوي، (مطبعة بيبير فوقتانة الشرقية بالجزائر، 1324هـ/1906 م) ص 119

5 - لا تذكر المصادر الكتاب بهذا الاسم، وإنما عناوين قريبة منه، منها: (روضة الناظر في درجة الشيخ عبد القادر) للمجد

شيخ بيت المقدس صلاح الدين العلائي مدة إقامته ضيفا عند الشيخ، فلما قفل راجعا إلى الجزائر جالت بخاطره وهو ما بين مصر والشام ذكريات هذا الكتاب، فحَن إلى ذكر الأولياء الذين تضمن الكتاب ذكرهم وجادت قريحته بهذه المنظومة التي ضمنها أسماء الأولياء، والإشارة إلى كراماتهم وحكاياتهم تبركا بها وتوسلا بهم لبلوغ مرضاة الله تعالى) 1.

وقد أشار لذلك في كلامه الذي نقله عنه شارح القصيدة، أبو العباس أحمد بن الحاج البيدي التلمساني 2 (المتوفى سنة 930هـ/1523م)، وسمى شرحه: (أنيس الجليس في جلو الحناديس عن سينية ابن باديس).

قال ابن باديس رحمه الله: «وبعد فإنه لما وقفت بالقدس الشريف على كتاب روض الناظر في مناقب الشيخ سيدي عبد القادر، وسرحت البصر في ما احتوى عليه من المآثر والمفاخر، وكنت على قدم السفر والارتحال، علق بالخاطر بعض ما تضمنه من كرامات أكابر الرجال، فجرى على اللسان في أثناء الطريق إلى مصر كلمات تشير إلى طرف من كراماتهم، وما أظهره الله من بركاتهم، وشاهده الثقات من تصرفاتهم، ففيه من درر كلامهم ما دل على رفيع مقامهم، وأقل مراتب الناظر فيه المحبة لهم، والتصديق بأحوالهم، وكفى بذلك وسيلة التعلق بأذيالهم، فالمرء مع من أحب إن شاء الله تعالى» 3.

جمع ابن باديس في قصيدته هذه أسماء الأربعين السادة الصوفية، مبتدئا بالشيخ عبد القادر الجيلاني، ذاكرا فضله ومنزلته بين الأولياء والعارفين، معددا أسماء هؤلاء السادة الأقطاب الأربعين، ذاكرا كراماتهم ومناقبهم أجمعين. يقول في مطلعها:

ألا مل إلى بغداد فهي منى النفس	وحدث بها عمن ثوى باطن الرمس
من أبدالها أقطابها علمائها	أولي الكشف والعرفان والبسط والأنس
إلى ذكرهم يرتاح قلبي وتنجلي	همومي وما يغشى الفؤاد من الدعس
و بالجيلي فابداً فذاك قطبهم	ومنه استمدوا في الإضاءة والقبس

وأما قصيدة الشيخ محمد المامي في التعليق على السينية فجاءت موافقة لها في الوزن والروي 4، وهي من تراثه المفقود حيث لم يعثر منها إلا على البيتين التاليين، من بحر الطويل:

عليك بألفاظ تحل توابتا	ختمن على كنز ابن باديس بالأنس
وفي الرمز بشر ظاهر لا مدلس	بريب عطاء الغبر عكس ذوي الرمس 5

الفيروز آبادي، و كتاب (نزهة الناظر في مناقب الشيخ عبد القادر) للإشبيلي، و (نزهة الناظر في مناقب الشيخ عبد القادر) لابن هبة الله الهاشمي البغدادي.

انظر: خلاصة المفاخر في أخبار الشيخ عبد القادر، وهو تنمة روضة الرياحين في حكايات الصالحين، لعبد الله بن

أسعد اليافعي (ت 767هـ)، تحقيق وتعليق الشيخ أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، ص 6

1 - انظر كتاب " أنيس الجليس في جلو الحناديس عن سينية ابن باديس لأبي العباس أحمد بن بن الحاج البيدي التلمساني المتوفى سنة 930هـ/1523م"، تقديم وتحقيق الأستاذ الميسوم فضة (وزارة الثقافة، الجمهورية الجزائرية /دار

الخليل القاسمي للنشر والتوزيع / 2008) ص 12

2 - احمد بن محمد بن عثمان المعروف بان الحاج البيدي التلمساني، أديب لغوي منطقي ناظم من فقهاء المالكية. من آثاره (أنيس الجليس في جلو الحناديس عن سينية ابن باديس)، و (شرح البردة)، ونظم عقيدة السنوسي الصغرى لم يكمله. انظر معجم أعلام الجزائر من صدر الاسلام حتى العصر الحاضر، عادل نويهض (مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، ط الثانية 1980 /بيروت لبنان) ص: 67

3 - انظر كتاب " أنيس الجليس في جلو الحناديس عن سينية ابن باديس لأبي العباس أحمد بن بن الحاج البيدي التلمساني المتوفى سنة 930هـ/1523م"، تقديم وتحقيق الأستاذ الميسوم فضة (وزارة الثقافة، الجمهورية الجزائرية /دار

الخليل القاسمي للنشر والتوزيع / 2008) ص 13

4 - انظر ديوان الشيخ محمد المامي ص: 99

5 - انظر ديوان الشيخ محمد المامي ص: 631

ولم يكن الشيخ محمد المامي متفردا بهذه العناية والاهتمام الخاص بسينية ابن باديس، فقد عرف عند الشناقطة تعظيمهم لشأنها، ومن ذلك ما ذكره صاحب "فتح الشكور" عن الإمام سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي: (وكان معظما للأولياء والصالحين، أخذته الحمى يوما فأخذ البادية ووضعتها عند رأسه، وقال لها: إن استطعت أن تأتيني مع هؤلاء فتعالني) 1. و فضلا عن ذلك فقد اهتم الشيخ أيضا بأعلام التصوف والولاية المشهورين من الأقطاب والصالحين، و توسل واستسقى ببركتهم طلبا للغيث، ومن هؤلاء السادة الأعلام: الشيخ سيدي امحمد الكنتي 2، فقد توسل الشيخ محمد المامي بهذا القطب الرباني الكبير، في قطعة مشهورة ومبثوثة في ديوانه الحساني، مشيرا إلى أنه دفين منطقة « فصك » بموريتانيا، مثنيا عليه و عليه:

يا أمرباط فصك اتلاكات	عند راصك من كل اشوار
جاي من نكجير أشتات	أجاي من سهوت لثنا
غوٲ كيفك ماٲ محكوم	كُون لِحْصارت كيف اليوم
حَصْر اٲمعليم الشغْموم	أطاع حق الظيف الخوار
ألا تُل ينفع ش معلوم	أبيهر من رَحِست لَخبار 3

لقد كانت للشيخ سيدي امحمد الكنتي منزلة خاصة عند الشيخ محمد المامي، حيث يذكر محمد الخضر بن حبيب في مفاده أنه (زار الكنتي جار فصك لكتب الأصول فاجتمعت له منها ليلته مائة وعشرون وتدبرها وحفظها، ونظم الميزابية عنده، وما أجودها! و أخبر بخمسة عشر كتابا دخلت أرضه فيها ما في المائة والعشرين لتكون مصداقا لما حفظ) 4. إن هذه الكرامات التي تحصلت للشيخ محمد المامي ببركة زيارته لهذا القطب، جعلته دائم التوسل به حيث يقول في الاستسقاء به و ببعض الصالحين، ومنهم والده البخاري بن حبيب الله بن برك الله فيه:

يُمْلان بالبخراري	واحمد يعقوب ال كار
وابشكرض 5 ذاك الجار	فخلالك واولاد امت
اتعجل بالغيث السار	وامل من هون الزمبت 6

- 1 - انظر فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور ص 174
- 2 - يذكر صاحب الحسوة البيسانية في علم الأنساب الحسانية أنه عاش في النصف الأخير من القرن الثامن، والثالث الأول من القرن التاسع الهجري، أي انه ولد أواخر 770هـ أو 780هـ وتاريخ وفاته قريب من 830-840 هـ راجع " الحسوة البيسانية في علم الأنساب الحسانية "، تأليف محمد صالح بن عبد الوهاب الناصري، تحقيق ودراسة الدكتور حماد الله ولد السالم، كلية الآداب جامعة انواكشوط موريتانيا. دار الكتب العلمية / بيروت لبنان. ص 97
- 3 - انظر ديوان الشعر الحساني للشيخ محمد المامي، ص 202.
- 4 - انظر مفاد الطول والقر على نظم المختصر ص 26.

5 - شكرض (بكسر الشين وتشديد الصاد المفتوحة)، هو لقب سيدي امحمد الكنتي.

6 - انظر ديوان الشعر الحساني للشيخ محمد المامي، ص 204

خاتمة:

وختاماً يتأكد من خلال النصوص المدروسة أن التراث الصوفي للشيخ محمد المامي و ما توفر حوله من إشارات متضمنة في ديوانيه الفصيح والحساني لزال مجالا بكرا للدراسة والبحث، مما يستدعي ضرورة تركيز الجهد حوله و إفراده ببحوث معمقة تكشف جوانب أخرى أكثر ثراء و غنى في مختلف مناحيه الروحية، اللغوية والبيانية. و الحق أن هذا الأمر يسري على عموم تراث الشيخ محمد المامي الذي ما زال كثير منه ينتظر الدراسة و الإهتمام العلمي والبحثي الجدير به من لدن المهتمين والدارسين المتخصصين في ميادين البحث والتحقيق والله أسأل أن يكون هذا البحث قد وفى شيئاً من حق هذا العالم علينا، وحقق المبتغى والمقصود.

من مظاهر اللهجات العربية القديمة في القراءات القرآنية والعاميات العربية المعاصرة

الدكتور عبد الرحمن
أخيارهم

أستاذ اللسانيات - المعهد العالي المهني للغات
والترجمة - نواذيبو / موريتانيا

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم سيدنا محمد، وآله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

لقد وصلت إلينا العربية عن طريق الشعر الجاهلي والقرآن الكريم والحديث النبوي وآثار العصور الإسلامية، وكان للقرآن الكريم الأثر الأكبر في ترسيخها وحفظها وبقائها، فبحفظ القرآن حفظت هذه اللغة، وتعدّ بذلك لغة كل المسلمين، واللغة الوحيدة التي يجوز التعبد بها في بعض شعائر الإسلام، كالصلاة، وقد اشترط بعض الفقهاء في صحة خطبة الجمعة الحمد والثناء على الله والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم باللغة العربية، معتبرين ذلك أقل ما يجزئ، ولذا أخذت العربية مكانا كبيرا في الثقافتين العربية والإسلامية على حد السواء.

ومن المعلوم أن القرآن نزل بلسان عربي مبين، وذلك في كثير من الآيات، قال تعالى: «إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون» ويكاد يتفق الباحثون أن هذا المفهوم يشمل جميع لهجات قبائل العرب دون تخصيص، وقد أشار إلى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في أكثر من مرة، حيث قال «إن القرآن نزل بسبعة أحرف» مشيرا -هنا- إلى القراءات القرآنية، وهذه القراءات ما هي إلا تجسيد لاختلاف لهجات العرب، فما هي اللهجة؟ وإلى أي حد يمكن القول إنَّ القراءات القرآنية كانت تعكس الواقع اللغوي الذي كان سائدا في الجزيرة العربية؟ وهل نزل القرآن الكريم بجميع قائل العرب؟ ثم أخيرا إلى أي حد يمكننا القول إن العاميات العربية المعاصرة، تجسد مظهرا من مظاهر اللهجات العربية القديمة.

وسنحاول الإجابة على هذه الأسئلة وغيرها في هذا المقال؛ وذلك ضمن، في بحثين نخصص أولهما لاستنطاق العنوان من خلال تعريف أهم المصطلحات التي وردت فيه، في حين نعالج تأثير اللهجات العربية القديمة في القراءات القرآنية، والعاميات (اللهجات) العربية المعاصرة في ثانيهما.

المبحث الأول: استنطاق العنوان واستنباطه:

المبحث الثاني: أمثلة من مظاهر اللهجات القديمة في القراءات والعاميات

المبحث الأول: استنطاق العنوان واستنباته:

يقوم عنوان البحث على مجموعة من الكلمات، سنقتصر على تعريف ركائزها الثلاثة: «مظاهر، اللهجات، القراءات القرآنية».

أولاً: المظاهر: ج مظهر، وهو الصورة التي يبدو عليها الشيء والعلاقة، وأظهر الشيء بينه، ويقال أظهر فلاناً على السر أطلعه عليه وفلان القرآن وعليه قرأه على ظهر لسانه¹، والمظهر -هنا- هي العلامة وصورة اللهجات العربية القديمة التي تظهر جلية في القراءات القرآنية والعاميات العربية المعاصرة في البلدان العربية؛ لتبرز العلاقة بينهما.

ثانياً: تعريف اللهجات

1. اللهجات: جمع لَهْجَة وَلَهْجَة واللَّهْجَة، لغة: عرفها القدماء عدة تعريفات، حيث جاء في لسان العرب: اللَهْجَة بالتسكين وَلَهْجَة بالفتح: طرف اللسان وجرس الكلام والفتح أعلى، ويقال فلان فصيح اللهجة وهي لغته التي جبل عليها، فاعتادها ونشأ عليها، وفي الحديث «ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر»².

2. اللهجة اصطلاحاً: نلاحظ أن القدماء كانوا يطلقون على اللغة أيضاً على اللهجة، بمعنى أنهم يعتبرون الكلمتين مترادفتين، ولذا يحسن بنا قبل الخوض في موضوع اللهجات العربية القديمة ومظاهرها في القراءات القرآنية.. أن نتحدث ولو بشكل موجز دون أن نخوض كثيراً في التفاصيل الجزئية عن الفرق بين اللهجة واللغة، ومكامن التلاقي والتلاقي بينهما، مبينين آراء القدماء والمحدثين، وذلك على النحو الآتي:

أ - مفهوم اللغة واللهجة عند القدماء:

عندما يتتبع الباحث تعريفات القدماء لكل من اللغة واللهجة؛ يلحظ دون عناء كثير أنهم لم يكونوا يفرقون بين اللغة واللهجة في حديثهم عن الفروق بين لهجات القبائل؛ حيث يستخدمون مصطلح «اللغة» بدل مصطلح «اللهجة» التي كانوا يعرفونها بطرف اللسان، وجرس الكلام ولغة الإنسان التي جبل عليها واعتاد عليها³.

ونجد ذلك عند الخليل ابن أحمد الفراهيدي، حيث عرّف اللغة، بقوله: اللغة واللغات واللغون: اختلاف الكلام في معنى واحد... والفعل من ذلك لغا يلغوا: تكلم⁴، ثم يعرف اللهجة بأنها «يقال فلان فصيح اللهجة واللّهجة: لغته التي جُبل عليها فاعتادها»⁵.

ويمكن أن نكتشف ظاهرة إطلاق مصطلح «اللغة» على مصطلح «اللهجة» عند القدماء بوضوح من خلال كلام العالم اللغوي أبو الفتح عثمان بن جني (ت: 392هـ) الذي يعد-في نظرنا- من أكثر اللغويين القدماء فهماً للدرس اللغوي؛ وذلك من خلال علو كعبه وتبحره في العلوم اللغوية، وأطروحاته اللسانية التي كان دائماً يرفض فيها التفاضل بين اللغات، لكونه يعتقد أن أصحاب اللغة (المتكلمين بها) لهم الحق وحدهم في تحوير ظواهر لغتهم، كما يرى أحقية المتكلم في صنع قواعد لغته دون رقيب؛ فيعرف اللغة: بأنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم⁶، ونجده عقد باباً في كتابه «الخصائص» بعنوان: «باب اختلاف اللغات وكلها حجة» يقول فيه: «ألا ترى أن لغة التميميين في

- 1 - المعجم الوسيط، مادة (ظهر)
- 2 - لسان العرب؛ لابن منظور مادة: (لهج)
- 3 - ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة (لهج)
- 4 - الخليل، العين، مادة (لغو)
- 5 - الخليل، العين، مادة (لهج)
- 6 - ابن جني، الخصائص، 33/1.

ترك إعمال (ما) يقبلها القياس، ولغة الحجازيين في إعمالها كذلك؛ لأن لكل واحد من القومين ضرباً من القياس يؤخذ به ويخلد إلى مثله، وليس لك أن ترد إحدى اللغتين بصاحبها؛ لأنها ليست أحق بذلك من ربيعتها، لكن غاية مالك أن تتخير إحداهما فتقويها على أختها وتعتقد أن أقوى القياسين أقبل لها، وأشد أنساً بها، فأماً ردُّ إحداهما بالأخرى فلا، أولاً ترى إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم: (نزل القرآن بسبع لغات كلها كافٍ شافي)... فالناطق على قياس لغة العرب مصيب غير مخطئ وإن كان غير ما جاء به خيراً منه»¹.

ب - اللغة واللهجة عند المحدثين:

لم يجار المحدثون القدماء في عدم التفريق بين اللغة واللهجة، نتيجة لتطور الدراسات اللغوية الحديثة؛ فقد رأى المحدثون ضرورة التفريق بين اللغتين، فعرفوا اللهجة بأنها تنوعات لغوية ترتبط ببيئة معينة تنتمي إلى مجموعة أكبر وأوسع نطاقاً، وهذه المجموعة الكبرى هي التي يطلق عليها «اللغة».

ويوضح الدكتور إبراهيم أنيس رأي المحدثين مبيناً أن التقسيم اللهجي، هو ذلك الفرق الذي يلمسه سكان إقليم، مع سكان إقليم آخر مجاور له، علماً أن الإقليميين يتكلمون في الوقت نفسه لغة واحدة أصلاً لكل اللهجتين، حيث قال: «اللهجة: مجموعة من الصفات اللغوية، تنتمي إلى بيئة خاصة، وبشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة، وبيئة اللهجة، هي جزء من بيئة أوسع وأشمل وتضم عدة لهجات، ولكل منها خصائصها، ولكنها تشترك جميعها في مجموعة من الظواهر اللغوية التي تيسر اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض، وفهم ما قد يدور بينهم من حديث، فهماً يتوقف على قدر الرابطة التي تربط بين اللهجات»².

ولعدم وجود حدود واضحة تفصل بين بعض اللهجات التي تنتمي عادة إلى لغة واحدة، يقول جاستون باري في إطار حديثه عن الفرنسية الشمالية والجنوبية: «ليس هناك أي حد حقيقي، يفصل بين فرنسي الجنوب وفرنسي الشمال، فصور المتكلم الشعبي عندنا، تمتد على أرض الوطن، من طرف إلى آخر، كأنها بساط نضجت ألوانه المتنوعة في كل نقطة منه، بعضها على بعض، وأصبحت درجات لا يكاد يتميز بعضها من بعض»³.

ونرى أن طرح باري هو الذي تنادي به «نظرية الأمواج» ليوهانت شميت (Johann Schmidt) التي تقرر أن كل ظاهرة لغوية تمتد على سطح القطر امتداد الأمواج، وأن كل موجة تقديرها التدريجي غير المحسوس، ليس لها حد معين، ويستند اشميت في دراسته على لغات الهندو أوروبية، حيث الخطوط التي تفصل بين كل خاصية لغوية وأخرى لا تنطبق على الخطوط التي تفصل بين لغة ولهجة تنتمي إليها⁴.

وقد ردَّ الدكتور أنيس فريجة، في كتابه «اللهجات العربية وأسلوب دراستها» على من اعتمد في التفريق بين اللغة واللهجة على معيار الأدب، واعتبر أن اللغة لها أدب، فذهب أن هذا الزعم مردود على قائله ولا يعد حجة؛ لأنَّ هناك لهجات كثيرة لها أدب، مثل لهجات الزوج والهنود الحمر، بل كل اللهجات لها أدب. وهناك من اعتبر أن اللغة هي التي تغاير أخرى بأصواتها وبمفرداتها مغايرة لا يستطيع أن يتفاهم زيد وعمر، وهذا الزعم مردود، بخلاف الواقع المعاش بين بعض اللغات ولهجاتها، وهناك من رأى أن اللهجة مجرد تهقير لغوي، وقد وقع في ذلك كثير من علماء العرب اللغويين قديماً وحديثاً؛ لكن أثبتت دراسة اللهجات أن اللهجة ليست تهقيراً لغوياً، والحقيقة التي لا مراء فيها،

1 - المرجع نفسه، 10/2.

2 - في اللهجات العربية، ص 11.

3 - فندريس، اللغة، 312.

4 - المرجع نفسه، والصفحة.

هي أن الفارق بين لغة ولهجة، يقوم أساساً على أسباب خارجة عن القضايا اللغوية، تعد لغة قومية رسمية، وتعد لغة أخرى لهجة غير رسمية، وقد تكون هذه الظروف أو الأسباب ناتجة عن عوامل واعتبارات سياسية أو دينية أو اجتماعية¹.

وقد اجتمعت هذه الأسباب في لغة قريش، باعتبارها اللغة المعيار (الفصحى) وجعلها اللغة المشتركة بين أدباء قبائل العرب جميعاً، ينظمون بها شعرهم ويعبرون بها عما يجيش في صدورهم في مواقف مختلفة عاطفية وجدية وهزلية... إلخ، وذلك للمكانة الكبيرة التي تحتلها قريش من بين قبائل العرب، دينيا، حيث هي صاحبة الحج، والتجارة التي تروج في مواسم الحج، والأسواق الأدبية، كسوق عكاظ والمجنة، وغيرهما.

ج- الفصحى ولهجة قريش:

تعرف الفصحى بأنها هي اللغة العربية المشتركة بين أدباء هذه القبائل جميعاً، ينظمون بها شعرهم ويعبرون بها عما يجيش في صدورهم في ساعات الجد، كمواقف الخطابة، وغيرها. ولكننا لا نجانب الصواب إذا قلنا إنَّ الفصحى، هي نفسها لهجة قريش؛ وذلك لأنها تضرب في مميزات الفصحى، بسهم وافر؛ إذ لم يجد الباحثون مما يخالف الفصحى في لهجة قريش (لغة قريش) إلا القليل، ومنه أنها لم تكن تحقق الهمزة في مثل «من - امن ومن أوتي» (رواية ورش عن نافع) في حين اختارت الفصحى تحقيق الهمز من لهجات تميم ونجد، فيقال: «من ءامن ومن أوتي» (قراء عاصم ورواية قالون عن نافع، وغيرهم).

ولذا لا نعجب إذا رأينا من يقول إنَّ الفصحى: لهجة قريش، وذلك لمكانتها وعظمتها في نفوس العرب جميعاً، فأقروا بأنَّ لغة (لهجة) قريش أعلى لغات العرب فصاحة، قال ابن فارس (ت: 395هـ): «أخبرني أبو الحسين محمد بن عباس الخشكي، قال حدثنا إسماعيل بن أبي عبيد الله قال:

أجمع علماءنا بكلام العرب، والرواة لأشعارهم، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومخالهم: أن قريشاً أفصح العرب السنة وأصفاهم لغة [...] وكانت قريش، مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب [...] ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عننة تميم ولا عجرفة قيس ولا كشكشة أسد ولا كشكشة ربيعة، ولا الكسر الذي تسمعه من أسد وقيس، مثل: تعلمون ونعلم، مثل: شعيير وبغير»².

وقد روى السيوطي عن الفراء، أنه قال: «كانت العرب تحضر الموسم في كل عام، وتحج البيت في الجاهلية، وقريش يسمعون لغات جميع العرب، فما استحسنته من لغاتهم تكلموا به، فصاروا أفصح العرب، وخلت لغاتهم من مستبشع اللغات، ومستقبح الألفاظ»³.

ويعني هذا الكلام أن لغة قريش، هي الأقرب إلى الفصحى على الأقل، ويؤكد ذلك ما روي بروايات عن الجاحظ والأصمعي أن رجلاً من «جرم» لم تذكر المصادر اسمه، كان في مجلس معاوية بن أبي سفيان، فسأله من أفصح العرب، فقال قريش «ارتفعت في فصاحتها عن عننة تميم، وتلتله بهراء، وكشكشة ربيعة، وكسكسة هوازن، وتضع قيس، وعجرفة ضبة»⁴.

ويتضح مما سبق أن العلاقة بين اللهجة واللغة، هي علاقة عام بخاص؛ لأن بيئة اللهجة هي جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عدة لهجات، لكل منها خصائصها، ولكنها تشترك جميعاً في مجموعة من الظواهر اللغوية، التي تيسر اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض، وفهم ما قد يدور بينهم من حديث يتوقف على قدر الرابطة التي تربط بين اللهجات التي تتوحد جميعاً تحت راية اللغة الأم المشتركة.

- 1 - أنيس فرحة، اللهجات العربية وأسلوب دراستها، ص 79 وما بعدها.
- 2 - الصاحب في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ص 28.
- 3 - السيوطي، المزهري 221/1.
- 4 - السيوطي، المزهري 211/1.

ومن ثم يمكننا القول إن اللغة المشتركة تتميز بخاصيتين لا تتوفر في اللهجة المرتبطة بالبيئة، هما: أنها تشتمل على مستوى لغوي أرقى من لهجات الخطاب في غالب الأحوال، ويتخذها الناس مقياساً لحسن القول وإجادة الكلام. أن السامع لا يستطيع أن يحكم على المنطقة التي ينتمي إليها المتكلم من خلال ألفاظه، بل يشعر كل من السامع والمتكلم أنها ملك للجميع¹. ونخلص إلى القول إن العلاقة بين اللغة واللهجة، هي علاقة ما بين الفرع (اللهجة) بالأصل، (اللغة)، ونلاحظ أن الحيرة التي وقع فيها الباحثون المحدثون وتباين آرائهم حول الفرق بين اللغة واللهجة، ناتج عن عدم وضوح العلاقة بين بين المصطلحين في أذهان اللغويين القدماء، وذلك لأنهم كانوا عندما يشيرون إلى الفروق بين لهجات القبائل يستخدمون مصطلح «اللغة» بدل مصطلح «اللهجة» التي كانوا يعرفونها بطرف اللسان، وجرس الكلام ولغة الإنسان التي جبل عليها واعتاد عليها.

ثالثاً: مفهوم القراءات القرآنية

القراءات ج قراءة، والقراءة القرآنية هي النطق بألفاظ القرآن الكريم بالطريقة التي نطقها النبي صلى الله عليه وسلم أو أقرها، ونسبت إلى أحد القراء المعروفين بسند صحيح متواتر، موافقة للعربية ومطابقة للرسم العثماني، تجسيدا لكلامه صلى الله عليه وسلم: «القرآن نزل بسبعة أحرف» والقراءات علم يختص بالمختلف فيه من قراءات ألفاظ القرآن الكريم، وقد عرّفها محمد بن عبد الله الزركشي (ت: 794هـ) بأنها «اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في الحروف وكيفتها من تخفيف وتشديد وغيرها»².

وقد اشترط كل من ابن الجزري³، والديمياطي (ت: 1117هـ)⁴، في تعريفيهما للقراءة القرآنية، شرطي النقل والسماع عن الثقة؛ حيث يقول ابن الجزري: القراءات علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها معزواً لناقله، ويعرفها الديمياطي تعريفاً أكثر وضوحاً، وتفصيلاً؛ حيث يقول: «القراءات: علم يعلم منه اتفاق الناقلين لكتاب الله تعالى، واختلافهم في الحذف والإثبات والتحريك والتسكين والفصل والوصل، وغير ذلك من هيئة النطق والإبدال وغيره، من حيث السماع»⁵.

رابعاً: مفهوم العاميات العربية المعاصرة:

نقصد بالعاميات العربية المعاصرة، تلك اللهجات العربية المستعملة حالياً في جميع أقطار العالم العربي، مثل اللهجة الحسانية واللهجة المغربية واللهجة المصرية واللهجة العراقية ولهجة الخليج العربي... إلخ، ومن الصعب تحديد الحدود الفاصلة بين هذه اللهجات، حيث تتعدى دائماً الحدود الجغرافية للبلدان، ويقع عادة تداخل بين اللهجات في المناطق الحدودية (تنطبق عليها نظرية الأمواج، -التي ذكرنا سابقاً-) وهي تنتمي جميعها إلى اللغة العربية الفصحى؛ إلا أنها تخلت في مجملها عن خاصية «الإعراب» التي تعد من أهم خصائص الفصحى.

1 - إبراهيم أنيس، مستقبل اللغة العربية المشتركة، ص 5.

2 - عبد الهادي الفضيلي، القراءات القرآنية؛ تاريخ وتعريف، ص 67.

3 - مؤلف كتاب: "النشر في القراءات العشر"

4 - مؤلف كتاب: "إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر"

5 - عبد الهادي الفضيلي، القراءات القرآنية؛ تاريخ وتعريف، ص 68.

المبحث الثاني: أمثلة من مظاهر اللهجات القديمة في القراءات والعاميات العربية

لقد كانت العربية في جزيرتها تتكلم لهجات عربية مختلفة، ويجد الباحث في تلك اللهجات أنها تختلف في مسائل عدة، يمكن إجمالها في الآتي:

الاختلاف في الحركات، مثل تعلم بفتح التاء وتعلم بكسرهما ونستعين ونستعين... إلخ

الاختلاف في الهمزة، فمن العرب من يحققها ومنهم من ينقلها ومنهم من يسهلها ويجعلها بين بين، مثل الأرض والآرض.. أئمة وأئمة ومن ذلك «هيت لك» هَيْتَ لك هَيْتَ لك... إلخ.

الاختلاف في الحذف والإثبات، بعض قبائل العرب، تقول أبا الحكا تريد أبا الحكم... إلخ.

الاختلاف في إبدال بعض الحروف، مثل أعطى، سمع بعض قبائل العرب تقول لها أنطى، يبدلون العين نونا، وبعضهم يبدلون الهمزة عينا، يقولون: «عَنْ وَأَنْكَ» في «أَنْ» و«عَنْ» وبعضهم يبدلون الكاف شيئا، يقولون: «لَبَيْشْ» في لبيك... إلخ.

الاختلاف في الإعمال، مثل بعض العرب، الحجازيين، تعمل «ما» النافية للجنس والبعض الآخر يهملها، مثل قبيلة تميم.

الاختلاف في تفخيم وترقيق الراء واللام.

الاختلاف في الفتح والإمالة.

الاختلاف في صيغ الفعل.

وغير ذلك من مظاهر اختلاف لهجات العرب، وقد أطلق على بعض هذه اللهجات أسماء تميزها عن غيرها، في حين اكتفي بنسبة بعضها إلى القبيلة التي امتازت به أو المكان الذي انتشرت فيه، وسنبين ذلك في النقاط الآتية، مبرزين مظهر اللهجة في القراءات والعاميات العربية.

الاستنطائية

الاستنطائية، وهي عبارة عن جعل العين الساكنة نُونا إذا جاورت الطاء، ولم تقدم المصادر لهذه الظاهرة اللغوية سوى مثالا واحدا، وهو «أنطى» بدلا من «أعطى» «أنطيته: أعطيته» وتنسب هذه اللهجة إلى قبائل: سعد ابن أبي بكر، وهذيل والأزد والأنصار وقيس.

ومن مظاهر اللهجة الاستنطائية في القراءات القرآنية، ما ذكره القرطبي من قراءة الحسن وطلحة بن مصرف: «إِنَّا أَنْظَيْنَاكَ الْكُوْثَرَ» بالنون؛ وروته أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ وهي لغة في العطاء؛ أنطيته: أعطيته¹، وفي حديث أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «لا مانع لما أنطيت ولا منطى لما منعت»²، «واليد المنطية خير من اليد السفلى»³، ومنه قول الأعشى:

جِيَاذَكَ فِي الْقِيْظِ فِي نَعْمَةٍ
تُصَانُ الْجِلَالُ وَتُنْطَى الشَّعِيرَا⁴

ولا تزال هذه الظاهرة تسمع حتى الآن في بعض اللهجات العربية المعاصرة، ففي العراق مثلا يقولون: «أنطينا أوقاتنا وأنطينا أموالنا وأنطينا كل شيء من أجل الحرية ضد الاستبداد» وفي بعض صحاري مصر، وفي الحسانية، يقولون في بعض الاستعمالات «مانطيك شي» لكن يعد هذا الاستعمال من أفصح الاستعمالات الحسانية؛ لأن عامتهم تقول: «أعطيني ذا».

- 1 - الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج 22/ ص 519.
- 2 - أخرجه الطبراني في الكبير، 23 (862).
- 3 - ابن الأثير، النهاية، ج 5/ ص 67.
- 4 - الإبدال لأبي الطيب، 313/2، وفي دوانه، ص 99، رواية تعطي، بدلا من تنطي، نقلا عن: رمضان عبد التواب، فصول في فقه اللغة، ص 120.

ومن الملاحظ أن المصادر العربية لم ترو من «الاستنطائية» إلا هذه الكلمة (أعطى، أنطى) بخلاف كلمات كثيرة تنطبق عليها نفس القاعدة، مثل: يَغطش، يَغطل، مَغطر وغيرها. وهناك من حاول تفسير هذه الظاهرة بأن العين قبلت نوًا، وهذا التفسير غير وارد لأنّ الصوت لا يقلب إلى صوت آخر، إلّا إذا كان بينهما تقارب في المخرج أو الصفة. وقد حاول دكتور إبراهيم السامرائي تفسير هذه الظاهرة، بقوله: «وملاك الأمر في هذه النون، أنّها لم تكن مقابلة للعين، في أعطى، وإنّما جاءت من أنّ الفعل كان «أتى» بمعنى «أعطى» ثم ضعفت فصارت «أتى» بتشديد التاء، والمعلوم أن فك الإدغام في العربية واللغات السامية عمومًا، يقتضي إبدال النون بأحد الحرفين المتجانسين، كما نقول في العربية «جندل» وهي جدل بتشديد الدال، وهذا كثير معروف»¹.

الإضجاع أو التضجعية

التضجع لغة: التباطؤ في الأمر، ويطلق الإضجاع عند أهل التجويد على الإمالة، وهي تجانس الصوت بين الفتحة [a] والكسرة [i] والألف [aa] والياء [ii] وذلك لأنها انحراف عن أصل الشيء إلى جانبه، قال ابن فارس: «الميل: الميم والياء واللام: كلمة صحيحة تدل على انحراف في الشيء إلى جانب منه»². وقد عرّف ابن الجزري «الإمالة» اصطلاحاً بقوله: «والإمالة: أن تنحو بالفتحة نحو الكسرة وبالألف نحو الياء كثيرا، وهو المحض، ويقال له الإضجاع، ويُقال له التبطُّح، وربما قيل له الكسر أيضا، وبين اللفظين، ويقال له التقليل والتلطيف، ويُن بين، فهي بهذا الاعتبار تنقسم إلى قسمين؛ إمّا شديدة وإمّا متوسطة، وكلاهما جائز في القراءة، جار في لغة العرب...»³. نلاحظ في هذا الكلام تصريح ابن الجزري بوجود الإمالة في لهجات العرب، مثل وجودها في القراءات القرآنية، فكثيرا من القراءات عندها الإمالة، بعضها إمالة صغرى، رواية ورش، وقالون عنده الوجهان، والأشهر الفتح، وبعضهم عنده إمالة كبرى مثل ابن كثير. وتنسب لهجة الإضجاع إلى عدد من قبائل العرب، مثل: قيس وتميم وأسد وعامة أهل نجد⁴. وإذا رجعنا إلى العاميات العربية المعاصرة، نلاحظ مظاهر التضجعية في الحسانية، يقولون: abdè: أبدى كلمة للنفي، لا لن أفعل ذلك أبدا، elhè إلهي: دعوة لابتعاد، و ellè ألى: استغراب.

التثنية

التثنية وهي عبارة عن كسر حرف المضارعة، فيقال نعلم وتعلم.. بدلا من نعلم وتعلم... إلخ، وهي لغة قبيلة «بهراء» لكن عزاها ابن منظور لكثير من قبائل العرب غير بهراء، فقال: «وتعلم بالكسر لغة قيس وتميم وربيعة وعامة العرب، وأما أهل الحجاز وقوم من أعجاز هوازن وأزد السراة، وبعض هذيل، فيقولون تعلم، والقرآن عليها، وزعم الأخفش أنّ كل من ورد علينا من الأعراب، لم يقل إلّا تعلم بالكسر، ويقول الفرّاء: إنّ النون في نستعين مفتوحة في لغة قريش وأسد، وغيرهم يكسرها»⁵. ومن أمثلة التثنية في الشعر العربي قول حكيم بن معية الربيعي في الرجز: لوقلت ما في قومها لم تيشم يفضّلها في حسبٍ وميسم⁶. وروى ابن جني عن أعرابي من بني عقيل بيتا كسر فيه الهمزة «أخاف» فقال:

- 1 السامرائي دراسات في اللغة، 217، ورمضان عبد التواب، فصول في فقه اللغة، ص 123.
- 2 - ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة (ميل)
- 3 - النشر في القراءات العشر، تحقيق محمد علي الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت، ج2/ص 30.
- 4 - رمضان عبد التواب، فصول في فقه اللغة، ص 121.
- 5 لسان العرب، مادة (تثنتل).
- 6 - رمضان عبد التواب، فصول في فقه اللغة، ص 124.

فَقَوْمِي هُمْ تَمِيمٌ يَا مُمَارِي
وقد لا حظ الباحثون أنَّ هذه الظاهرة قديمة، لكونها توجد في الكثير من اللغات السامية، مثل
العبرية والسريانية والحبشة، وغيرها، وبقيت آثار ظاهرة التثنية في العربية الفصحى، في فعل:
«إِخَالَ» بمعنى «أظن» في كثير من النصوص التي وصلت إلينا، ومن شواهد ذلك قول أبي ذئب
الهدلي:

فَغَبَرْتُ بَعْدَهُمْ بِعَيْشٍ نَاصِبٍ وَإِخَالَ أَنِّي لَأَحَقُّ مُسْتَبْعٍ².

وقول العباس بن مرداس:

قَدْ كَانَ قَوْمَكَ يَحْسِبُونَكَ سَيِّدًا
سَيِّدًا

قول زهير بن أبي سلمى:

وَمَا أَدْرِي وَسَوْفَ إِخَالَ أَدْرِي أَقُومُ آلَ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءً⁴.

والملاحظ أنَّ هذه الظاهرة (التثنية) لا تزال توجد بكثرة في اللهجات العربية الحديثة، كالعراق «مين
يقرا ومين يسمع» وكذا في موريتانيا الحسانية، تقول: «أَنْتِ مَا تَسْمَعُ وَلَا تَلْمَعُ» وتَمْشِي وتَكْعُدُ؛ أي:
تَقْعُدُ.

الكسكسة والكشكشة

الكسكسة، والكشكشة، وهما لهجتان متقاربتان، بحيث أنَّ الأولى تبدل كاف المؤنثة سينا في حالة
الوقف، ولذا يقول سبويه: «واعلم أنَّ نَاسًا من العرب، يُلْحَقُونَ الكاف السين لِيَبْيَنُوا كِسْرَةَ التَّأْنِيثِ،
وإنَّما ألحقوا السين؛ لأنَّها قد تكون من حُرُوفِ الزِّيَادَةِ في استفعل؛ وذلك اعطيتكس وأكرمتكس»
أما الثانية (الكشكشة) فإنَّها تبدل الكاف المتطرفة شيئًا سواء عند الوقف أو الوصل، ويعزي الباحثون
هاتين اللهجتين إلى مضر وربيعة، وذهب بعضهم إلى نسبة الكشكشة إليهما، والكسكسة إلى بكر
وبني عمر⁵.

ومن شواهد ظاهرة الكشكشة ما سمع عن بعض قبائل اليمن في الحج «لبش اللهم لبيش لبيش لا
شريك لك لبيش» وسمع عنهم «إنش ذاهبة» و«مالش ذاهبة» و«جعل الله البركة في دارش» ويحك
مالش»

ومن شواهداها في القرآن قراءة من قرأ «قَدْ جَعَلَ رَبُّش تَخَتُّش سَرِيًّا» وقوله تعالى «إِنَّ اللَّهَ
اصْطَفِيَش وَطَهَّرَش»

وذهب بعضهم أنَّ لا تقال إلا في الوصل، لكنها وجدت في الشعر في حالة الوقف، ومن ذلك قول
رؤبة:

تَنْصَحُكَ مَنِّي أَنْ رَأَيْتِي أَحْتَرَشُ وَلَوْ حَرَشْتُ لَكَشَفْتُ عَنْ حِرَشُ

وقول الراجز:

هَلْ لَكَيْشٍ أَنْ تَنْفَعِي وَأَنْفَعَشُ فَتُدْخِلِينَ اللَّذَّ مَعِي فِي اللَّذِّ مَعَشُ

ومن أمثلة الكشكشة في الوصل من الشعر كذلك قول مجنون ليلى:

فَعَيْنَاش عَيْنَاهَا وَجِيدَش جِيدُهَا وَلَكِنْ عَظُمَ السَّاقُ مِنْشٍ دَقِيقُ

1 - المرجع نفسه والصفحة.

2 ديوان الهدلين، 8/1.

3 ديونه، ص 108.

4 المعلقات العشر، ص 70.

5 الصاحبى في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ص 28.

وقول آخر

فَعَيْنَاش عَيْنَاهَا وَجِيدِش جِيدُهَا وَلُونِش إِلَّا أَنَّهَا غَيْرُ عَاطِلٍ

ولا تزال الكسكسة والكشكشة مسموعة في بعض اللهجات الحديثة، في العراق والكويت ومناطق من مصر، يقولون: «تُسيف حالك» بدل من «كيف حالك» وما اعليش يريدون لا عليك و«أبوش» و«أمش» بدل من أبوك وأمك، وفي المغرب يقولون ما ابقيتوش وما ابحبوش لا أحبك وما افهمتوش، لم أفهمك... إلخ.

الطمطمانية

لهجة الطمطمانية، وهي عبارة عن إبدال لام التعريف «ميمًا» فيقال «طاب امهواء وصفا امجُو» بدل «طاب الهواء وصفا الجُو» وتنسب هذه اللهجة إلى قبائل طيء والأزد وحمير في جنوب الجزيرة العربية.

ومن شواهد هذه الظاهرة في العربية، ما جاء في الأثر عن النمر بن تولب أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم نطق بهذه اللغة في قوله: «ليس من امبر امصيام في امسفر» وسمع الأخفش من يقول: «قام امرجل، فقال أبو العباس ثعلب هذه لغة للأزد مشهودة، كما ورد في كلام له «عليك امرأي وعلينا امفعال، أي عليك الرأي وعلينا الفعال»¹. ومن شواهدا في الشعر قول بَحيرة بن عَمَّة الطائي: ذَاكَ خَلِيلِي وَذُو يُعَاتَبْنِي يَرْمِي وَرَائِي بِأَمْسُهُمْ وَأَمْسِلَمَةً².

والتفسير الصوتي لهذه الظاهرة، هو أَنَّ اللام والميم في فصيلة واحدة، وهي فصيلة الأصوات المتوسطة المائعة، (اللام والميم والنون والراء) وهذه الأصوات يبدل بعضها من بعض كثيرًا في اللغات السامية. ولا تزال هذه الظاهرة شائعة في اللهجات الحديثة، خاصة في اليمن ومصر، يقولون «امبارح» بدل «البارحة».

العججة

تنسب هذه اللهجة إلى «قُضاعة» وهي تحويل «الياء» «جيمًا» في الوقف سواء كانت مشددة أو مخففة، ونسبها بعضهم إلى بني سعد، يقول سيبويه في الكتاب: «وَأَمَّا أَنَاسٌ مِنْ بَنِي سَعْدٍ فَإِنَّهُمْ يَبْدِلُونَ الْجِيمَ مَكَانَ الْيَاءِ فِي الْوَقْفِ؛ لِأَنَّهَا خَفِيَّةٌ فَأَبْدَلُوا مِنْ مَوْضِعِهَا أَبْيَنَ الْحُرُوفِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُمْ فِي تَمِيمٍ يَرِيدُونَ تَمِيمِي» ومن شواهدا قول الرازي:

خَالِي عُويْفٌ وَأَبُو عَلَجٍّ
وَبِالْعَدَاةِ كَسَرَ الْبَرْزَجِ
الْمُطْعَمَانِ اللَّحْمَ بِالْعَشَجِ
يُقْلَعُ بِالْوَدِّ وَبِالصَّيْحِ³.

أراد عليّ والعشي والبرني والصيصي وقد نص السيوطي على ضرورة تشديد الياء في هذه الظاهرة، فقال: «ومن ذلك العججة في قُضاعة يُحَوِّلُونَ الْيَاءَ الْمَشْدَدَةَ جِيمًا، يَقُولُونَ فِي تَمِيمٍ تَمِيمَجَّ»⁴.

1 مجالس ثعلب 58/1.

2 لسان العرب، ذو وذوات.

3 الصاحب في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ص 30.

4 المزهر، 222/1.

ولكن يجد الباحث في اللغة أمثلة كثيرة وردت من كلام العرب، أبدلت فيها «الياء» المخففة «جيما» وقد أنشد ثعلب:

يَارِبِ إِنْ كُنْتَ قِلْتَ حَجَّتْ
فَلَا يَزَالُ شَاحُجٌ يَأْتِيكَ بِحْ1.

والتفسير الصوتي لهذه الظاهرة (العجعة) هو اتحاد الياء والجيم في المخرج، وهما غاريتان؛ أي سقف الحنك الصلب، كما أنهما يتحدان في صفة الجهر، والفارق الأساسي بينهما، هو أن الجيم شديدة انفجارية، بينما الياء متوسطة، بمعنى أنها تميل إلى الرخاوة.

العننة

العننة، وهي إبدال همزة «أَنَّ» عينا ويشترط فيها فتح الهمزة، وتعزى هذه اللغة إلى تميم وقيس وأسد ومن جاورهم، لكنها اشتهرت بإضافتها إلى تميم، فيقولون: «لِعَنَّا قَائِمٌ» و«أشهذُ عَنَّا رسول الله» وشواهدا من الشعر كثيرة، ومن ذلك قول جرير العود:

فَمَا أَبْنِ حَتَّى قُلْنَ يَا لَيْتَ عَنَّا
تُرَابٌ وَعَنْ الْأَرْضِ بِالنَّاسِ تُخَسَفُ2.

وذهب بعض اللغويين أن «العننة» عامة عند تميم في كل همزة، وليست مقتصرة على «أَنَّ» والدليل على ذلك قول الخليل بن أحمد الفراهيدي: «والخبع: الخبء، في لغة تميم، يجعلون بدل الهمزة عيناً»3.

وقال ابن دريد: «وخبع الرجل في المكان، إذا دخل فيه، وأحسب أن هذه العين همزة؛ لأن بني تميم يحققون الهمزة فيجعلونها عيناً، فيقولون هذا خباعنا يريدون خباؤنا»4.

وهذه الظاهرة موجودة في اللهجات العربية الحديثة، ففي بعض مناطق السودان يقولون «سعل عنك فلان» يريدون سأل عنك، وإذا عدنا إلى الحسانية نجد أن هناك من لديه هذه الظاهرة، يقول: الرعيص يعني الرئيس، وبدع في لكرائي، يعني بدأوا القراءة، وكذلك عنك لا تشرك (الشور الغنائي المشهور) عنك لا تمشي ما فت جيت، ومن المعلوم أن «عَنَّا» هنا تقابلها في التركيب العربي الفصحى كلمة «أَنَّك»، تقول الحسانية: عَنَّا لَا تَمْشِي سَابِكُ (sabig) انجي؛ أي: حاول بأن لا تذهب قبل أن أعود.

الفحفة

الفحفة، هي عبارة عن قلب الحاء عيناً، وتنسب هذه اللهجة إلى قبيلة هذيل، يقول ابن جني: «رُوي عن عمر أنه سمع رجلاً يقرأ: «عَنِّي حين» فقال: من أقرأك؟ قال ابن مسعود، فكتب إليه: إن الله عز وجل أنزل القرآن، فجعله عربياً، وأنزله بلغة قريش، فأقرئ الناس بلغة قريش، ولا تقرئهم بلغة هذيل، والسلام»5.

القطعة

القطعة، عرفها الخليل بن أحمد في قوله: «والقطعة في طيء، وهي: أن يقول يا أبا الحكا، وهو يريد يا أبا الحكم، فيقطع كلامه عن إبانة بقية الكلمة»6.

1 مجالس ثعلب، 1/118.

2 تهذيب اللغة، مادة (عنن).

3 الخليل، العين، مادة (خبع).

4 ابن دريد، جمهرة اللغة، مادة (خبع).

5 ابن جني، المحتسب، 1/343.

6 الخليل، العين، مادة (قطع).

فالقطعة بهذا المعنى نوع من الترخيم، مثل قول امرؤ القيس:

وإن كُنْتُ أَرْمَعَتِ صَرْمِي فَأُجْمِلُ1. أفاطم مهملاً بعد هذا التدلّل

يريد فاطمة.

ولا تزال هذه الظاهرة موجودة الآن بكثير في اللهجات العربية الحديثة، ففي مصر يقولون «ياول» في ياولد وسلخي في مساء الخير، وفي الحسانية تقول: ياولّ في يا ولد، ويقولون: أضلّ (مناطق تنطقها بتفخيم اللام ومناطق أخرى تنطقها بترقيقها) يرودون الصلاة، وتقول: اعطيني المّ في اعطيني الماء.

خاتمة

طرقنا في هذا البحث، اللهجات العربية مبرزين علاقتها ومظاهرها في القراءات القرآنية، والعاميات العربية المعاصرة، وقد حاولنا تحديد مجموعة من المفاهيم، مثل اللهجة واللغة والقراءات، وقد خرجنا بنتائج عدة، نسطر أهمّها في النقاط الآتية:

صعوبة التفريق بين اللغة واللهجة، وذلك لأنّ وظيفتهما واحدة، وهي التواصل ونقل الأفكار بين الأفراد، ولذا وجدنا أنّ القدماء، لم يفرقوا بين مصطلحي: اللغة واللهجة؛ حيث كانوا يطلقون كل منها على الثاني، بينما حاول المحدثون التفريق بينهما.

أن المحدثين لم يجاروا القدماء في عدم التفريق بين مصطلحي اللغة واللهجة؛ حيث عرفوا الأخيرة أنها مجرد جزء من اللغة تنتمي إلى بيئة محددة، وتتميز اللغة بكونها أشمل وتتصف بصفة المعيارية والرسمية ومشتركة بين المتكلمين.

أن القراءات القرآنية، ماهي إلا تجسيد للواقع اللغوي الذي كان سائدا في الجزيرة العربية، وهذا الواقع هو لهجات قبائل العرب جميعا، وأن مقولة القراءان نزل بلغة قريش لا يمكن أخذها على إطلاقها.

أن اللهجات العربية القديمة، ما زالت مظاهرها موجودة في جميع العاميات العربية الحالية، وكل لهجة تظهر فيها مجموعة من تلك اللهجات في تمظهرات مختلفة.

وختاماً أرجو أن أكون قد وفقت في البحث، فما فيه من صواب فمن الله وتوفيقه وعونه، وما فيه من خطأ فمني ومن الشيطان، والله ولي التوفيق.

المصادر والمراجع

- دلالة الألفاظ، أنيس (إبراهيم) مكتبة الأنجلو المصرية، ط5 (1984).
- اللغة» فندريس، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، الناشر المركز القومي للترجمة، بالقاهرة، ط1 (2014).
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة مكتبة الشروق الدولية، ط4 (2004).
- ابن جني (أبي الفتح عثمان، ت: 392 هـ) «الخصائص» دار الكتب المصرية، تحقيق محمد علي النجار، ط4 (1952).
- جمهرة اللغة» ابن دريد (أبي بكر محمد بن الحسن، ت: 320 هـ) تحقيق رمزي منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1 (1987).
- ابن فارس (أبو الحسين أحمد الرازي المتوفى 395 هـ) «الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها

وسنن العرب في كلامها» تحقيق د. عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت، ط1 (1993).
ابن فارس (أحمد، ت: 395هـ) «معجم مقاييس اللغة» تحقيق: عبد السلام محمد هارون، طبعة دار الفكر للطباعة والنشر.
ابن منظور (محمد بن مكرم - 630 711هـ) «لسان العرب» دار عالم الكتب، السعودية، ط2 (2003).
الأزهري (محمد أحمد، ت: 321هـ) «تهذيب اللغة» تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المصرية للتأليف، ط1 (1964).
الثعالبي (أبو منصور عبد الملك - 350 429هـ) «فقه اللغة وسر العربية» مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط1 (1998).
الخليل بن أحمد الفراهيدي (- 100 175هـ) «العين» تحقيق: عبد الحميد هنداي، مطبعة دار الكتب العلمية، ط1 (2003).
السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن) «المزهر في علوم اللغة وأنواعها» تحقيق: محمد أحمد جاك مولا، وآخرون، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1 (1987).
السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن) «المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب» تحقيق سمير حسين الحلبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 (1986).
الصالح (صبحي) «دراسات في فقه اللغة» دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط3 (2009).
علي (عبد الواحد وافي) «فقه اللغة» دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط3 (2004).
الفيروزآبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب، ت: 817 هـ) «القاموس المحيط» المكتبة المصرية العامة للكتاب، ط3 (1401هـ).
قندريس (جوزيف) «اللغة» ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية، مطبعة لجنة البيان العربي، ط1 (1950).

لسان العرب؛ لابن منظور مادة: (لهج)

ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة (لهج)

الخليل، العين، مادة (لغو)

الخصائص ابن جني، 1/33..

في اللهجات العربية، ص 11.

فندريس، اللغة، 312.

اللهجات العربية وأسلوب دراستها، أنيس فرحة، ص 79 وما بعدها.

الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائله وسنن العرب في كلامها، ص 28.

المزهرالسيوطي، 1/221.

- إبراهيم أنيس، مستقبل اللغة العربية المشتركة، ص 5.

- عبد الهادي الفضيلي، القراءات القرآنية؛ تاريخ وتعريف، ص 67.

- مؤلف كتاب: «النشر في القراءات العشر»

- مؤلف كتاب: «إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر»

- عبد الهادي الفضيلي، القراءات القرآنية؛ تاريخ وتعريف، ص 68.

- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج22 / ص 519.

- أخرجه الطبراني في الكبير، 23 (862).

- ابن الأثير، النهاية، ج5 / ص 67.

- الإبدال لأبي الطيب، 2/313، وفي دوانه، ص 99، رواية تعطي، بدلا من تنطي، نقلا عن: رمضان عبد

التواب، فصول في فقه اللغة، ص 120.

- السامرائي دراسات في اللغة، 217، ورمضان عبد التواب، فصول في فقه اللغة، ص 123.
- ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة (ميل)
- النشر في القراءات العشر، تحقيق محمد علي الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت، ج2/ ص 30.
- رمضان عبد التواب، فصول في فقه اللغة، ص 121.
- لسان العرب، مادة (تلتل).
- رمضان عبد التواب، فصول في فقه اللغة، ص 124.
- المرجع نفسه والصفحة.
- ديوان الهذليين، 8/1.
- ديونه، ص 108.
- المعلقات العشر، ص 70.
- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ص 28.
- مجالس ثعلب 58/1.
- لسان العرب، ذو وذوات.
- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ص 30.
- المزهر، 222/1.
- مجالس ثعلب، 118/1.
- تهذيب اللغة، مادة (عنعن).
- الخليل، العين، مادة (خبع).
- ابن دريد، جمهرة اللغة، مادة (خبع).
- ابن جني، المحتسب، 343/1.
- الخليل، العين، مادة (قطع).
- تهذيب اللغة، (عنعنة).

حضور فلسطين في الشعر الموريتاني المعاصر (نماذج مختارة)

د. أبو بكر أحمد

أستاذ الأدب العربي - كلية اللغة
العربية والعلوم الإنسانية
حاصل على شهادة التأهيل الجامعي



مقدمة:

نسعى في هذا البحث إلى التوقف عند بعض مظاهر حضور «فلسطين» في الشعر الموريتاني المعاصر. وسنقدم فيه قراءة مختصرة من خلال نماذج مختارة من شعر أدباء موريتانيين معاصرين، مبرزين جانباً مهماً من ارتباطهم بقضية فلسطين، ودفاعهم عنها، مظهرين معرفتهم الواعية بما تعانيه هذه الأرض المقدسة من احتلال آثم، ومؤامرات خبيثة منذ ما يقارب قرناً من الزمان. ونلفت انتباه القارئ إلى أن حضور فلسطين في الشعر الموريتاني موضوع مهم وضخم، سبق لنا تناوله بطريقة مختصرة في نهاية بحثنا المعنون بـ: «ملاحظات حول الانتماء القومي في الشعر الموريتاني»⁽¹⁾. وقد رأينا فيه أن قصائد فلسطين تمثل عنوان التعبير عن الانتماء القومي عند كثير من الشعراء الذين توقفنا معهم. أما هذه الوقفة المختصرة التي نخصصها لموضوع فلسطين في أشعار الموريتانيين فسنقسمها إلى النقاط التالية:

تمهيد

قصائد «فلسطين» عنوان الشعور القومي
الاعتزاز بالثورة والدعوة إلى استمرارها ومساندتها
رثاء الواقع والشهداء.
ملاحظات ختامية

تمهيد

لا نعتقد أن القارئ يحتاج إلى التعريف بنكبة فلسطين وما خلفته على العرب والمسلمين من آلام وهموم ما تزال مظاهرها وتداعياتها ماثلة للعيان. والشعراء بوصفهم ضمير الأمة المعبر عن أفراحها وأتراحها، أحسوا بعمق بما نال أمته من ضعف وهوان أرغماها على العجز عن الدفاع عن فلسطين

(1) - هو مقال كتبناه عام 2010 وقد نشرته مجلة التعليم المحكمة بنواكشوط.

في وجه المؤامرات الغربية في بداية القرن 20م، الأمر الذي أدى في النهاية إلى اغتصاب فلسطين من طرف الاحتلال البريطاني الذي سلمها لليهود منتصف القرن الماضي، وما زال احتلالهم لها مستمراً إلى يومنا هذا.

1- قصائد «فلسطين» عنوان الشعور القومي(1):

يمكن القول إن القصائد «الثورية» -التي جعلت من القضية الفلسطينية موضوعها الأساسي- هي أكثر قصائد شعراء هذه الدراسة تعبيراً عن الانتماء القومي لأصحابها؛ فهي تحمل الألام العربية وتعتبر عنها، مع أنها - كذلك- تبدو لنا أكثر النصوص الشعرية حملاً لرسائل «الثورة»، واستخداماً لقاموس ألفاظها التي تنضح بالدعوة إلى المقاومة، والجهاد لتحرير الأرض المحتلة، واستعادة الحقوق العربية المغتصبة.

ولا غرابة عندنا في تصدّر «فلسطين» لقصائد «الانتماء القومي» عند شعراء هذه الدراسة؛ لأن احتلالها ظلّ منذ أيامه الأولى كابوساً مخيفاً يؤرّق الإنسان العربي؛ ويدفعه إلى الشعور الدائم بالخوف والحزن؛ وذلك بسبب بشاعة الاحتلال الإسرائيلي، واستمراره في عدوانه الوحشي على سكان «أولى القبلتين» و«ثالث الحرمين الشريفين».

2- الاعتزاز بالثورة والدعوة إلى استمرارها ومساندتها:

نظم عدد كبير من شعراء موريتانيا في القرن 20م، قصائد كثيرة عن مأساة احتلال فلسطين؛ بل نعتقد أنها القضية الأكبر التي ظلت تشغل غالبية شعراء العرب منذ منتصف القرن الماضي وحتى اليوم.

ولعلّ قصائد الشاعر «ابن عبد القادر»(2) في القضية الفلسطينية من أكثر نصوص الشعر الموريتاني شهرة وديوعاً في موريتانيا وفي عامة الأقطار العربية.. إذ أبدع هذا الشاعر «الثائر» قصائد خالدة في مأساة فلسطين.. منها - مثلاً- قصيدته: «في الجماهير»، التي نرجّح أنها أكثر قصائده «الفلسطينية» شهرة على الإطلاق؛ الأمر الذي يظهر من خلال كثرة ديوعها على مختلف الألسن، فضلاً عن استخدامها في الأناشيد والأغاني الحماسية من طرف بعض المغنين والفنانين.

ففي قصيدته المعنونة بـ: (في الجماهير) يتغنّى «ابن عبد القادر» بالصمود «الأسطوري» لسكان فلسطين، راسماً صوراً شعرية جميلة، تجمع بين الثورة وإبراز بسالة الشعب الفلسطيني وشجاعته في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي وغطرسته التي لا تكاد تسلم منها ذرة من الأرض المحتلة. ويمكن أن نقسم هذه القصيدة إلى محاور عدة: أولها خصّصه الشاعر لتمجيد الثورة الجماهيرية؛ انطلاقاً من كونها أهمّ طريق جريته الشعوب المستضعفة لانتزاع حقوقها وكرامتها من أيدي الأقوياء؛ الذين لا تفتأ يد الزمان تسلّطهم عليها بين الفينة والأخرى، مؤرخاً للثورة الفلسطينية في القرن الماضي.. وذلك في قوله (3):

[الخفيف]

(1) - المرجع السابق: (ص: 15_16).

(2) - هو أحمدو بن عبد القادر: من مواليد 1941 بآرارزة بجنوب موريتانيا. وهو "من أبرز رواد الشعر الحديث بموريتانيا". شغل وظائف سامية في بلده، وله ديوان شعري منشور ببيروت، تحت عنوان: "أصداء الرمال"، فضلاً عن بعض الروايات الأدبية المنشورة، مثل: "الأسماء المتغيرة" و "القبر المجهول".

(3) - نسخة شخصية للباحث، (ص:1).

وَمِنْ الظُّلَمِ تُولَدُ الْحَرِّيَّاتُ
ثَوْرَةُ الْفَتْحِ يَفْتَدِيهَا الْأَبَاةُ
تَتَغَاظَى لِهَيْبَتِهَا الْكَلِمَاتُ

فِي الْجَمَاهِيرِ تَكْمُنُ الْمُعْجَزَاتُ
وَمِنْ الشَّعْبِ فِي فِلِسْطِينَ قَامَتْ
مَكْتَتٌ فِي الثُّغُوبِ عَشْرِينَ عَاماً

ليصل الشاعر في المقطع الموالي إلى تذکر «المجازر» التي اقترفتها إسرائيل، فيعددها في بيتين، مكرراً اسم «دير ياسين» للتعبير عن شدة جزعه وحزنه، مُرجعاً المسؤولية عن هذه المجازر إلى عوامل كثيرة؛ منها «مخالب الدهر»؛ التي جرحت أمته بعد سيطرة الغزاة على أرضها، ومنها -كذلك- اعتماد أمته أزمنة طويلة على غيرها.. كما في قوله:

فِي زُبَانَا تَدُوشُهَا النَّظَرَاتُ
نَسْفَتْهَا الرِّيحُ وَالْهَبَوَاتُ
وَنَلَّاقَى عَلَى زُبَانَا الْغَزَاةُ
وَلَهْتَنَا الدُّمُوعُ وَالْحَسَرَاتُ

دِيرَ يَاسِينَ مَا نَسِينَا دِمَاناً
دِيرَ يَاسِينَ مَا نَسِينَا عِظَاماً
جَرَحْتَنَا مَخَالِبُ الدَّهْرِ يَوْماً
وَأَعْتَمَدْنَا عَلَى سِوَانَا زَمَاناً

لكن الشاعر يخرج من هذا التحليل المتشائم للواقع الذي عاشته أمته وانتهى بها إلى خسارة فلسطين، إلى إعلانه القطيعة الكاملة مع الماضي الحزين لأُمته؛ حيث تبعيتها لأعدائها، وجريها وراء سراب زائف اسمه «السلام»، وذلك بعد أن عرفت طريق التحرير وسارت عليه:

ثَوْرَةٌ لَا تَرُدُّهَا الْفَتَكَاتُ

غَيْرَ أَنَا قَدْ انْتَفَضْنَا وَثُرْنَا

ولعلّ من الطريف في هذه القصيدة حرص الشاعر على بناء الأسلوب التعبيري فيها على ضميري المتكلم الجمع (نا، نحن) بدلاً من ضمائر الغيبة، أو استخدام تراكيب تشعر بالسرد والوصف من الخارج لمأساة فلسطين.. إذ لا يرغب الشاعر - فيما يظهر لنا- في الظهور بصفته راوياً للأحداث؛ بل يريد أن يظهر لما لو كان بالفعل مواطناً فلسطينياً عايش نكبة بلده؛ فعبر عنها بما جادت به قريحته من أشعار.. كما هو واضح في المقطع الأخير من هذه القصيدة؛ إذ يستخدم فيه الشاعر ضمائر المتكلم الحاضر بكثافة، مصوراً شجاعة الشعب الفلسطيني، وصموده الدائم، رغم كثرة الجراح وشدتها، فيقول:

سَهَرْتُهُ الْأَلَامُ وَالنَّكَبَاتُ
زَادْنَا الْعُزْمَ وَالْإِبَاةَ وَالْتِبَاتُ
وَالضَّخَايَا تَوْدِيعُهُمْ حَفَلَاتُ
فِي سَبِيلِ الْحَيَاةِ هِيَ الْحَيَاةُ
فِي الْجَمَاهِيرِ تَكْمُنُ الْمُعْجَزَاتُ

نَحْنُ شَعْبٌ قَدْ صَلَبْتُهُ الْمَآسِي
نَسْكُنُ النَّارَ لَا نَبَالِي لَطَاها
نَتَلَقَّى الشَّهِيدَ عِزّاً وَنَضْراً
وَنُعْطِي لِلْمَوْتِ بَلْ وَنَرَاهَا
وَنُعْطِي حَتَّى الْجِرَاحُ نُعْطِي

ويعبر الشاعر «النبهاني المحبوبي»⁽¹⁾، في إحدى مطولاته القومية- التي يبكي فيها حال أمته العربية الإسلامية- عن حزنه على فلسطين المحتلة، مستشعراً - في مقطع شعري- معاناة جميع مناطقها، بدءاً من شمالها (جنين) وجنوبها (غزة) ووسطها (حيفا).. معلناً حيرته من فداحة الخطب، وعظم المأساة التي حلت بها... فيقول⁽²⁾:

[البسيط]

(1) - هو محمد النبهاني بن المحبوبي: من أبرز الشعراء الشباب، وهو خريج المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية بنواكشوط. له ديوان شعر مخطوط. راجع: محمد الأمين بن محمد محمود، ديوان الشعر العربي في الربع الأخير من القرن العشرين (موريتانيا)، (مجموعة شعرية منشورة في: كتاب في جريدة، الصادر عن اليونسكو، العدد 116 بتاريخ 2 نيسان/ إبريل 2008، ص31).

(2) - ديوان الشعر العربي، "موريتانيا"، (ص31).

إِنَّ الْمَلَاعِينَ قَدْ عَاشَتْ بَأْمَتَنَا
وَالْبُومُ صَاحَ وَوَزُقُ الْقَوْمُ قَدْ رَحَلَتْ

فَالْجَمْعُ مُفْتَرِقٌ وَالشَّمْلُ آرَابُ
أَيُّ الَّذِينَ أَصَمَّ الصَّخْرُ قَدْ جَابُوا

وَفِي "جَنِينَ" كَأَيْنِ مِنْ أَيْنِ أَسَى
وَاحْزَرْتَاهُ مِنَ الْيُمُونِ مُبْتَسِمًا
أَمَا رَعَوْهُ فَهَلْ تَخَضَّرُ خُضْرَتُهُ
هَلْ يَطْرَبُ النَّاسُ وَالْأَهْلُونَ لَا وَظَنُ
أَمْ يَصْحَكُ الْبَحْرُ وَالْأَمْوَاجُ بَاكِتَةً؟

بُدُونِ أَسَى وَقَلْبُ الْحَقِّ يَنْتَابُ
كَأَنَّهُ مَا لَهُ فِي الْعُرْبِ أَحْبَابُ
وَالْأَرْضُ تُنْهَبُ وَالْأَوْصَابُ أَضْرَابُ
! وَلَا رَغِيفٌ وَلَا مَاءٌ وَلَا ظَابُ
تَبَّتْ يَدَا مُنْتَشِرِ وَالشُّومُ أَشْرَابُ

وَالْجِنْسُ وَاجِمَةٌ وَ"عَرَّةٌ" غَزِيَتْ

وَالْخَيْفُ نُفْلِقُ "خَيْفًا" مِنْهُ أَحْوَابُ

أما الشاعر «فاضل أمين» (1)؛ فقد عبّر في عدد من قصائده عن تعلقه بفلسطين، وحُزنه الشديد على نكبتها التي عاشتها في الماضي والحاضر، جاعلاً من القدس بيت قصيدها، مبالغاً في الرمز حينما يصوّر هذه المدينة المقدّسة على أنها هي «حبيبته» التي يعيش وصلها.. كما في قوله في مطلع إحدى «قدسياته» (2):

[الكامل]

يَا مَالِكاً بِدَمِ الْقُلُوبِ زِمَامَهَا

أَفْرِ الْحَبِيبَةَ حَيْثُ كُنْتَ سَلَامَهَا

ليصل في مقطع شعري لاحق إلى قمة التعبير عن الشعور بالمرارة والحُزن تجاه واقع هذه المدينة الأسيرة؛ وذلك عندما يجعل من تركيب يحتوي حقيقة «القدس» - كما يفهمها الشاعر- لازمة يكرّرها في صدور أربعة أبيات متوالية، فيقول:

وَمِنَ الْعَجَائِزِ نَمَقْتُ أَخْلَامَهَا
صَاعَتُ فَرَدَدَ شَاعِرُ أَنْعَامَهَا
تَذَرُو الرِّيَّاحُ الدَّارِيَّاتُ كَلَامَهَا
وَمِنَ الرُّوَابِي يَحْتَسِبْنَ ضَرَامَهَا

الْقُدُسُ أَكْبَرُ مِنْ جَايَةِ نَاكِصِ
الْقُدُسُ لَيْسَتْ خَيْمَةٌ عَرَبِيَّةَ
الْقُدُسُ لَيْسَتْ قِصَّةَ وَهْمِيَّةَ
الْقُدُسُ تُولَدُ مِنْ هُنَا مِنْ شَمْسِهَا

وهكذا، فقد أدى تكرار كلمة (القدس) في الأبيات السابقة وظيفته التعبير عن الحُزن واليأس اللذين يختلجان في نفس الشاعر، وهو ما يعني أن جانباً مهماً من مشاعر العشق والحب الكامنة في أعماق هذا الشاعر تجاه هذه المدينة قد أفصح عنه من خلال ترديده الحزين لاسمها.. إذ - عادة ما- «يقوم التكرار الصوتي والتوتر الإيقاعي بمهمة الكشف عن القوة الخفية في الكلمة» (3).

3- رثاء الواقع والشهداء:

وقفنا في بحثنا على نصوص شعرية كثيرة يرثي بها الشعراء واقع الأمة العربية الإسلامية السيئ الذي تعيشه، مبرزاً بعضهم غضبه من كارثة اغتصاب فلسطين عام 1948 من القرن الماضي، وتواطؤ حكام المسلمين مع الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين، وتقاعسها عن نصرته القدس وأهلها المرابطين.

- (1) - هو فاضل بن أمين (-1958 1983): من مواليد المذخره بالجنوب الموريتاني. تلقى تعليمه الجامعي بسوريا، وعمل بعد تخرجه بوزارة الثقافة الموريتانية. يعدّ من الرواد الأوائل للقصيدة الحديثة. وقد عكس شعره اهتماماً كبيراً بالقضايا الوطنية والقومية. له ديوان شعر محقق بنواكشوط عام 1987م. راجع: ديوان الشعر العربي، "موريتانيا"، (ص17).
- (2) - ديوان الشعر العربي، "موريتانيا"، (ص17).
- (3) - تشيترين، الأفكار والأسلوب، ترجمة: حياة شرارة، (آفاق عربية، بغداد، دت، ص50).

أما الشاعر: الشيخ بن بلعمش(1)، فيختم إحدى مطولاته التي يجمع فيها بين بكاء واقع وطنه وأمتة مبدياً أسفه تجاه ضياع فلسطين وشعبها نتيجة عجز الأمة العربية الإسلامية عن نصره هذا الشعب، والدفاع عن أرضه المقدسة.. كما في قوله(2):
[الخفيف]

قَدْ تَنَكَّرْتَ يَا زَمَانُ فَعَدْرًا
نَحْنُ أَسْرَى الْهَوَى الْمَخْدَرِ فَيُرُو
كُلُّ يَوْمٍ تَضِيغُ أَرْضُ وَشَعْبُ
فَتُنَادِي لِيَحْيَرَ وَيَغْتَبِي
وَإِذَا الشَّعْرُ دَمَعَةً وَحَيْنٌ
أَيُّهَا الْقَلْبُ هَلْ يُفِيدُ الْعَتَابُ
أَفَلَسَ الْفِعْلُ عِنْدَنَا وَالْخِطَابُ
رُضْحَانًا وَلَيْلُنَا زَيَّابُ
وَتَضِيغُ الْأَحْسَابُ وَالْأَنْسَابُ
نِعْمَ الْعَوْدَةُ الْمَدَى وَالْتِرَابُ
وَسُؤَالُ عَلَيْهِ عَرِّ الْجَوَابُ
وَالْحِمَى دَيْسَ وَالرُّبُوعُ يِتَابُ

ويمكن التمثيل - كذلك- للشعور بالغضب من الواقع العربي المتردّي العاجز عن نصره أرض أولى القبليتين وأهلها المرابطين في سبيل الله، من خلال قصيدة باكية للشاعر: أحمد بن بولمسك(3)، يرثي بها الضمير العربي، مستعرضاً فيها مظاهر التراجع والخيبة التي تطبع واقع الأمة الإسلامية منذ عقود طويلة..ومن هذه القصيدة قوله(4):
[البسيط]

أَكُلَّ يَوْمٍ نُسَامُ الْخَسَفَ فِي بَلَدٍ
وَمَا لَنَا مِنْ عَزَاءٍ غَيْرَ ذُرْزَرَةٍ
الْأَرْضُ نَهَبَ لِسَفَاحٍ وَظَاغِيَةٍ
تُدَاسُ أَعْرَاضُنَا فِي كُلِّ آوَةٍ
أَمَا اعْتَدَتْ آمريكا أُمِسَ نَاقِمَةٌ
فَكَيْفَ تَلْتَمِسُونَ الْخَيْرَ مِنْ يَدِهَا
جَنَاجِرُ الْعَدْرِ مِنْ أَبْنَاءِ جِلْدَتِنَا
عَاثَ الْيَهُودُ فُسَادًا فِي مَرَابِعِنَا
قَدْ أَتَيْتَ الْوَحْيَ وَالتَّارِيخَ وَالرُّسُلَا
مِنْ الْكَلَامِ تُبِيرُ السُّخْطَ وَالْخَجَلَا
وَنَحْنُ نَحْتَرِفُ التَّشْيِيبَ وَالْعَرَلَا
وَنَطْلُبُ السَّلَامَ مِمَّنْ أَهْلُنَا قَتَلَا
عَلَى الْعِرَاقِ وَأَفْنَيْتَ شَعْبَهُ الْبَطَلَا
وَالشَّرُّ مِنْهَا بِهَذَا الْكُونِ قَدْ نَزَلَا
أَعْتَى عَلَيْنَا مِنَ الْبَاغِي وَمَا فَعَلَا
وَالْحَاكِمُونَ سَرَتْ أَقْوَالُهُمْ مَثَلَا

ثم ينصرف الشاعر بعد استعراضه لآلام أمتة في جميع مناطقها إلى الدعوة إلى الانتفاضة الشعبية والثورة العارمة ضد الظلم بجميع أشكاله: (ظلم الحكام، ظلم الاحتلال الأجنبي)، متسائلاً بالإنكان: ألم يحن وقت الثورة بعد وقوع كل ما حصل(5):

- (1) -هو الشيخ بن بلعمش: من مواليد عام 1973 بتكانت وسط موريتانيا. مهندس ميكانيكي خريج جامعة حلب- سوريا. وهو شاعر مجيد، له ديوان شعر مخطوط، يجمع فيه بين الأصالة والحداثة، أغلبه في قضايا الأمة والوطنيات والإخوانيات. ويمتاز شعره بالفصاحة والسلاسة. ابن محمد محمود، ديوان الشعر العربي، "موريتانيا"، (ص28).
- (2) -ابن محمد محمود، ديوان الشعر العربي، "موريتانيا"، (ص27).
- (3) -هو أحمد بن بولمسك: من مواليد عام 1973 بإقليم آدرار من أعمال الشمال. وهو شاعر موريتاني مشهور، من أبرز وجوه الشعراء الشباب، وهو -كذلك- صحفي لامع. له ديوان شعر غير منشور. أغلب شعره في الوطنيات والدفاع عن قضايا الأمة. يمتاز أسلوبه بالفصاحة والرصانة. ابن محمد محمود، ديوان الشعر العربي، "موريتانيا"، (ص27).
- (4) -مجلة الأديب الموريتانية، (العدد 8 / 2008، ص139).
- (5) -مجلة الأديب، (ص139).

قَدْ آَنَّ أَنْ نَصْنَعَ الْأَفْعَالَ ثَانِيَةً
وَأَنَّ أَنْ تَسْتَعِيدَ الْقُدُسَ بَهْجَتَهَا
وَلْتَنْتَفِضْ أُمِّي الْعَرْبَاءُ غَاضِبَةً
فَالْمَجْدُ مِنْ رَحِمِ الثَّوَرَاتِ مَوْلِدُهُ

وَأَنْ تُقِيلَ حُرُوفَ الْجَرِّ وَالْعِلَالِ
فَيَعْمُرَ الْبِشْرُ مِنْهَا السَّهْلَ وَالْجَبَلَ
تُفْنِي الْمَكَانَ وَتَطْوِي بَعْدَهُ الْأَزْلَ
وَلَيْسَ يُدْرِكُهُ مَنْ عَاقَرَ الْكَسَلِ

أما الشاعر: المختار بن حامد الديماني(1)، فيختم «إحدى قصائده القومية، من خلال تمنيه لانتصار رابع يكمل انتصارات الجزائر ومصر وموريتانيا على الاحتلال الأجنبي منتصف القرن الماضي.. لكن يا تُرى أين يتمنى الشاعر هذا النصر الرابع؟.. إنه يتمناه في فلسطين التي طال أمد احتلالها، واشتاشت كثيراً ملايين العرب والمسلمين للتمتع بلحظة تحريرها المرتقبة.. يقول(2):

فَنَرْجُو أَنْتِصَاراً فِي فِلِسْطِينَ رَابِعاً (٣) "يَكُونُ بِهِ جَدُّ الْمَلَائِينَ عَاثِراً

وقد يتحوّل رثاء الضمير العربي إلى رثاء عام لشهداء فلسطين العظام، خاصة حينما تقوم الدولة الصهيونية باغتيال قادة كبار يمثلون قامات فكرية شامخة في ذاكرة الأمة العربية الإسلامية، كما هو الحال -مثلاً- في فاجعة اغتيال الشيخ الشهيد أحمد ياسين عام 2004، التي فجرت ثورة عارمة في عامة البلاد الإسلامية، وفي موريتانيا فجرت هذه الفاجعة ثورتان: إحداهما شعبية ضد الطغيان العالمي المساند لإسرائيل، أما ثانيتهما فهي ثورة شعرية كبرى، تبارى فيها الشعراء في تدبيح القصائد الباكية في رثاء فقيده الأمة الشيخ الشهيد: أحمد ياسين. ويمكن التمثيل لهذا النوع من القصائد بقصيدة للشاعر: باب بن رمضان(4)، يرثى بها شيخ الجهاد أحمد ياسين، وقد افتتحها بقوله(5):

عَقَدَ اللِّسَانُ فَمَا عَسَاهُ يَبُوحُ
فُجِعَ الْجَمِيعُ فَيَا لَهَا مِنْ صَدْمَةٍ
قَتَلُوكَ يَا شَيْخَ الْجِهَادِ حَمَاقَةً
وَالْقَلْبُ مِنْ فَرْطِ الْأَسَى مَجْرُوحُ
دَوَّتْ لَهَا فِي الْخَافِقِينَ جُنُوحُ
وَلَدَى الْمَآقِي وَالنُّفُوسِ قُرُوحُ

ليصل الشاعر في نهاية هذه القصيدة إلى إعلان فجيعة عالمية على هذا الشيخ الشهيد؛ فهو ليس شهيد القدس وحدها؛ بل هو شهيد العالم العربي الإسلامي بأسره، على الرغم من كونه شهيد الحرية المغتصبة في فلسطين منذ احتلالها قبل ستة عقود تقريباً.. يقول(6):

يَاسِينَ أَيْسَ الْقُدُسُ تَبْكِي وَحَدَّهَا
تِلْكَ الْمَسَاجِدُ تَسْتَفِيزُ دُمُوعَهَا
فَعَلَيْكَ جَمْعُ الْعَالَمِينَ يَتُوحُ
أَسْفَاً وَتَبْكِي أَبْطُحُ وَسُفُوحُ

أما خاتمة هذه القصيدة فكانت تهنئة من الشاعر للشهيد بنيله الشهادة؛ التي هي منيته الكبرى التي عاش حياته من أجلها، مع الدعاء له بالرحمة والإقامة في جنات الخلد(7):

(1)- هو المختار بن حامد الديماني: شاعر موريتاني مشهور، مكثر ديوانه الشعري مجلد ضخماً، يزيد على 3000 بيت، وهو لم يطبع بعد أيضاً، ولا يزال مخطوطاً ومرفوقاً. وهو مع ذلك علامة في الفقه والتاريخ والأنساب، اشتهر بلقب: "ابن خلدون شنقيط"، وذلك لمعرفته الكبيرة بالتاريخ.. من مؤلفاته: "موسوعة حياة موريتانيا"، وهي عبارة عن موسوعة تاريخية وجغرافية وأدبية، تقع في 47 مجلداً. (ت 1413هـ/1993م). راجع: أبو بكر أحمد، الصنعة الفنية في الشعر الموريتاني، رسالة ماجستير بكلية الآداب، جامعة دمشق، 2008، (ص15).

(2) - ديوان ابن حامد الديماني، (نسخة مرقونة ومخطوطة للباحث، ص1).

(3) - أبو بكر بن أحمد، ملاحظات حول الانتماء القومي في الشعر الموريتاني، ص6.

(4) - شاعر من جيل الشباب، على الرغم من أنه لم يسعفنا الحظ في الحصول على ترجمة له.

(5) - مجلة الأديب الموريتانية، (العدد 8 / 2008، ص134).

(6) - مجلة الأديب، (ص134).

(7) - مجلة الأديب، (ص134).

تِلْكَ الشَّهَادَةُ قَانِعًا قَدْ نِلْتَهَا
فَاللَّهُ يَمْنَحُكَ الْجَوَارَ قَرِيرَةً

أُمِّيَّةٌ كَانَتْ لَدَيْكَ طُمُوحُ
عَيْنَاكَ تَخْلُدُ فِي التَّعِيمِ الرُّوحُ

وهكذا، وعلى هذا النحو من رثاء الواقع والشهداء، سار عدد كبير من شعراء موريتانيا في نصوص شعرهم؛ فهم لا يفتؤون يكثر من الاستطراد للأساليب المختلفة التي تخدم التعبير عن المرارة والحزن تجاه المعاناة التي يعيشها سكان فلسطين منذ احتلالها قبل عقود.

ملاحظات ختامية:

يظهر من هذه اللوحة التحليلية الخاطفة في قراءة عدد من النماذج الشعرية الموريتانية أن أصحابها عبروا عن ارتباطهم بقضية فلسطين، وأظهروا اهتمامهم بها، عبر قصائد مختلفة تعكس إحساسهم بأهمية فلسطين في الذاكرة العربية والإسلامية، فهي عنوان الكرامة والانتصار على الأعداء، ولا معنى للحديث عن أي نهضة للعالم العربي الإسلامي قبل استعادته الكاملة لفلسطين من الاحتلال الإسرائيلي، وعودة سكانها الأصليين إليها.

وعموماً، يبقى تأثير فلسطين في شعراء موريتانيا أكبر مما أشرنا إليه؛ فهو تأثير عميق يترجم بصدق حرارة العاطفة في النصوص الشعرية التي أبداها نصرة لأولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين؛ فهم -أو أغلبهم- كانوا ينظرون إلى فلسطين على أنها أهم غرض شعري يستحق إبداع القصائد وتدبيجها فيه، نظراً إلى أنها جرح نازف هو أولى بالاهتمام من غيره من هموم وطنهم الذي يعيشون فيه؛ الأمر الذي انعكس في كثرة قصائد فلسطين؛ إذ سيطرت على دواوين عدد غير قليل من شعراء موريتانيا المعاصرين.

المصادر والمراجع:

أحميد (أبوبكى): الصنعة الفنية في الشعر الموريتاني، (رسالة ماجستير مرقونة، جامعة دمشق، 2008).

ملاحظات حول الانتماء القومي في الشعر الموريتاني، (بحث منشور بمجلة التعليم المحكمة، المعهد التربوي الوطني نواكشوط).

تشيتشرين: الأفكار والأسلوب، (ترجمة: حياة شرارة، آفاق عربية، بغداد، دت).

ابن حامد (المختار): (الديوان: نسخة مخطوطة ومارقونة للباحث).

ابن محمد محمود (محمد الأمين): ديوان الشعر العربي في الربع الأخير من القرن العشرين (موريتانيا)، (مجموعة شعرية منشورة في: كتاب في جريدة، الصادر عن اليونسكو، العدد 116 بتاريخ 2 نيسان / إبريل 2008).

مجموعة شعراء: (نصوص شعرية لعدد من الشعراء المعاصرين - نسخة مرقونة للباحث).

مجلة الأديب: (فصلية تصدر عن اتحاد الأدباء الكتاب الموريتانيين - نواكشوط، العدد 8 / 2008).

الدكتورة الزهراء الشيخ

أستاذة الفقه - كلية الشريعة
جامعة العلوم الإسلامية بليغون

الإسهام العلمي للمرأة الشنقيطية نماذج مختارة

تقديم في تأصيل الموضوع:

لقد اهتمت مصادر التشريع الإسلامي وبخاصة القرآن والحديث بالعلم، وافتتاح الرسالة الإسلامية بالقراءة والكتابة دليل واضح على ذلك، قال تعالى: «أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» فتكرار أمر الإنسان بالقراءة وذكر القلم آلة الكتابة وربط ذلك كله بالخالق والخلق في أول سورة من القرآن الكريم يوضح أهمية العلم والتعليم للرجل والمرأة في الشريعة الإسلامية بصورة عامة.

و عندما نعود إلى هذا التراث الإسلامي نبحث عن دور للمرأة نجد صورة مشرقة لها وخير مثال على ذلك أمهات المؤمنين فقد قال صلى الله عليه وسلم «خذوا شطر دينكم من الحميراء² وقد قال عنها الذهبي: أفقه نساء الأمة على الإطلاق³ وقال عنها الزهري: لو جمع علم عائشة إلى علم كل النساء لكان علم عائشة أفضل⁴

وقد اشتهرت المرأة المسلمة بصورة عامة بالأمانة العلمية حيث لم يؤثر عن امرأة أنها كذبت في الحديث يقول الشوكاني: لم ينقل عن أحد من علماء الأمة أنه رد خبر امرأة لكونها امرأة⁵ وفي غربنا الإسلامي أكد الأستاذ عبد الله العففي في كتابه المرأة العربية على أن نساء الغرب الإسلامي كن حريصات على حفظ القرآن بقراءاته جميعا ورواية الحديث وتدريس الفقه والأصول⁶ ويقول ابن حزم (وهن من علمني ورويتني كثيرا من الأشعار ودربني على الخط⁷ كما يذكر المؤرخون أن إشبيلية وحدها كانت فيها خمس مائة محطرة من النساء⁸ ويقول الشيخ عبد الله الكنون (لقد أدركن الكثيرات من السيدات اللائي كن ينهضن بهذه المهمة⁹

1 ' 2.1 - 1. العلق الآية رقم

2 -النهاية في غريب الحديث ابن الأثير، ج1، ط: بيروت تحقيق الطاهر أحمد الزاوي، أحمد الطنطاوي، ص434.

3 . سير أعلام النبلاء الذهبي دار الحديث ط1427هـ 2006م '3ص: 426.

4 نيل الأوطار الشوكاني ' تحقيق عصام الدين الصابطي 'دار الحديث مصر' ط1 ' 1413هـ: 1993م ج6ص359.

5 نفس المرجع.

6 . مجلة دعوة الحق ، ص38العدد. 376

7 طوق الحمامة لابن حزم ص: 50

8 الإسهام العلمي للمرأة العربية، سعاد العمار ص: 75 مجلة دعوة الحق العدد: 376، 2004م

9 دعوة الحق ص: 38 ، العدد: 376

أما في شنقيط:

فقد عرفت النساء الموريتانيات بالذكاء والإقبال على العلم؛ فلم يخل عصر من العصور من وجود نساء عالمات فحفظ لنا التاريخ تراجم عدد من النساء اللاتي تفقهن وقرأن على آبائهن أو إخوانهن أو أزواجهن وأعطى هؤلاء صورة مشرقة من العناية بالأبناء والبنات دون التفريق بين الذكور والإناث ولم تشغلن ظروف الحياة عن واجباتهن العلمية نحو أسرهن حتى تحقق لأولادهن وبناتهن النبوغ في العلم والفتوى.

وقد اشتهرن في هذه المنطقة بسنة حميدة تجلت في حرصهن على تدريس البنات والأولاد مبادئ القراءة والكتابة وكانت سنة منتشرة في كل الحواضر والبادي بدون استثناء. ومن الملاحظ أن المجتمع الموريتاني لم يكن يضع المرأة في خانة الازدراء والاحتقار بل كان يفتح لها المجال لتنضج وتشع على المجتمع نورا وعلمًا وصلاحًا، ولتساهم في البناء الحضاري. ولذا كانت الأسرة هي أول من يدفع البنت في طريق المجد العلمي والإبداع فيه، وكانت عناية الأسرة الموريتانية بالفتاة الناشئة كالولد وإلى هذا يشير ابن حامد في كتابه حياة موريتانيا¹.

الشيء الذي جعلها تلعب دورا بارزا في تنشئة الأطفال اجتماعيا وثقافيا ناهضة بمسؤولية كبيرة. حيث ترافق الطفل تدريسا في مرحلة التلقين وتبدأ من ولادته وكلما بكى تحاول إسكاته باسم الجلالة، فالفتاة الموريتانية تنشأ على شاكلة الفتيان كما تتعلم القرآن في فاتحة حياتها وتظل ترتقي بالسلم المحظري مكتسبة المعارف والأخلاق، وكأنها بذلك تعد نفسها بالمشاركة في الحياة العلمية فهي تعد بحق معلم الطفل الأول ومؤدبه الفاعل، ليتلقى بكنفها التعاليم الإسلامية في تعلم أبجديات القراءة والكتابة، يقول ابن الأمين: «إذا بلغ الصبي خمس سنين يمتحنونه بأن يعلموه من الواحد إلى العشرة ثم يبدأون في تعليمه وأكثر من يتولى تعليمه إذ ذك النساء²»

وقد بلغ الأمر بالمرأة الموريتانية أن تخصص في بعض الحقول المعرفية مركزة بشكل خاص على حفظ القرآن الكريم ودراسة السيرة النبوية.

يقول الخليل النحوي: (وكانت ترتقي إلى المحظرة في حيها تتلقى من المعارف ما يتلقى الطفل إلا أن غالب شأن النساء أن يصرف اهتماما زائدا إلى السيرة النبوية الشريفة ولا يمنعهن ذلك أن يزاحمن الرجال المعارف الأخرى)³.

ولم يتوقف دور المرأة الموريتانية عند ممارسة التدريس فكانت تقوم بأمر الطلاب من إعداد الطعام وخياطة الملابس وإصلاح البيوت يقول لكبيد ولد جيه، « طويل:

جَزَى اللَّهُ أَجْرًا لَا يُمَالُّهُ أَجْرُ
تَذَارَكْنَ بُنَيَّانِ التَّلَامِيذِ بَعْدَ مَا
فَحَايْنَهُ مِنْ كُلِّ وَشْمٍ مَرُوقٍ
فَأُضْحَى رَفِيعَ السَّمَكِ رَحْبُ فَتَاوُهُ
بِهِ فِتْيَةُ شَتَّى الشُّعُوبِ أَتَى بِهِمْ
ظِلْمَاءُ يَرُوضُونَ الصَّعَابَ مِنَ الْعُلَا
يُرْجُونَ مِنْ سُحْبِ الْعِنَايَةِ وَكَفَا.
وَلَا زِلَ فِي أَمْنٍ وَيُؤْمِنُ وَنِعْمَةً

مَهَا طَيِّبَاتِ الْأَزْرِ أَوْجُهُهَا زَهْرُ
تَرَاءَتْ لَهُمْ مِنْهُ الْكَوَاكِبُ وَالْبَذْرُ
وَأَخَيْنَ مِنْهُ بَيْنَ مَا فَارَقَ الدَّهْرُ
فَلَا يَشْتَكِي مِنْهُ ضَحَى وَلَا عَصْرُ
مِنَ الْبُعْدِ إِبْرَامَ الْعَزَائِمِ وَالصَّبْرُ
فَأَبْدَانُهُمْ شَعْتُ وَأَثْوَابُهُمْ غُبْرُ
يَخْفُ بِهِ الْفَتْحُ لِلْإِلَهِ وَالنَّصْرُ
وَلَا زَالَ مِنْهَا بِجَزَعَائِهَا الْقَطْرُ

1 حياة موريتانيا المختار بن حامد الجزء الثاني

2 . الوسيط في تراجم أدياء شنقيط تأليف أحمد بن الأمين الشنقيطي بعناية فؤاد سيد مكتبة الخانجي مؤسسة منير موريتانيا. ص517

3 - المنارة والرباط، الخليل النحوي المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تونس 1987 ص288

4 ديوان لكبيد جمع وتحقيق أحمد بن الشايع تقديم الخليل النحوي قابس ص:54

و في هذا المقال نذكر نماذج من أشهر النساء اللاتي كان لهن حضور علمي بارز في مختلف العصور حتى في الفترات المتأخرة بادئين بفترة المرابطين وذلك لصعوبة التأكد مما قبلها من تاريخ البلد لقلة المصادر والمراجع الموثوقة إن لم نقل انعدامها:

1- حواء بنت تاشفين بن علي المرابطية:

زوجة الأمير سير بن أبي بكر (507- 1114 م) الذي كان له الفضل في تمهيد الأندلس للمرابطين، لقد كانت حواء هذه أديبة وشاعرة جليلة ماهرة، وكان لها مجلس للكتابة والشعراء تحاضروهم فيه وتستمع إلى حديثهم في الشعر وتنتقد عليهم، وقد مدحها الشاعر: أبو جعفر التطلي في قصيدة بائية منها¹:

أَمَّا رَأَيْتَ نَدَى حَوَاءٍ كَيْفَ دَنَا
أَنْتَى سَمًا بِاسْمِهَا النَّادِي وَكَمْ دَكَّرَ
بِالْعَوْثِ إِذْ كَانَ يَأْتِي دُونَهُ الْعَطْبُ
فَكَيْفَ أَخْرَجَ عَنْهُ جَارَكَ الْجُنْبُ
يُدْعَى كَأَنَّ اسْمَهُ مِنْ لَوْمِهِ لَقَبُ²
قَدْ عَمَّ بَرُّكَ أَهْلَ الْأَرْضِ قَاطِبَةً

2. زينب النفزاوية:

بنت إسحاق النفزاوي الهواري اشتهرت بالدور الذي قامت به في إرساء قيام الدولة المرابطية كانت زوجة شيخ «أريكة» يوسف بن تاشفين ثم لأبي بكر اللمتوني كانت ذات عقل راجح ورأي سديد ومعرفة بإدارة الأمور وكانت لهذا الأمير عنوان سعد وفاتحة عليه بحسن سياستها لأكثر بلاد المغرب «توفيت 464هـ³

3- تميمية المرابطية:

ابنة يوسف بن تاشفين تكنى أم طلحة، زعيمة سياسة راجحة العقل صائبة الرأي اشتهرت بالأدب والكرم، عززت بذلك الحركة المرابطية، كما كانت تدبر شؤونها المادية⁴، ومن النوادر الطريفة التي رواها المؤرخون أن كاتبها من كتابها أمرت بمحاسبته ولما رآها بهت بجمالها فحست بذلك فقالت (مقارب)⁵:

هِيَ الشَّمْسُ مَسْكُنُهَا فِي السَّمَاءِ
فَلَنْ تَسْتَطِيعَ إِلَيْهَا الصُّغُودًا
فَعَزَّ الْفُؤَادَ عَزَاءً جَمِيلًا
وَلَنْ تَسْتَطِيعَ إِلَيْكَ التُّرُودًا

4. قمر زوج علي بن يوسف اللمتوني

قال الوراق في المقباس ولما قر عزم علي بن يوسف على أن يخلع عهده على ابنه سيروجه إلى عقد أهل الحل والعقد من الفقهاء والقضاة وجمع لذك بني عمه وأخويه تميما وإبراهيم كما يذكر المؤرخون أن قمر هذه هي التي غدرت بأخيه تاشفين ليلا يكبر على ابنها ويملك بلاد الأندلس⁶

5. اخناته بنت بكار:

تزوجها السلطان مولا إسماعيل العلوي ملك المغرب، وهي بنت عشر سنوات وكانت له زوجة

1 مجلة دعوة الحق عدد 376

2 المرأة في تاريخ الغرب الإسلام يعبد الهادي التازي ط 1992 ص: 202.

3 التاريخ الدبلوماسي للمغرب عبد الهادي التازي ط 1986 ص: 174. 196.

4 - المرأة في تاريخ الغرب الإسلامي عبد الهادي ط 1992 ص: 175.

5 د المرجع السابق ص: 234.

6 نفس المرجع والصفحة

صدق وإخلاص ففازت بثقته حيث كان يعتمد على رأيها ومشورتها وفرضت وجودها في الساحة السياسية، ونهلت من العلوم والمعرفة الشيء الكثير و احتفظت لها الأرشيفات ورفوف الخزانات بوثائق عديدة وفريدة من نوعها. وذكرها المؤرخون المغاربة وغيرهم: قال عنها الطبري:

«ثمرة الشيوخ المعترين المنتخبين من أكرم سلالة وأفلاذ أكباد العلماء المتغذين بلبان الجلالة مغارس طابت في ربا المجد فألقت على الخلفاء معدن السؤدد وكمياء السعادة وعنصر الحمد ومفرق السيادة: اختانة بنت المرحوم المبرور الشيخ بكار المغفري زوجة المرحوم المقدس مولاي السلطان... ورفع لهذه الملكة أعلام السيادة على مر الزمان»¹ وعدد خصالها المؤرخ المشهور عبد الرحمان بن زيدان قائلا: (فقيهة، عالمة، أديبة، خيرة، دينية)².

6- مريم الصحراوية:

هي مريم بنت محمد السالم بن عبد الله بن أحمدو قرينة الشيخ سالم بن عبد الفتاح الشنقيطي , كانت عالمة قاتنة , عابدة , نزلت مع زوجها إلى (إليغ) واهتمت بتدريس القرآن في هذه القرية ثم انتقلت إلى مدينة (تادلا) المغربية وظلت هناك تعلم البنات والبنين على حد السواء إلى أن توفيت سنة 1356هـ - 1937م.³

7- خديجة البيضاء:

بنت محمد البيضاء, كانت فقيهة عالمة مستحضرة للسيرة وسائر الفنون هاجرت إلى مراكش واشتغلت بتعليم أبنائها فكانت تدرسه كتب اللغة والنحو والتاريخ والسيرة⁴

8. مريم بنت مسعود السملالية:

كانت فقيهة من بيت علم كبير صنف الأدوزي كتابا في سيرتها سماه «مناقب السيدة مريم بنت مسعود»⁵

9- ماها:

زوجة الشيخ ماء العينين والدة الشيخ أحمد الهيبة، كانت فاضلة عالمة، تتلمذت على يد مريم الصحراوية وعنها أخذت سيرتها وخصالها الحسنة.⁶

10- هند بنت الشيخ ماء العينين:

لها مشاركة في شتى العلوم⁷

11- ميمونة الحضرمية:

1 . إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس، عبد الرحمن بن زيدان، ط: م 1990، ص: 16.

2 . المرجع السابق، نفس الصفحة.

3 المعسول، محمد المختار السوسي، ط: 1991، ج: 3، ص: 37.

4 . المدرسة القرآنية في الصحراء المغربية، ص: 82، مجلة دعوة الحق، العدد: 376، مارس . أبريل 2004، ص: 100.

5 . الأعلام، خير الدين الزركلي، ج: 3، ص: 210.

6 23. مقال: المدرسة القرآنية في الصحراء المغربية، ص: 82.

7 24. معجم أعلام النساء: المدرسة القرآنية في الصحراء المغربية، الأستاذة رشيدة علوي امدغري دعوة الحق ص: 82

بنت الشيخ محمد الحضرمي حفيدة الشيخ ماء العينين ولدت سنة 1307 هـ كانت راوية للشعر، مشاركة في العلوم.¹

12- صفية بنت المختار:

هي صفية بنت المختار الشنقيطي اشتهرت بمعرفة مختلف العلوم كال تفسير، السيرة النبوية، وأنساب العرب، وعلوم العربية علاوة على إتقانها التجويد واشتغلت بالتدريس (ت1323هـ).²

13- مريم بنت أحمد بزيّد اليعقوبية:

يرى أنها من أول من كتب الشعر ونسجل لها هذه الأبيات التي تبدو محكمة النسخ متماسكة البناء متوسلة إلى الله بسر السبع المثاني أن يحفظها من المكاره في قولها: «الطويل»

وَسُوْرُ مِنَ الرَّحْمَانِ سُورُ مَدُوْرُ	وَسُوْرُ مِنَ السَّبْعِ الْمَثَانِي وَرَاءَهُ
وَيَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ	وَهَذَا صَمَانُ اللَّهِ رُحْنَا بِحِفْظِهِ
وَذِمَّتِهِ مِمَّا نَخَافُ وَنَحْذَرُ	إِذَا كُنْتُ وَخْدِي سَائِرًا فِي مَضَلَّتِي
وَحَوْلِي مِنَ الْأَعْدَاءِ مَا لَيْسَ يَحْصُرُ	أَمَامَ وَخَلْفَ الْمَرْءِ مِنْ لُظْفِ رَبِّهِ
كَوَالِي تَنْفِي عَنْهُ مَا كَانَ يَحْذَرُ	تَرَى الْأَمْرَ مِمَّا يَنْقِي فَتَخَافُهُ
وَمَا لَا تَرَى مِمَّا يَبْقَى اللَّهُ أَكْثَرُ	

14. يمه بنت سيد الهادي البيدالية

(ت1300/1200) شاعرة مقتدرة لها ديوان شعر يضم مختلف الأغراض (وقد ورد في منظومة بغية السائلين في مناقب البيداليين ما يؤكد تميز هذه المرأة وتمكنها من القريض إذ شبهها الناظم بالخنساء في شاعريتها وتنوع إبداعها يقول) (رجن 4:

يَمْهَمُّ فِي شَعْرِهَا الْفَرِيدُ	حَكَتْ تَمَاضِرَ ابْنَةِ الشَّرِيدِ
فَلْ زُبُّ لَمْ تَأْتِ بَعْدَ النَّايِعَةِ	إِلَّا لَهَا لِنَابِغٍ أَوْ نَابِغَةٍ

ومن الأغراض التي طرقت غرض المساجلات من ذلك مادار بينها وبين الطبيب أوفى تقول (السريع):

مَا الْغَارِفُ الْخَبِيرُ كَالْجَاهِلِ	كَلَّا وَلَا بِالْخَاطِئِ الْخَاطِلِ
وَالْحَقُّ مَهْمًا قِيلَ يَغْلُو وَلَا	يُغْلَى عَلَيْهِ الدَّهْرُ بِالْبَاطِلِ
فَأَنْبِي لَمْ يَغْدُ جَهْلِي سَوَى	أَبِي نَسَبْتُ الْفَضْلَ لِلْفَاضِلِ
وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى مَدْحِهِ	فَلْيُعِدِ الْإِنْصَافَ لِلْقَائِلِ

1- 25 المرجع السابق، ص: 125

2 26 المرأة في تاريخ الغرب الإسلامي عبد الهادي التازي. ص: 101

3 27. إسهام المرأة الموريتانية في التربية والثقافة (وقفة مع سعي الأمهات وجهد المدرسات) د/محمذن ولد المحبوبي، مجلة التربية، المدرسة العليا، العدد 6، سنة: 2007 ص: 48.

4 د محمد بن المحبوبي: يمه بنت سيد الهادي رائدة الشعر النسوي في بلاد شنقيط، مجلة آفاق الثقافية والتراث

15 خديجة بنت محمد العاقل:

عالمة اشتهرت بالتدريس والتأليف , وكانت لا تبارى في علم المنطق وقد قرأ عليها أعلام بارزون منهم المختار بن بونه الجكني (ت 1220 هـ) وأخوها أحمد العاقل (ت 1244 هـ) والناطقة الغلاوي (ت 1240 هـ) والحاج عبد القادر الفوتي وغيرهم 1. يقول أحمد بن العاقل مفتخرا:

وَمَا أَقْرَأْتُ قَوْمًا فَلَانَّةُ قَبْلَنَا
عَلَى عَهْدِ نَجْلِ الْبُؤْنِ مِمَّنْ يُشَاهِدُ

تركت مجموعة من الآثار منها طرة على نظم ابن الطيب.

16- رقية اليعقوبية:

بنت الحاج بن العايش اليعقوبي، عالمة، فقيهة، وأديبة كانت عارفة بأسرار الحروف وتدرس مختلف العلوم وخاصة ألفية ابن مالك، والفقه، واللغة وعلوم القرآن. توفيت أوائل القرن الرابع عشر الهجري. 2.

17- هند المجلسية:

هي هند بنت عبد الله عالمة اشتغلت بالتأليف والتدريس أخذ عنها ولدها القرآن الكريم حفظا وتجويدا بالإضافة إلى علوم الفقه واللغة من تأليفها: الدر الأسنى في أسماء الله الحسنى. نظم فروع مختصر الشيخ خليل لها ألغاز فقهية منظومة كثيرة نسخت بخطها كتاب << ثمان الدرر >> ونسختها من أوثق النسخ توفيت 1372هـ. 3.

18 - لاله عيش بنت لزرقي:

هي زوجة الشيخ سيد المختار الكنتي، أديبة، وفقيهة ومدرسه كانت تختم الكتاب للنساء في نفس الوقت الذي يختمه زوجها فيه للرجال توفيت 1244 هـ، وقد ترجم لها ابنها الشيخ سيدي محمد في كتابه المشهور: الطرائف و التلائد في مناقب الشيخين الوالدة والوالد، نذكر لها أرجوزتها المعروفة بدعاء طلق الولادة:

لِمَنْ هُوَ اللَّهُ	أَلَا نَ شَكَّوْتُ	بِمَا قَدْ جَنَيْتُ	إِلَيْكَ أَتَيْتُ
أَنْ لَمْ نَرَاهُ	أَجْمَلُ لِي حِسَابِي	مُعْتَقَ الرَّقَابِ	بِرَبِّ الْأَرْبَابِ
كُلَّمَا بَسَّوَاهُ	وَبَانَ ازْتِفَاضِي	بِمَا قَاضِي أَنْتَ	تَاللَّهِ لَرَاضِي
مِنْ كَلَّمَا أَفْضَاهُ	وَاحْفَظْ لِسَانِي	لِتُصَحِّحَ إِيْمَانِي	ثَبَّتْ لِي جَنَانِي
مِنْ قَبْلِ انْقِضَاةِ	مُجِيبِ الدُّعَاءِ	إِلَى ذِي الْقَضَاءِ	جَعَلْتُ ازْتِجَائِي
سَأَلْتُ رِضَاهُ	مَنْ يُحْيِي الْمَوُؤُودَ	وَأَنْتُمْ شُهُودُ	حَمِدْتُ الْمَحْمُودَ
أَنْتَ تَوَلَّاهُ	إِلَهِي خَلَّاصِي	وَ ذِ النَّوَاصِي	خَشِيتُ الْمَعَاصِي

1 28. المنارة والرباط، الخليل النحوي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس 1987، ص: 289
2 29. المرأة في تاريخ الغرب الإسلامي عبد الهادي التازي ص 101
3 30. مجلة المناهل عدد 28 ديسمبر 1983، ص 14

دَعَوْتُ الْمُجِيبَ	وَهُوَ لِي قَرِيبٌ	وَأَيْتِسَ الطَّيِّبُ	يَسْوَى مُنَادَاهُ
ذَكَرْتُ الْغُيُوبَ	وَمَاضِي الدُّنُوبِ	يَا قَابِلَ التَّوْبِ	يَا مَنْ هُوَ اللَّهُ
رَحْمَانًا رَحِيمَ	لَمْ تَزَلْ كَرِيمَ	دَعَاكَ أَثِيمَ	فَجُدْ بِمَتَاهُ
رَوَّذَنِي ثَقَاكَ	لَيْتِسَ لِي سَوَاكَ	أَجِبْ لِقَاكَ	فِي الْفِرْدَوْسِ أَعْلَاهُ
سِرِّي وَإِعْلَانِي	قُبْحُ لَا وَلَانِي	وَمَا قَدْ عَلَانِي	مِنْ ذَنْبٍ تَرَاهُ
شَقَقْنِي فِي قَوْمِي	وَجَاوَزْ عَن لَّوْمِي	وَحَيِّبْ رَجَاهُ	وَحَيِّبْ رَجَاهُ
صُرُوفَ الرَّمَانِ	مِنْهُمَا كَانَ أَمَانِي	وَنَقْلَ مِيزَانِي	بِفَضْلِكَ يَا اللَّهُ

«ومما تمكن ملاحظته في هذا النص أن وزنه يمزج بين منقوص لبتيت وتفعلة الرجز، وتفعلات المتقارب، ويظل يراوح بينها وفي بعض الأبيات تتماهى كل الأوزان إلى حد الغموض والانكسار، وفيما يخص شاعرية النص فإنها غير قوية السبك، وقد يعود الأمر إلى تداوله بين الرواة دون تدقيق، وفي ساعات الطلق، وأزمات الأمراض، ومختلف أصناف الكروب، وعندما يكثر استعمال النص الشعري في مثل تلك الأغراض يتعرض للتحريف، ويتأكد الأمر إذا عم التداول أوساطا من المنشدين يهتمون بمضمون الدعاء أكثر من العناية بالنواحي اللغوية، والفنية للنص المتبرك به»¹.

19 - مريم بنت الأمين بن الحاج الشقروية:

ذكرها صاحب الوسيط، تقول في مدح الشيخ سيدي الكبير:

وَكَا لِمَسْكَ طَيْبًا نَشْرُهُ أَطْيَبَ النَّشْرِ	سَلَامٌ يَفُوقُ الشَّمْسَ صَوًّا وَفِي الْقَدْرِ
وَمُحْيِي الْعِظَايَا وَالْمَكَارِمِ وَالْأَجْرِ	إِلَى سَيِّدِ مُخَيِّ الدِّينِ وَالْعِلْمِ وَالْتَقَى
عَلَى مُمِيتِ الرِّزَايَا وَالْمَظَالِمِ وَالْفَقْرِ	مُمْتَ الْخَنَا وَالْهَجْرِ ثَبَتَ عَلَى الْهُدَى
وَتُوْبِغْ أَيْدِي الْمُقْتَرِينَ مَدَى الدَّهْرِ	لَهُ رَاحَةٌ مَا تَأْتَلِي تَرْزَعُ النَّدَى
وَهَيَّيْةَ لَيْثٍ يَرْعَبُ اللَّيْثُ فِي خَدْرِ	وَصَيْتُ يَغْمُ الْعَالَمِينَ جَمِيعَهُمْ
فَأَصْبَحَ ذَا مَالٍ لَدَيْهِ وَذَا وَفِرٍ	فَكَمْ مِنْ سَلِيلٍ صَمَّهَ السَّلْبُ نَحْوَهُ
وَنَقُصِرَ عَنْكَ الشَّمْسُ رَابِعَةَ الظُّهْرِ	نَجَمَتْ نُجُومًا قَاسَمَهَا الْبَذْرُ صَوُّهُ
فَيُجْنِي جَنَاهَا ذُو عَفَاءٍ وَذُو ثَمْرِ	وَتَتْرُكُ أَرْضًا جُبَّتْهَا خَصْلَةُ الرُّبَى

تَقَاصَرَ شِعْرِي ذُونَ مَذْجِكَ سَيِّدِيَا فَمَذْحُكَ لَا يُخْصَى بِشِعْرِ وَلَا نَثْرٍ
يبدو أن القصيدة جاءت كرسالة إلى الممدوح ذلك ما يتضح لنا من البيت الأول بقولها: «سلام»
وتحديد المرسل إليه إلى «الشيخ» وأنها متمحضة لغرض المدح حيث تصفه بكل الصفات الحميدة
كإحياء الدين وصفات الجود وإماتة الخنا والريازيا وفي قولها في البيت الأخير تقاصر شعري دون
مدحك سيديا فمدحك لا يحصى بشعر ولا نثر².

1 . الشعر النسائي الشنقيطي القديم (الفصح . لغن . التبراع) خلال القرن الحادي عشر والجزء الأخير من القرن الرابع عشر الهجري، السالكة بنت اسنيد، الطبعة الأولى 2017 م، ص: 90.
2 . الوسيط، مرجع سابق، ص: 356، والشعر النسائي، مرجع سابق، ص: 93.

20- الغالية بنت إبراهيم السباعية:

(ت1305-1884) كان لها باع في الفقه والفرائض واللغة.

21- اخديج بنت آدب:

شاعرة معروفة بخنساء تكانت لها ديوان شعر2 أشرف على تحقيقه الاستاذ الشاعر الدّ ولد آدب، نأخذ الأمثلة التالية تقول:3

كان اكحيل تشل مرفوع	عن لبياط وليباط اصوصو
لكحيل داير فيه اطلوع	أطلع فوك عاد اغفافير
دت عندي من ذاك النوع	تشل فصراب البعد اتير
كيف الدماس ال مظلوع	بالش ذ لبيظ من لحرير 4

وتقول مهنئة الشيخ أحمد ولد آدب بمناسبة بناء بدار (البسيط):

يَاوَادِي النَّبِطِ لَاغَبَّتْكَ أَمْطَارُ	وَسَاعَدَتْكَ مِنَ الْوُسْمِيِّ أَنْهَارُ
يَاوَادِي النَّبِطِ لَاشَطَّتْ بِكَ الدَّارُ	وَحَلَّكَ الْخَيْرُ إِذْ حَلَّتْ بِكَ الدَّارُ
دَارُ يَا حَمْدَ لَا زَالَ الْمُنَاحُ بِهَا	كَمَا تُحَطُّ بِبَيْتِ اللَّهِ أَوْزَارُ
حَلَّ اللَّيَالِي إِنْ زَارَتْكَ أَكْدَارُ	وَأَصْبِرْ لَهَا عَلَّهَا فَالْدَّهْرُ دَوَارُ
لَابَدَّ مِنْ فَرَجٍ يَوْمًا وَمِنْ تَرَجٍ	فَالْدَّهْرُ شَيْمَنْتُهُ حُلُوٌّ وَإِمْرَارُ

وتقل في ذكر سدات ولد آب (طويل):

مِنَ الْخَمْرِ أَيَّامُ أَحَلَّتْ لَنَا شَرْعًا	وَقَدْ مَنَعَتْ لِلْغَيْرِ يَاعَجَبًا مَنَعًا
يُغَلِّنَا بِهَا سِدَاتٍ بِشْـدُوهُ	وَبِالْتَّذْنِيبِ « امل » يَالَيْتَ ذَا بَضْعًا
صَبُونًا بِهَا وَاللَّهِ يَغْتَلِمُ أُنَا	مِنَ الْلَّهْوِ وَالْأَفْرَاحِ زَادَتْ بِنَا الطَّلْعَا

وتقول معبرة عن انفعالها بشدو المطرب اعل ولد ايد:

أَتَلَجَّتْ قَلْبِي بِالتَّطْرِيبِ عَلَّاتِي	لَمَّا شَدَوْتَ بِأَبْيَاتِ شَهِيَّاتِ
هِيَ الْمُنَى عِنْدَنَا لَا مَنْ يُمَاطِلُهَا	بِالْمُتَهَى غَيْرَ أُخْرَى دَاوِدِيَاتِ

1 . معلمة التصوف، عبد العزيز بن عبد الله، ج:1، ص:162.

2 صادر عن مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال ، الطبعة الأولى مراكش 2020.

3 ذكرت لها الأستاذة السالكة بنت اسنيد سبعة عشر نصا شعريا ضمن كتاب الشعر النسائي، ص: 117 / 125

4 الشعر النسائي، مرجع السابق، ص: 117.

22. أم الفضل بنت الكوري ولد الهاشم:

عالمة جليلة اشتهرت بالعلم والتدريس عملت مشرفة على مكتبة سيدي عبد الله ولد الحاج ابراهيم تقول من قصيدة استسقاءية¹

إِلَهِی سُقِیاً ذِی الْبَنَابِیْعِ غِیْصَتِی
وَأَنْتَ قَدِیمٌ قَدْ قَضِیتَ بِرَحْمَةٍ
قَضِیتَ بِهَا مَنَا لِعِلْمِکَ ضَعَفْنَا
فَلَوْ كُنْتَ ذَا أَحْذٍ مِنْ أَجْلِ جَرِیمَةٍ
أَغْنَانَا بِغَيْثٍ مُمَرِّعٍ مُتَبَعِّقٍ
فَتَحْنَا بِهِ الْأَحْزَاتِ مَدَّةَ أَشْهُرٍ

وتقول مخاطبة الشيخ محمد سعيد ولد الطلبة

سَلَامٌ عَلَیْكُمْ کِیفَ حَالٍ مَسِیرُکُمْ ° وَکِیفَ الْمَیِّتِ وَالصَّبَاحُ مَعَ الْمَسَا
لَقَدْ جَاءَتْ الْأَیَّامُ بِالْخَیْرِ وَالْهَدَى
فَأَهْلًا وَسَهْلًا بِالسَّعِیدِ وَمَرْحَبَا
وَمَنْ قَامَ بَعْدَ الشَّیْخِ لِلنَّائِسِ سَاقِیَا
زَعَى اللَّهُ مِنْ دُبٍّ مَظَالِیَا أَتَتْ بِكُمْ
وَلَا نَ مِنْ الْأَرَابِ مَا كَانَ قَدْ قَسَا
بِمَنْ شَادَ رُكْنَ الدِّینِ حَقًّا وَأَسَّسَا
وَمَا قَالَ هَجْرًا فِي الْمَقَالِ وَلَا أَسَا
وَمِنْ صَرَّرَ یُخْشَى وَمِنْ وَعَثَ الْوَعْسَا

23. مريم بنت أحمد مسكة:

حفظت القرآن، وتعمقت في العلوم الدينية واللغوية، اشتهرت بتدريس القرآن والتمتون الفقهية توفيت في القرن الثالث عشر الهجري²

24- السالكة بنت أحمد مسكة:

كانت عالمة بالقرآن والفقه والعربية ولها مؤلف في التوحيد توفيت في العقد الثالث من القرن الثالث عشر الهجري³.

25. النجاة بنت الددو المباركية (ت 1979م)

«عالمة مشهورة متخصصة في علوم السيرة النبوية وأنساب العرب» والدها محمذن فال (الددو) ولد محمد مولود ولد أحمدو ولد عبد الله بن المبارك. ويعد بيت ذويها متسلسلا في العلم والنجابة، وكان أهل الددو من مؤسسي محاضر أهل المبارك المشهورة.

مارست النجاة التعليم المحظري، واهتمت بتعليم الطلاب الوافدين من مختلف المناطق لنيل العلم. يمكن تصنيفها من خدمة العلم والتعليم المحظري الشنقيطي الأوفياء لتواضعهم والمعروفين بدورهم في حمل رسالة العلم، وبثه والتوضيح في سبيله وإنفاق أعمارهم في تأدية رسالته. يرى مختلف المهتمين بهذه الشخصية، أنها حوت جميع المعارف التي حوّاها زوجها محمد عالي بن عدود، وأنها كانت تسهم إلى جانبه في التدريس المحظري لحظات ازدحام الطلاب على هذا المنهل

1 . تركت مؤلفات منها نظم الفروض و هو نظم توضح فيه مختلف جوانب التركة مثل قولها:

دونك من يأخذ نصف المالي في الإرث من نساء أو رجال
وأرجوزة في عذّ النساء

أوردت لها الأستاذة السالكة بنت اسينيد سبعة نصوص شعرية
المرجع السابق، ص: 125، 132

2 . نفع الأغصان من شجرة القرآن، الأستاذ ابراهيم ولد أحمد مسكة، ص: 15، ط: 1 انواكشوط 200.

3 . المرجع السابق، نفس الصفحة.

الغزير، كما تساعد الطلاب في التكرار، وتعد النجاح مثالا يحتذى في عدد من المجالات التي برعت فيها المرأة الموريتانية، وقد فاقت في عدة خصال منها:

1. «الورع والتوكل علي الله، إذ تفتحم النهي في بعض الأمور التي يجتنبها الكثير من العامة، لتبين زيف بعض التقاليد، باعتبار أن التمسك بتلك الخرافات مناف للثقة في الله جل وعلا وأئل إلي الشرك.

2. وهي فائقة في العلم، وكان المرحوم محمد عالي ولد عدود، ينزل على رأيها في العديد من الأمور المتعلقة بالطهارة مثل التزام المسح على الرأس المصفور أثناء الغسل، فترة البرد ونحو ذلك.

3. الاهتمام بالنواحي الطبية، فيما يتعلق بالطهارة والتأكد الدائم على استيفاء المولود زمن الرضاعة حولين كاملين.

4. لها بعض الأنظام المشهورة في محيطها حول السيرة النبوية.

5. مما يعرف داخل هذه الأسرة أن الأب والأم والأبناء يتناقشون في أمور العلم، وقد يذهب الأبناء إلى رأي وتتبع النجاح رأيا آخر، فيغلب الشيخ محمد عالي رأيها على رأي جميع الأبناء».

تعد من النساء اللواتي انتبهن لقيمة المراجع العلمية، فقامت بنسخ العديد من المتون العلمية.

أنها أنجبت العلماء الأستاذة الأجلة: ومما يعلي من شئنها

محمد يحي ولد عدود ولبحر ومحمد سالم وأم المومنين والدة العلامة الشيخ محمد الحسن ولد الددو¹

يقول ابنها العلامة محمد سالم:

وأنا أُمي علمتني السيرة وغيرها في مدة يسيرة

26. الشاعرة أمنة بنت الخال

المعروفة ب: (أت) الشقروية عرفت بالتصوف قال عنها الخليل النحوي²: كانت عارفة ملهمة تنظم في المحبة تقول: طويل³

أَجِنُّ إِلَى الْبَثْرَا أَلَا إِنِّي ذَكَرِي
عَلَى أَنْ لِي حَوْلَ الرِّبَاطِ مَعَاهِدَا
وَأُخْرَى بَنَيْتِ اللَّهَ دَهْرًا أَقْمَتُهَا
وَأُخْرَى مَعَ الْأَسْتَاذِ دَهْرًا هَمَمْتُهَا
وَأُخْرَى بِقَصْدِي لِلْمَغَافِرِ وَافِدَا
لِيَالِي لِي ظَهْرُ الْبَسِيطَةِ مُتَكَ
فَتَلِكْ قَدِيمَا طَالَ مَا قَدْ ذَكَرْتُهَا
لَيَالٍ عَلَتْ أَيَّامَ ذَاتِ أَبِي عَلَيَّ
فَكُلَّ جَرَى ذِكْرِي سَرَاهُ بِمَا جَرَى

وَذِكْرِي سَوِي الْبَثْرَا فِي خَاطِرِي بَتْرَا
وَأُخْرَى لَدَى فَاسٍ أَقْمَتُ بِهَا دَهْرًا
وَفِي طَيِّبَةِ الطَّيِّبَاءِ لِي أَرْزَمُنْ أُخْرَى
بَجَنْبِ (الخواوي) ذُو الْعَطَايَا بِهَا أُدْرِي
تَبْدَى بِهَا الْمَكْنُونُ مِنْ سَرْنَا هَجْرَا
وَفِي رَائِحِ الظَّلْمَا أَمِيلُ إِلَى الصَّمْرَا
وَأَعْمَلْتُ فِيهَا السَّجْعَ وَالنَّظْمَ وَالنَّثْرَا
وَأَيَّامَهَا صَيَّقَنْ مِنْ صَدْرِيهَا صَدْرَا
فَمَا قَوْلُهُمْ حَاشَاكَ أَوْ لَيْتَنَّا عُدْرَا

27. عزة بنت الشيخ محمد أحمد ولد الرباني⁴

1 . الشعر النسائي، مرجع سابق، ص: 305.

2 المنارة والرباط ، 289.

3 الشعر النسائي، 132، 134.

4 الشعر النسائي: 200

لها مشاركة علمية واسعة في مجالات مختلفة ولها ديوان من الشعر الحساني يضم مختلف الأغراض تقول في توجيه ابنتها «لبتيت التام»:

وَالشَّخَّ وَكَلَّ فِي التَّكْشَارِ يَمْنَتُ كُلَّ مِنْ لِكَّارِ
يَمْنَتُ لَعْدَتِ مِنْتِ بَاشْ أَتَالِ شِيمَةَ لَحْزَارِ
بَيْنَ الْحَيِّ لَا تَلْتَفِتِ وَامْشِ فِي الْحَيِّ ابْلَاتَطْوَارِ
كَانَ الْكَعْدَتِ وَلَّ كَمْتِ رَاعِينَ ذَلَّ فِيكَ أَنْدُورِ
وَلَبَاسِكَ حَكْمِيهِ أَثْبَتِ كَأَنَّكَ كَمْتِ كَوْمَ بِاشْوَرِ

فالشاعرة تقدم لابنتها مجموعة من القيم الأخلاقية انطلاقاً من رؤية معينة متعارف عليها داخل الوسط الاجتماعي الذي تنتمي إليه.
قول في إحدى أسر أهل أحمد مسكه عند عودة هذه الأسرة في العطلة الصيفية من العاصمة انواكشوط إلى بتلميت، «لبتيت التام» 1:

مَرْحَبَتِ عَالِمَ عَزِينِ بِهِلْ أَحْمَدُ مَسْكَ لَاشَكَّ
ادَّوَرْ لَمَطَارْ اذْجِينِ وَالْخَيْرِ اِجِينِ وَالْبَرْكَ
مَرْحَبَتِ يَلْحِي الْقَهَّارِ بِالْجَارِ اَلَّ مَاكِيفُ جَارِ
وَأَكْرِيمُ أَمْعُلُومُ أَصْبَارِ وَقَفْتُ الْجَارِ اَلَّ يَشَكَّ
وَاحْلُ طَبْعُ مَا فِيهِ أَمْرَارِ وَقَفْتُ الْجَارِ اَلَّ يَشَكَّ
وَلَا يَخُوتِ بِاخْتِصَارِ مَرْحَبَتِ بِهِلْ أَحْمَدُ مَسْكَ

28. ميمونة بنت أحمد فال²
عالمة سليله العلماء أبوها القاضي المرابط ولد أحمد فال عرفت بمعرفتها الواسعة ومشاركتها في مختلف العلوم تقول في القواعد النحوية لبير

مَنْصُوبٌ بَلَا خِلَافَ الطَّرْفُ أَخْبَارُ مَا تُكُوْدُ
أَمْلَازِمْتُ لِصَافَ وَالْيَاسِرُ فِيهِ أَلَّا اتْعُوْدُ

وتقول أيضا في نفس الغرض لبتيت التام

وَالضَّمِيرُ اَلَّ كَيْفَ اَلْهَ الضَّمِيرُ اَلَّ كَيْفَ اَلْكَافِ
وَأَمْعُ لَفْعَالُ مَفْعُولِ اَلْهَ أَمْعُ لَسْمَاءِ اَلَّا مُضَافُ

ولها أيضا في نفس الغرض لبتيت التام
كَوْلِكَ مُضَافٌ وَزَاهُمْ شَيْنُ هُونُ أَمْسَايِلْ هُونِ خَمْسِ
ضَمِيرُ وَتَعْرِيفُ وَتَنْوِينُ فَعْلٌ وَحَرْفُ احْكَمَ لَا تَنْسِ

1 ديوان عزة بنت الشيخ محمد أحمد مخطوط لدى مكتبة الأسرة.

2 المرجع السابق: 208.

وتشارك المرأة الشنقيطية الرجل في العناية بجزء كبير من مسؤولية الرفع من مستوى الشباب وتعلمه تمثل في الاهتمام بطلاب المحظرة، وحثهم على الصبر، والتحمل في سبيل اكتساب العلم.

29_ مريم بنت عبد الجليل

ولها في النصح، والوعظ مخاطبة ابنها 1

تَبَاعَدُ عَنِ الْعِصْيَانِ إِنْ كُنْتَ ذَا عَقْلٍ
وَحَفَ فَجَاءَ الْمَوْتِ الَّذِي يَأْتِي بَغْتَةً
وَلَا تَطْعُ النَّفْسَ الْخَوَّوَنَةَ إِنَّهَا
أَلَا فَاعْتَنِمِ دَهْرَ الشَّبَابِ فَإِنَّهُ
وإن فَاتَ مَجَانًا شَبَابُكَ فَابْكِهِ
أَلَا فَابْكِينَ دَمْعًا غَيْرًا وَعَنْدَمًا
فَإِنَّ عِقَابَ اللَّهِ أَعْظَمُ جَارِدٍ
فَإِنَّ عِقَابَ اللَّهِ أَعْظَمُ جَارِدٍ
وَتُبْ قَبْلَ طَيِّ الْعُمْرِ إِنَّكَ حَادِثُ
فَعَمِّرْ بِذِكْرِ اللَّهِ عُمُرَكَ كُلَّهُ

وَشَمِّرْ لِفِعْلِ الْخَيْرِ نَاهِيكَ عَنْ شُغْلٍ
وَأَيَّاكَ وَالْإِسْرَافَ فِي التَّرَكِّ وَالْفِعْلِ
لَأَمَارَةٌ بِالسُّوءِ فِي غَايَةِ الْبُحْلِ
جَزَاءُ حَدِيثِ السَّنِّ أَزْكَى مِنَ الْكُهْلِ
عَسَى اللَّهُ بَعْدَ الشَّيْبِ يُعْطِيكَ بِالْبَذْلِ
عَلَى مَا عَوَّضَتْ مِنْ غُلُومِكَ بِالْجَهْلِ
عَنِ الشُّغْلِ بِاللَّذَاتِ لِلْحَاقِقِ الثُّبُلِ
عَنِ الشُّغْلِ بِاللَّذَاتِ لِلْحَاقِقِ الثُّبُلِ
وَعَمَّا قَلِيلٍ رَاجِعٌ أَنْتَ لِلْأَصْلِ
فَهَذَا وَأَيُّمُ اللَّهِ فَأَيَّدَةُ الْعَقْلِ

ومن ضمن شعرها في الدعاء والابتهالات هذه الأبيات:

سألتك اللهم يَا ذَا الْمَنِّ
وقرة العينين طول الزماني
وأن تجيرني وأن تعينني
وعملا بضمنها وليتني
فيا رَوْوَفَ وَرَحِيمَ إِنِّي

وذا الْعَلَى عَافِيَةٍ فِي بَدَنِي
في النفس والأهل وما رزقتني
وتوبة بشرطها تينيني
من غَلَلِ الْقَلْبِ الشِّفَا وَهَبْتَنِي
بك اسْتَغْتُ لِلَّذِي أَهْمَنِي

30- النائرة بنت أئفغ أحمد (الأنتابية) في المديح النبوي لبيرو 2

عن خلق كامل لام
فيهم يوم القيام
الدني كاع ولا يعود
شمس ولا لوح لام
عن تحصيه العلامة
مزال افصلب ادا م
من كرعث جهنم
وأهل وخواب لام

مُحَمَّدٌ رَبُّ نَرَّةٍ
وأخص بالقرب أوجه
لماه فضل ما تعود
عرش ألا كرس ولا تلود
بيهل فُضْلُ كاع كود
فُضْلُ يَتَخَرَّفُ جود
رَبِّ وَجْهَتْ لَا نُعُود
وانتم امعاه ألا فُكُود

1 مريم بنت عبد الجليل المعروفة بـ "حين" الشعر النساء: 142..

2 الشعر النساء:

خاتمة

يمكن تسجيل بعض الملاحظات التي تستفاد من خلال معاينة الآثار العلمية للمرأة الشنقيطية مما يمكن تلخيصه في النقاط التالية:

وأول ما يلفت الانتباه هو وفرة الإنتاج العلمي النسوي الشيء الذي تتلشى أمامه النظرة السائدة عن المرأة ومدى جدية مشاركتها العلمية.

تنوع ميادين الإسهام العلمي حيث شمل مختلف الفنون درسا وتدرسا أخذًا وعطاء.

شمولية مشاركتها حيث طرقت كل المواضيع الشائعة وربما طرقت بعض المواضيع التي لم يتناولها الكثير من الرجال وأسوتنا في ذلك خديجة بنت العاقل في المنطق.

قوة الشخصية والثقة بالنفس ويتجلى ذلك في مزاحمة كبار الشعراء عند الممدوحين ومناظرة كبار الشعراء.

أن إسهام المرأة العلمي لم يخص فترة زمنية معينة وإنما سجل لها التاريخ إسهامها متى وجدت من فترة المرابطين إلى العصر الحالي.

كما يلاحظ التفاوت البين في حظهن من التناول والعريف بهن؛ وهو أمر لا يخص المرأة دون الرجل وإنما شمل الأعلام الشناقطة.

وانطلاقا مما سبق فإن هذه الورقات التي بين أيدينا لا تدعي الإحاطة بالإسهام العلمي للمرأة الشنقيطية لأن طبيعة البحث ومحدوديته لا تسمح بذلك وإنما يكفيها أن نذكر أن المرأة الشنقيطية فرضت نفسها في الحقل المعرفي بإسهامها الثري المتنوع؛ مما يجعله محط اهتمام الباحثين إخراجا وتحقيقا وإبرازا.

محاولة لفت انتباه القارئ إلى هؤلاء العالمات والشاعرات التي ذكرنا لعطين المكانة اللائقة بهن من الاهتمام والدراسة.

المصادر والمراجع

- . القرآن الكريم
- . إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس، عبد الرحمن بن زيدان، ط: 1990م
- ... الأعلام، خير الدين الزركلي، ج: 3،
- . التاريخ الدبلوماسي للمغرب عبد الهادي التازي ط 1986
- . حياة موريتانيا الجزء الثاني المختار ولد حامد الدار العربية للكتاب
- . ديوان الكبيد جمع وتحقيق أحمد بن الشايع تقديم ومراجعة الخليل النحوي الشركة العامة للطباعة قابس.
- . ديوان عزة بنت الشيخ محمد أحمد مخطوط لدى مكتبة الأسرة
- سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَيْماز الذهبي، الناشر: دار الحديث القاهرة، الطبعة: 1427هـ-2006م، ج: 3
- . الشعر النسائي الشنقيطي القديم (الفصيح. لغن. التبراع) خلال القرن الحادي عشر والجزء الأخير من القرن الرابع عشر الهجري، السالكة بنت اسنيد، الطبعة الأولى 2017 م
- . المعسول، محمد المختار السوسي، ط: 1991، ج: 3،
- . معلمة التصوف، عبد العزيز بن عبد الله، صادر عن مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال، الطبعة الأولى مراكش 2020.
- . المرأة في تاريخ الغرب الإسلامي / عبد الهادي التازي ط 1992 م

- . المنارة والرباط، الخليل النحوي المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تونس 1987
- . نفع الأغصان من شجرة القرآن، الأستاذ إبراهيم ولد أحمد مسكة، ص: 15. ط: 1 انواكشوط 2000
- . نيل الأوطار، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: 1250هـ) تحقيق: عصام الدين الصبابي، الناشر: دار الحديث، مصر، الطبعة: الأولى، 1413هـ - 1993م، ج: 6،
- . النهاية في غريب الحديث ابن الأثير، ط: بيروت تحقيق الطاهر أحمد الزاوي، أحمد الطنطاوي
- . الوسيط في تراجم أدياء شنقيط تأليف أحمد بن الأمين الشنقيطي بعناية فؤاد سيد مكتبة الخانجي
- مؤسسة منير موريتانيا.
- ا لمدرسة القرآنية في الصحراء المغربية، ص: 82، مجلة دعوة الحق، العدد: 376، مارس . أبريل 2004.
- . مجلة التربية، المدرسة العليا، للتعليم العدد 6، سنة: 2007 |
- مجلة المناهل عدد 28 ديسمبر 1983

مظاهر التميز في المنهج المحظري

(وقفات مع تطور الأساليب
النثرية في أكناف المنشآت
المحظريّة)

الدكتور الداى بن
محمد بن أيوه

أستاذ الحديث
كلية أصول الدين
جامعة العلوم الإسلامية بلبعون



تقديم

الحمد لله والصلاة والسلام على الحبيب المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه الطاهرين الأخيار.

وبعد فإن ظاهرة المحاضر في موريتانيا قد أثبتت جدّيتها، وفاعليتها تربوياً واجتماعياً واقتصادياً وتكوينياً طيلة التاريخ الموريتاني (الشنقيطي).

وهي بحق تمثل جزءاً حيويًا من هويتنا الإسلامية، التاريخية والثقافية، وأساساً محورياً في أصالتنا وحضارتنا العربية والإسلامية، فهي التي ساهمت في نشر الإسلام وبث علومه وأثرت التاريخ الوطني والتراث العلمي لبلادنا.

فمتى ظهرت المحاضر في بلاد شنقيط؟ وما هو المنهج التربوي الذي أسست عليه معارفها؟ سأحاول الإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها من خلال هذه العجالة التي ركزت فيها على (مظاهر التميز في المنهج المحظري بموريتانيا)، وقد اخترت هذا الموضوع من منطلق اهتمامي بظاهرة المحاضر عموماً في بلادنا، لأنها ظاهرة جديرة بالاهتمام، متبعا في ذلك المنهج الاستقرائي، وقد استعرضت فيها نماذج لبعض المحاضر التي كانت لها الريادة في مناطق مختلفة من البلاد؛ ويقتضي مني ذلك الرجوع إلى دلالة الكلمة (محاضر) فأقول إنها وردت بهذه الصيغة (محاضر)، في اللغة العربية؛ فيقال مثلاً: على الماء حاضر وهؤلاء قوم حصار إذا حضروا المياه، ومحاضر؛ قال لبيد:

فالواديان فكلٌّ مَعْنَى مِنْهُمْ *** وعلى المياه محاضر وخيام (1)

وسميت فصول المقالات المنعقدة عند القُصاة قبل التسجيلات، وهي التي تستفتح بها الخُصومات محاضراً، على ما حكاه محمد بن حارث؛ وأجدها محاضرة يلزمها من هذا الاسم عند العلماء المُتَقَدِّمين وهو مأخوذ من حُضُور الخَصَمَيْنِ بين يدي القاضي (2).

لكن الكلمة وردت بمعنى «المدرسة» ففي رحلة ابن جبير (ت: 614هـ) يقول عند استعراضه لمعالم مدينة القاهرة ومآثر صلاح الدين فيها: إنه أمر بعمارة محاضر ألزمها معلمين لكتاب الله عز وجل

(1) ابن منظور / لسان العرب: (فصل الحاء).

(2) أبو الحسن بن الفقيه أبي مُحَمَّد ابن عبد الله بن الحُسَيْن النباهي الأندلسي / المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا = تاريخ قضاة الأندلس / دار الأفاق الجديدة . بيروت . لبنان / 1403 هـ . 1983م . ط: 5 . (ص: 194).

يعلمون أبناء الفقراء والأيتام خاصة وتجري عليهم الجارية الكافية لهم.(1) وأقرب تعريف للمحظرة: (أنها مؤسسة تعليمية بدوية متنقلة، تكون متخصصة في فن معين، وأحياناً شاملة جامعة لشتى العلوم الشرعية، تضم جماعة من الطلاب مختلفة أعمارهم تحيي حياة اجتماعية بسيطة، هدفها التفقه في الدين، وتحصيل التقوى والخلق الكريم، يديرها معلم في فن أو فنون يسهر على التدريس فيها، ورعاية هدفها جسيمة، وربما ضم إلى مهام التدريس إمامة وقضاء القرية أو البلدة ويُلقب بـ(لمرابط) ولعلها جاءت من رباط المرابطين الذين كان رباطهم النواة الأولى للمحاضر وقد يلقب بـ(طالبنا) ولعلها من طالب العلم، وأصل الكلمة: (محضرة)(2)، وفي أبيات ابن حزم المشهورة: (مناي من الدنيا علوم أثبتها...) وهي تقارب من وجوه، مصطلح الكتاب أو الخلوات أو الزاوية في بعض البلدان الإسلامية).(3) وأبيات ابن حزم التي ذكر فيها المحاضر هي: مُناي من الدنيا علومُ أثبتها *** وأنشرها في كل بادٍ وحاضر

دعاءً إلى القرآنِ والسنن التي *** تناسى رجالٌ ذكرها في المحاضر(4) فمتى ظهرت المحاضر في بلاد شنقيط؟

بدأ طور تأسيس المحاضر وانتشارها في بلاد شنقيط: بمقدم الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي (ت: 451هـ) إلى البلاد، حين أسس رباطاً يعد النواة الأولى للمحاضر باتفاق المؤرخين؛ ويرجع بعض الباحثين بدايات المحظرة إلى الفتح الإسلامي في القرن الثاني الهجري، إلا أن هذه البدايات كانت مقتصرة على كتابات القرآن ولم تتجاوزها.(5)

وبعد استشهاد ابن ياسين تولى مهمة التدريس العالمان: الإمام الحضرمي (ت: 489هـ)، والإمام إبراهيم الأموي (ت: 500 هـ). وانتشر التعليم المحظري في المدن والحوضر حتى نهاية القرن العاشر الهجري، وخصوصاً في المدن التاريخية الأربعة: شنقيط، وادان، تيشيت، ولاته؛ وبانتقال المحاضر إلى البادية تتابع ازدهارها منذ القرن الحادي عشر الهجري؛ وهي ظاهرة جديرة بالتأمل، يقول الدكتور أحمد بن حبيب الله: «إذا كان العلم صنعة لا يمكن أن تزدهر إلا في المدن والحوضر كالصناعات عامة . حسب نظرية ابن خلدون الذي يقول: (إن التعليم إنما يكثر حيث يكثر العمران وتتعظم الحضارة، وذلك لأنه صناعة). فإن الواقع الشنقيطي القديم والحديث قد قلب الأطروحة الخلدونية رأساً على عقب».(6)

ويمثل هذا الطور العصر الذهبي للمحظرة طوال مسيرتها التاريخية حيث بلغت أوج ازدهارها في القرن الثالث عشر ومطلع القرن الرابع عشر الهجري؛ وقد شهدت المحاضر بعض التراجع والانحسار مع دخول الاستعمار الذي بدأ بمضايقة المحاضر بإنشاء المدارس الحديثة، فتأثرت المحاضر بذلك، بالرغم من مقاومة أهلها. ومع مطلع الاستقلال انتشرت المدارس الحكومية وانصرف إليها كثير من أبناء الشعب، ثم جاءت أزمة الجفاف والتصحر مع أوائل السبعينات، فتأثرت المحاضر بها أكثر من غيرها بسبب الهجرة الكثيفة لسكان البادية إلى المدن بحثاً عن العمل والعيش الرغيد، بعد تأثر اقتصادهم البدوي بسبب الجفاف.(7)

(1) ابن جبير / رحلة ابن جبير (ت: 614 هـ)، / دار مكتبة الهلال / بيروت، (ص: 27).

(2) محمود بن محمد المختار الشنقيطي / مجلة البيان: العدد / (135 / 100)، ذو القعدة - 1419هـ مارس - 1999م (السنة: 13)، (مقال: لماذا الشناقطة يحفظون؟).

(3) محمد المصطفى بن الندي: (دور المحاضر في موريتانيا) بحث تخرج في المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية بنواكشوط عام 1405هـ.

(4) ديوان ابن حزم الظاهري . تحقيق د. رشاد، (د. ت)، ط: الأولى، ص: 95.

(5) محمد الحافظ ولد المجتبى: الحديث علومه وعلماءه في بلاد شنقيط / مطبعة الأطلس / انواكشوط / 2001م، ص:

27.

(6) د. أحمد بن حبيب الله (مقال: تطور النظام التربوي في المحاضر) مجلة التعليم / العدد: 13 . 2000م، ص: 37.

(7) محمد الحافظ ولد المجتبى / الحديث علومه وعلماءه في بلاد شنقيط: (ص: 514).

غير أنه تأسست في العاصمة انواكشوط معاهد ومدارس يتبع بعضها منهاجاً توفيقياً بين وسائل العصر ومناهجه وروح المحظرة وبرامجها، ومنها: مدرسة العون، ومعاهد الفاروق، وابن عباس، وخالد، والمعاهد التابعة للجمعية الثقافية الإسلامية. كما أسست الدولة المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية سنة (1979م)، وهناك اهتمام متجدد بإحياء زوايا ثقافية تراثية منها على سبيل المثال: زاوية الشيخ سيدي المختار الكنتي، وزاوية الشيخ محمد المامي، وغيرهما.

مظاهر التميز في المنهج المحظري:

للشناقطة ملكة حفظ نادرة، وطاقمة ذهنية عالية جعلتهم يفخرون في ثقة واعتزاز بقدراتهم على استذكار عشرات الكتب، وجعلت العلامة سيدي محمد بن العلامة سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي . رحمه الله . (ت: 1250هـ) يقول: (إن علوم المذاهب الأربعة لو رمي بجميع مراجعها في البحر لتمكنت أنا وتلميذي أَلْفَغُغُ الديماني من استعادتها دون زَيْدٍ أو نقصان، هو يحمل المتن وأنا أمسك الشروح). (1)

وجعلت العلامة محمد محمود بن التلاميذ التُّرْكُزِي . رحمه الله . (ت: 1322هـ) يزهو بحافظته متحدياً الأزهريين بأنه أحق بإمامة اللغة والاجتهاد فيها منهم؛ لأنه يحفظ القاموس كحفظه الفاتحة، فاستبعدوا ذلك وعقدوا له مجلساً بالأزهر، فكان كما قال، فأقروا له وصاروا يصححون نسخهم من نسخة التركزي . رحمه الله . المحفوظة في صدره. (2)

وهذا النابغة الغلاوي: فقد كانت له همة عالية ورغبة شديدة في العلم. سافر من أرض الحوض، يريد من يصحبه ليتعلم عليه، فكان كلما اجتمع بعالم وعرض عليه طلبه يسأله العالم: أي فن تريد أن تقرأ، فلا يراجع الكلام بعد ذلك، حتى لقي العلامة الشهير أحمد بن العاقل الديماني، فقال له: (مَشْ)، [أي: ابدأ بدرسك] فألقى عصا التسيار عنده، وجعل يعلمه من معينه الجاري حتى تضلع منه. (3)

وكذلك من العناء الذي لقيه المختار بن بونا (الجنكي) . رحمه الله . في فهم النحو أيضاً مثال من أمثلة التضحية في سبيل العلم؛ فإن المختار . رحمه الله . درس الآجرومية فلم يفهمها، ثم درسها فلم يفهمها، فخرج مغموماً مهموماً فجلس تحت ظل شجرة، فرأى نملة تصعد تريد قطعة شحم صغيرة على رأس قضيب (4) فإذا توسطت في القضيب سقطت، ثم عادت من جديد تصعد فإذا توسطت في القضيب سقطت، حتى أعادت سبعاً فوصلت النملة، فقال المختار: لن تكون هذه النملة أقوى مني همة؛ فرجع وقرأ الكتاب سبع مرات ففتح له في النحو، وكان إماماً فيه (5)، ولكنه مع ذلك عود طلابه وأصحابه أيضاً على التضحية في سبيل العلم، وقد كانوا يشكون من عناء أسفاره، وكان رجلاً مولعاً بالسفر لا يستقر يومين متتاليين في مكان إلا أراد الانتقال منه والسفر؛ فتارة يذهب إلى (تيرس) وتارة يقطع نهر السنغال إلى إفريقيا، وكثير من هؤلاء قد لقوا عناءً كبيراً في هذه الأسفار، فكان المختار . رحمه الله . في سفر دائم والطلاب يصحبونه في سفره، ولذلك يصف نفسه وطلابه بقوله:

(1) الخليل النحوي / بلاد شنقيط، المنارة والرباط / تونس / 1987م. ط: 1. ص: 231.

(2) محمد بن محمد المختار الشنقيطي: (مقال: لماذا الشناقطة يحفظون؟)، مجلة البيان / العدد: (135 / ص: 100).

(3) انظر: أحمد بن الأمين الشنقيطي: (ت: 1331 هـ) / الوسيط في تراجم أدياء شنقيط / مكتبة الخانجي / القاهرة 1991م. ص: 93.

(4) الْقُضَيْبُ: الغُصْنُ، والقُضَيْبُ كُلُّ ثَبْتٍ مِنَ الْأَغْصَانِ يُقْضَبُ والجمع قُضْبٌ وقُضْبٌ وقُضْبَانٌ وقُضْبَانٌ. ابن منظور / لسان العرب. (قضب).

(5) قصة العناء الذي لقيه المختار بن بونا . رحمه الله . في سبيل فهم النحو مشهورة جداً، ويتفق في روايتها (الأمي والجاهل والمتعلم).

قد اتخذنا ظهور العيس مدرسة *** بها نبين دين الله تبياناً

والعيس هي الإبل.

وقد وصف أحد خريجي هذه المحاضر، وهو أحمد بن الأمين الشنقيطي ظروف أصحابها فقال متحدثاً عن العالم في بلده: «إذا نظرت إليه من جهة التدريس تجده يكابد من الأتعاب ما لا يحصى، فقد يستغرق يومه كله في التدريس لأن الشيخ عندهم لا يلزم الطلبة أن يشتركوا في درس واحد في فن من الفنون... أما ما يكابده العالم من مشاق الدنيا، فهو أنه يكون مورداً للضيوف وللمستفتين، ولطالب الحاجة، وليس للقاضي ولا للمدرس هنالك أوقاف تصرف عليهما، ولا يأخذ أحدهما من الطلبة، بل قد يعطيهم من يده، والمفتي أيضاً لا يأخذ شيئاً في مقابلة الفتوى، ولا ضابط للهيئة التي يلقي عليها المدرس عندهم، فتراه مرة يدرس ماشياً مسرعاً، ومرة جالساً في بيته ومرة في المسجد، ومنهم من يدرس في أثناء الارتحال من جهة إلى أخرى سواء كان ماشياً أو راكباً، وقد يكون راكباً والطلبة يمشون على أقدامهم في ناحيته» (1).

وهذا الشاعر والأديب الكبير: أحمد بن الطلبة (اليعقوبي)، الذي قال فيه العلامة محمد فال بن متالي التندغي: «هذا عربي آخره الله، ولا تكاد تعد طبقة، إلا بدأت به في أولها، إذا عد الكرام فهو حاتمهم، أو العلماء اللغويون، فما هو بدون ابن سيده» (2)، وكل أخباره تكتب بالذهب». وكان مولعاً بالعربية لا يفتر من التنقيب عنها والتحرير، يقال: إنه إذا سافر ونزل بحي من الزوايا نهاراً، أول ما يسألهم عنه القاموس، فإذا كان موجوداً عندهم طلب الإتيان به لينظر إليه يومه، فإن لم يكن فيهم ارتحل عنهم ولا يترك يومه ضائعاً. (3)

التخصص في المحاضرة:

رغم غلبة الطابع الموسوعي للمحاضرة الموريتانية فقد اشتهرت بعض المحاضر بالتخصص في بعض الفنون. ومن أهم تلك المحاضر ما يلي:

أولاً: محاضرة الكحلة

وهي (في وسط البلاد)، متخصصة في العلوم الشرعية فقط. أما ربيبتها «الصفرة» فهي متخصصة في العلوم اللغوية فقط.

وتعتبر الكحلة وما تفرع عنها من محاضر داخلية كالصفرة، أو خارجية كالفرع وغيرها، واحدة من أعظم المدارس التي ساهمت في نشر الإسلام، وبث علومه وأثرت التاريخ الوطني والتراث العلمي لبلادنا؛ وكانت هذه المحاضرة التي نقدم عنها فيما يلي عرضاً تعريفياً وجيزاً. من خلال تسلسل أسيادها وعمدائها الأجلاء. كانت تجمع بين تدريس القرآن الكريم والعلوم الإسلامية والعربية الأخرى وشؤون القضاء الكبرى، وتسيير الحياة العامة في منطقتها تسييراً إسلامياً؛ وكان موطنها في منطقة لبراكنة، شمال غرب آلاك في (غدكل)، و(بو طلاحية) ونواحي (أمشتيل) الأخرى. وكان الطلاب يقبلون من كل الآفاق والأصقاع للتعليم في المحاضرة، وينفق بعضهم كامل عمره تقريباً

(1) أحمد بن الأمين الشنقيطي / الوسيط في تراجم أدباء شنقيط / ص: 518، 519.

(2) علي بن أحمد بن سيده اللغوي الأندلسي، أبو الحسن الضرير وكان أبوه أيضاً ضريراً، من أهل الأندلس. مات ابن سيده بالأندلس سنة ثمان وخمسين وأربعمائة عن ستين سنة أو نحوها.

قال القاضي الجباني: كان مع إتقانه لعلم الأدب والعربية متوفراً على علوم الحكمة وألف فيها تأليف كثيرة، ولم يكن في زمانه أعلم منه بالنحو واللغة والأشعار وأيام العرب وما يتعلق بعلومها، وكان حافظاً، وله في اللغة مصنفات منها: كتاب المحكم والمحيط الأعظم مرتب على حروف المعجم اثنا عشر مجلداً. وكتاب المخصص مرتب على الأبواب كغريب المصنف، وكتاب شرح إصلاح المنطق. انظر: ياقوت الحموي / معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب / دار الغرب الإسلامي. بيروت / 1414 هـ. 1993 م / ط: 1، 4 / 1648.

(3) أحمد بن الأمين الشنقيطي / الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، ص: 94، 95.

في نيل العلم، والتعمق في أغوار المعرفة، ويساعد في التدريس أيضا لمن هم دون مستواه. (1) ظهرت المحاضرة العظيمة التي عرفت. فيما بعد بالكحلة. أول ما ظهرت مع تمام القرن العاشر الهجري على يد العالم الجليل حبيب الله بن المختارنل بن أبي بكر بن بياي بن أشفغ البكاي الإجدبي، إلا أن هذا الظهور لم تبق عنه أخبار محفوظة متصلة وعلى أي حال، فلم يدم طويلا بسبب الحرب المعروفة، ب: « شربب » [التي دامت من 1045. 1085هـ]، ونتائجها المباشرة، فقد استشهد المختارنل. والد المؤسس. في هذه الحرب، ثم وقع انقطاع في نشاط المدرسة، لنفس السبب، استمر زهاء ثلاثين سنة.

وقد جعل ذلك الانقطاع بعض [المؤرخين]، يذهب إلى أن البداية الحقيقية للكحلة كانت على يد العالم الجليل أحمد باب بن الحاج بن حبيب الله. حفيد الأول. والأصح أن أحمد باب كان العميد الثاني للمحاضرة، ولكنه. بلا خلاف. كان أول المحيين لها بعد حرب « شربب » وقد عرفت به أول ازدهارها وتدعمت، وثبت أساسها. تخرج أحمد باب على يد شيخ الشيوخ فقيه زمانه، الفالي بن الفالي البوحسني، الذي كان أول من أدخل فقه الأجاهرة (2) إلى موريتانيا بعد أن تخرج من الجامع الأزهر في مصر وأجازه هنالك الإمام علي الأجهوري إجازة بخط تلميذه المشهور الشبرخيت. وقد شهد الفالي. (بلام مفخمة). لتلميذه أحمد باب بأنه فقيه، وأجازه بسند إجازته المتقدمة؛ وقد ذكره محمد بن أبي بكر الصديق البارتيلي الولاتي في كتابه: فتح الشكور في علماء التكرور، فقال: إنه علامة جليل من العلماء العاملين الصالحين، توفي: أحمد باب سنة: (1136هـ)، فتولى أمر التدريس من بعده في الكحلة شقيقه القاضي بن أحمد باب وابنه هو الحاج معا، ثم شاركهما في نفس المهمة من بعد أبناء القاضي: الفالي وحبيب الله، ثم كان حبيب الله هذا أحد كبار عمداء الكحلة المجديدين وفقهها مشتهرا في زمانه. (3)

انبثاق الصفرة:

وفي عهد حبيب الله بن القاضي بلغت الكحلة من الازدهار درجة كبرى وتوافد عليها من طلاب العلم ما ضاقت به عرشها وأخيبتها وأكنافها الرحبة، فكان أن أنشأ الشيخ محطرة منفصلة عنها أوكل التدريس فيها لابنه العالم أحمدو بن حبيب الله، وضربت لها خيمة لإلقاء الدروس كانت صفراء (من وبر الإبل)، فكانت تلك نشأة الصفرة التي اقترن اسمها بالكحلة (وهي خيمة سوداء من صوف الضأن).

توجهت الصفرة إلى ما يشبه التخصص في العلوم اللغوية والأدبية العربية والشرعية. فكما كانت الدراسة في الكحلة مركزة على القرآن والفقه وأصوله وفروعه، توجهت ابنتها الجديدة إلى التركيز على اللغة العربية، وعلومها المختلفة من نحو وبيان وصرف، وبلاغة... إلخ. ومن أشهر أساتذة الصفرة بعد أحمدو بن حبيب الله، محمد الحاج بن أحمد بن لمرباط ومحمد محمود بن المصطفى، وأحمد فال بن محمد المختار الملقب (جرانت مولان) مبالغة في تقواه وصلاحه؛ توفي حبيب الله سنة: (1241هـ)، واضطلع من بعده بالأمر ابنه العالم محمد محمود بن حبيب الله الذي وصلت في عهده الكحلة والصفرة إلى الأوج. (4) وكانت الكحلة والصفرة مضمري المثل في العز والمجد، وكان يكفي من مدح الشخص أن يقال إنه درس فيهما، وتخرج منهما كثير من العلماء، أمثال:

- (1) مجلة الشعاع / المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية / العددان (2 و 3) / رجب: 1404 هـ. 1984م. ص: 27.
- (2) نسبة إلى الإمام علي الأجهوري.
- (3) مجلة الشعاع / المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية / العددان (2 و 3) / رجب: 1404 هـ. 1984م. ص: 28.
- (4) مجلة الشعاع / المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية / عدد (2 و 3). ص: 28.

. الشيخ سيديا الكبير.
. أحمد البدوي المجلسي.
. الشيخ محمد المامي.
. أحمد عيني بن أحمد بن الهادي، الذي أخذ عنه محمد حبيب الله بن مايابى، ومحمد الأمين بن أحمد زيدان، وغيرهم. (1)

ثانيا - محطرة يحظيه بن عبد الودود:

ولد العلامة يحظيه بن عبد الودود سنة: (1226هـ)، وقد حفظ القرآن قبل أن ينضم إلى محطرة الحسن بن زين، ثم بعد ذلك إلى محطرة المختار بن أَلَمَا، ومُرت نشأة محضرته بفترتين: الأولى من سنة: (1287)، بعد ما تخرج من محطرة أهل أَلَمَا حيث بدأ حياته العلمية، وجلس للتدريس، لكن يحظيه التحق مرة أخرى بمحطرة أهل محمد سالم حتى سنة: (1297هـ)، وتعتبر هذه الفترة الثانية والحقيقية لهذه المحطرة ومن ذلك التاريخ وهي كعبة طلاب العلم وطود شامخ من صروح المعرفة... وتميزت هذه المحطرة بأنها محطرة ذات شيخ واحد يدرس كل فن، وهو ما يعرف: ب(امرابط كَدَم)، وذلك أن هذا النوع من العلماء لا يسأل الطالب عن النص الذي يريد قراءته بل يقول له (كَدَم)، أي: قدم أي درس تريد وهذا يدل على موسوعية هذا النوع من المدرسين، وكان يحظيه بن عبد الودود في بداية أمره يحاضر أحيانا في محطرة أبي تلميت عند ما يدعوه باب بن الشيخ سيديا الذي كان يدعو لمحضرته سائر العلماء. (2) وكانت هذه المحطرة متنقلة بين عدة آبار أهمها: بئر (المولوصي).

المنهج التربوي للمحطرة:

معارف المحطرة وترتيبها:

يصنف العلامة المختار بن حامد معارف المحطرة مرتبة وفق ما يلي: (3)
الدرجة الأولى: القرآن وعلومه، والحديث وعلومه، والفقه وأصوله، والتصوف، والسيرة، والغزوات، وفتوحات الصحابة وأنسابهم.
- الدرجة الثانية: اللغة، والنحو، وعلم البلاغة، والعروض، وأنساب العرب وأيامهم.
- الدرجة الثالثة: المنطق، والتاريخ، والجغرافيا، والحساب، والفلك.
وتختلف المحاضر في ترتيب المعارف حسب الجهات؛ فبعض المحاضر في «الكبله» تبدأ بالفنون اللغوية، ثم العقائد، ثم الفقه؛ أما محاضر شرق البلاد ووسطها فيبدؤون بالفقه أولا: (الأخصري، ابن عاشر، الرسالة، مختصر خليل). ويقول محمد مبارك اللمتوني. رحمه الله. مبينا رأيه في ترتيب المنهج. (4)

وقدم الأهم إن العلم جم *** والعمر طيف زار أو ضيف ألم
أهمه عقائد ثم فروع *** تصوف وآلة بها الشروع (5)
بيد أن مناهج الدراسة تتركز في ثلاثة فنون رئيسية لا تخلو منها محطرة، وهي: الفقه، واللغة، والنحو. وقد تزيد عليها بعض المحاضر فنونا أخرى كالتفسير والحديث والسيرة. وأشهر الكتب

(1) نفس المصدر السابق / مجلة الشعاع / عدد (2، 3). ص: 31.
(2) محمد الصوفي بن محمد الأمين / المحاضر الموريتانية وآثارها التربوية على المجتمع الموريتاني / رسالة الماجستير في التربية / كلية التربية بجامعة الملك سعود (1406 هـ) / ص: 160.
(3) محمد ولد يحيى ولد الدو، محطرة يحظيه بن عبد الودود / مذكرة تخرج، المدرسة العليا لتكوين الأساتذة والمفتشين، 1984 - 1985م. ص: 20.
(4) خليل النحوي / بلاد شنقيط، المنارة والرباط / تونس / 1987م. ط: 1. ص: 195.
(5) وهناك من يرى أن هذه الأبيات لأحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي (ت: 1113هـ).

المتداولة في الفقه مختصر خليل، وهو المعتمد عليه في الفقه والفتيا، يليه في الأهمية ألفية ابن مالك في النحو، وفي اللغة تأتي المعلقات والدواوين الشعرية (حسان بن ثابت وغيلان..). وقال: الشيخ سيدي المختار الكنتي رحمه الله ناظماً الكتب المدرسية لمذهب الإمام مالك:

وإن تبتغي إتقانَ مذهبِ مالكٍ *** فنصُّ الموطأ حَقَّقْنُهُ وانتسبْ
ومن بعده جاءت فروغٌ كثيرةٌ *** وأتقنها اختصارُ نجلِ الذي حَبَّبْ
وأنفعُها نصُّ الرسالةِ قبلَهُ *** ونصُّ خليل جاء بالدرِّ والخشبِ
طوى القولَ منهم وانتقى الحقَّ مذهباً *** ولكنَّ قصبَ السبقِ من كلِّهم سَلَبْ
وقال حميدة بن انجنان ناظماً ما يتدرَّج به طالب العلم:

أبدأ بإتقانِ كتابِ الله *** ولا تكن عن الحديث لاهي
ثم احفظن مختصراً في كلِّ فنٍ *** واقرأ جميعها على الشيخ الفطن

وسأخذ نموذجين للاستدلال على تميز المنهج الدراسي للمحاضرة يمثلان منطقتي «الكله» وشرق البلاد:

أولهما: محاضرة يحظيه بن عبد الودود (ت: 1358هـ)، والآخر: المعارف والفنون التي درسها الشيخ سيدي المختار الكنتي.

في النموذج الأول، يتحدث الأستاذ الباحث محمذن ولد المحبوبي في مقال له عن محاضرة يحظيه بن عبد الودود، مشبها إياها بجامعة لها كليتان تحويان خمس شعب دراسية(1) ويمكن تصنيفهما حسب ما يلي:

1 - كلية الشريعة الإسلامية:

- شعبة العقيدة والتوحيد: (إضاءة الدجنة، الوسيلة لابن بونه، العقائد السنوسية..).

- شعبة الفقه وفروعه: (الرسالة، مختصر خليل وشروحه).

2 - كلية الآداب والعلوم الإنسانية:

- شعبة النحو واللسانيات والصرف: (تدريس ألفية ابن مالك مع توشيح ابن بون عليها، ولامية الأفعال لابن مالك مع توشيح الحسن بن زين وتكميله لها).

- شعبة اللغة والأدب: (تدريس دواوين الستة الجاهليين للأعلم الشنتمري، وغيلان، وكامل المبرد، وأشعار العباسيين).

- شعبة التاريخ والسير والجغرافيا: (تدريس نظم الغزوات للبدوي، وعمود النسب له أيضاً، وقرة الأبصار للمطي).

أما النموذج الثاني الذي يمثل المنطقة الشرقية، فيذكر الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي في كتابه «الطرائف والتلائد» الفنون التي درسها والده معدا إياها: (مختصر خليل، نظم الغزوات، الرسالة، حدود ابن عرفة في الفقه، ألفية ابن مالك، الفريدة للسيوطي في النحو، ألفية السيوطي (عقود الجمان) في البلاغة، المنجور على قواعد الزقاق في القواعد، وورقات الجويني، وجمع الجوامع في الأصول، والصحاح الستة في الحديث، وتفسير ابن عطية).

فالمحاضرة ليست مجرد مدرسة جامعة تلقن المعارف فحسب، بل هي مدرسة للحياة، تعنى بتكوين الطالب جسمياً وعقلياً ونفسياً تكويناً متكاملًا. فهي تعد الشباب الغض لمواجهة الحياة الخشنة في البادية والصحراء، حتى إذا خرج منها عاد إلى أهله جاهزا لمواجهة أعباء الحياة.(2) والطالب عادة يتوجه إلى المحاضرة ولا هم له إلا التعلم والتفقه في الدين، وليس الشهرة أو المنصب أو المتعة المادية.

(1) محمذن بن المحبوبي: (مقال: الخطاب التربوي في المحاضرة) مجلة الموكب، العدد: 12، أغشت 1987م، ص: 9 . 10.

(2) خليل النحوي/ بلاد شنقيط، المنارة والرباط: (ص 136).

الوسائل:

ويقصد بها كل ما يستعان به لتيسير عملية التعلم على الطالب (1)، (والوسائل في التعليم المحظري تقتصر على أدوات الكتابة والتعلم. وهي:
اللوح: ويصنع من الخشب المحلي، وتكتب عليه الدروس، ويفضلونه على الورق في التعلم. وقد ارتبط اللوح بالمحاضرة ارتباطاً وثيقاً، وكان له نصيب من الأدب المحظري. يقول الشيخ محمد بن حنبل في اللوح:

عم صباحا أفلحت كل فلاح *** فيك يا لوح لم أطع ألف لاح
أنت يا لوح صاحبي وأنيسي *** وشفائي من عتي ولواحي
فانتصاح امرئ يروم اعتياضي *** طلب الوفر منك شر انتصاح
بك لا بالثرا كلفت قديما *** ومحياك لا وجوه الملاح

أساليب التدريس في المحاضرة:

الزمن:

- يبدأ وقت الدراسة من الصباح حتى الليل في أغلب الأحيان، تبعاً لكثرة الطلاب وازدحام المحاضرة بهم. وتختلف طريقة التدريس من محاضرة إلى أخرى، والغالب أن يتبع الشيخ إحدى ثلاث طرائق:
- 1 - تقسيم ساعات النهار على المواد الدراسية حسب أهميتها.
 - 2 - التدريس الجماعي أو الزمري: ويدعى محلياً بـ«الدولة»، وهو عبارة عن مجموعة من الطلاب يشتركون في وحدة الفن والنص.
 - 3 - استقبال الطلاب حسب الأسبقية في المجيء (نظام الأول فالذي يليه).

كيفية التدريس:

لا توجد كيفية معينة تضبط الهيئة التي يدرس عليها الشيخ. فالشيخ كما يقول أحمد بن الأمين الشنقيطي في الوسيط: «يدرس مرة ماشياً مسرعاً، ومرة جالساً في بيته، ومرة في المسجد، وفيهم من يدرس في أثناء الارتحال..» (2).

خطوات تحصيل الدرس:

يتبع الطالب في دراسته تسلسلاً معيناً: فهو يكتب النص على اللوح الخشبي، ثم يقرؤه على «المرابط» لإجازة، ثم يقبل على قراءة النص بالترديد حتى يحفظه، ثم يقرؤه على «المرابط» غيباً واستظهاراً من ذاكرته، ثم يعود لقراءته مجزأً (جملة جملة أو بيتاً، بيتاً، حسب نوع الفن)، والشيخ يتولى الشرح في أثناء ذلك. ولا يبقى بعد هذه المراحل إلا التكرار لترسيخ المعلومات في الذهن (3). وقد جمع هذه الخطوات العلامة محمد بن فال بن متالي التندي، فقال:

كتب إجازة وحفظ الرسم *** قراءة تدريس أخذ العلم
ومن يقدم رتبة على المحل *** من ذي المراتب المرام لم ينل

(1) د. أبو الفتوح رضوان / علم التربية: المناهج وطرق التدريس: (ص: 131).

(2) أحمد بن الأمين الشنقيطي / الوسيط في تراجم أدياء شنقيط، مكتبة الخانجي، القاهرة / 1991م. ص: 519.

(3) الخليل النحوي / بلاد شنقيط، المنارة والرباط: (ص: 174).

ويختلف نظام التقويم في المحاضرة عنه في المدارس والجامعات الحديثة. ومع ذلك فالتقويم عملية مستمرة في رحاب المحاضرة، وتؤدي ثمارها بكفاءة. ويتخذ هذا التقويم نوعين هما:

١ - **التقويم التكويني**: وهو التقويم المستمر السائد في المحاضرة، ومن أشكاله:

- التقويم الذاتي الزمري: وهو ظاهرة تنفرد بها المحاضر، وتأخذ شكل أحاجي وألغاز ومساجلات وتمريعات يختبر بها الطلاب بعضهم بعضاً، ويطلع الشيخ عادة على سير هذا التقويم للاستفادة منه في رصد مستويات الطلبة.
- ٢ - **التقويم النهائي**: وهو لا يتخذ شكل امتحان أو اختبار، وإنما يبني الشيخ تقويمه النهائي للطلاب على أدائه في سلسلة الاختبارات التكوينية التي خاضها في أثناء دراسته، ويكلل الشيخ قراره بمنح الإجازة بناء على هذا التقويم. والإجازة نوعان:
- إجازة مقيدة: وتختص بفن واحد كالمقرا، أو النحو، أو الحديث. ويلزم فيها إثبات سلسلة رجال السند الذي أخذ عنهم.
- إجازة مطلقة: ولا تمنح إلا لأفراد قليلين من النابهين الذين استكملوا جميع العلوم المدروسة في المحاضرة، وأخذوا كل ما عند الشيخ، وعادة ما يؤسس هؤلاء محاضر جديدة في أحيائهم.

فضائل المنهج التربوي للمحاضرة:

الفضائل:

يلتقي المنهج التربوي للمحاضرة في بعض مبادئه مع قواعد التربية الحديثة، ويمتاز عنها بما يلي:

- الحرية: طلاب المحاضرة أحرار في اختيار الفن المدروس، والمنهج، والمدة التي يقضونها، بل وفي المعلم (إن كان في المحاضرة أكثر من شيخ).
- المساواة: يحق لكل شخص الالتحاق بالمحاضرة، بغض النظر عن عمره أو بيئته الاجتماعية، والطلاب سواسية، فمعيار التميز عندهم هو التفوق المعرفي فقط.
- المجانية: المحاضرة لا تأخذ رسوماً من طلابها، فالطالب الموسر ينفق على نفسه، أما المغترب فينفق عليه الشيخ أو زملاؤه أو أهل الحي.
- الموسوعية: فالمحاضرة جامعة موسوعية يتلقى فيها الطالب المعارف والفنون المختلفة. أما المبادئ التي تضبط التدريس في المحاضرة الموريتانية:
- التردد: وهو الالتزام بالتسلسل الطبيعي في دراسة المتون، فيبدؤون بالمتون السهلة، وينتقلون إلى المتون الصعبة؛ ففي الفقه: الأخضر، ثم ابن عاشر، ثم الرسالة، ثم مختصر خليل. وفي النحو: الأجرومية وهي: (نظم عبيد ربه)، فالألفية، وعكسه التنكيس الذي نهى عنه أحدهم قائلاً: علامة الجهل بهذا الجيل *** ترك الرسالة إلى خليل
- وترك الأخضر إلى ابن عاشر *** وترك زين للرسالة احذري
- وحدة المتن واستيفاءه: فيحظر على الطالب الاشتغال بأكثر من فن في آن واحد. قال أحدهم: وإن تردت تكميل فن تمة *** وعن سواه قبل الانتهاء مة
- وفي ترادف الفنون المنع جا *** إذ توأمان اجتماعاً لن يخرجوا
- تقليل الحصة الدراسية لتمكين الطالب من الاستيعاب، ومثاله تقسيم المختصر إلى « أقفاف » معروفة.
- إعادة دراسة المتن بعد استيفائه أكثر من مرة؛ لزيادة الحفظ والاستيعاب.
- اعتماد الطريقة التلقينية في توصيل المعلومات، تطبيقاً للمقولة المأثورة: « العلم يؤخذ من أفواه الرجال لا من بطون الكتب » (1)

(1) الخليل النحوي / بلاد شنقيط، المنارة والرباط: (ص: 269).

الخاتمة:

تناولت في هذا البحث بعض مظاهر التميز في المنهج المحظري في موريتانيا، مبرزاً ملكة الحفظ النادرة، والطاقة الذهنية العالية التي تميز بها الشناقطة قديماً والتي جعلتهم يفخرون في ثقة واعتزاز بقدراتهم على استذكار عشرات الكتب، مثل العلامة سيدي محمد بن العلامة سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي رحمه الله (ت: 1250هـ)

والعلامة محمد محمود بن التلاميذ التزكزي . رحمه الله . (ت: 1322هـ) الذي كان يزهو بحافظته متحدياً الأزهريين بأنه أحق بإمامة اللغة والاجتهاد فيها منهم؛ لأنه يحفظ القاموس كحفظه الفاتحة، فاستبعدوا ذلك وعقدوا له مجلساً بالأزهر، فكان كما قال، فأقروا له وصاروا يصححون نسخهم من نسخة التزكزي المحفوظة في صدره، ومثل النابغة الغلاوي . رحمه الله . الذي سافر من أرض الحوض، يريد من يصحبه ليتعلم عليه، فكان كلما اجتمع بعالم وعرض عليه طلبه يسأله العالم: أي فن تريد أن تقرأ، فلا يراجع الكلام بعد ذلك، حتى لقي العلامة الشهير أحمد بن العاقل الديماني، فقال له: (مَشْ)، [أي: ابدأ بدرسك] فألقى عصا التسيار عنده، وجعل يعلمه من معينه الجاري حتى تضلع..

وكان المختار ابن بون . رحمه الله . في سفر دائم، والطلاب يصحبونه في سفره، ولذلك يصف نفسه وطلابه بقوله:

نحن ركب من الأشراف منتظم *** أجل ذا القدر دون أدنانا

قد اتخذنا ظهور العيس مدرسة *** بها نبين دين الله تبياناً

وفي وصف أحد خريجي هذه المحاضر لظروف أصحابها، يقول أحمد بن الأمين الشنقيطي متحدثاً عن العالم في بلده: « إذا نظرت إليه من جهة التدريس تجده يكابد من الأتعاب ما لا يحصى، فقد يستغرق يومه كله في التدريس لأن الشيخ عندهم لا يلزم الطلبة أن يشتركوا في درس واحد في فن من الفنون... أما ما يكابده العالم من مشاق الدنيا، فهو أنه يكون مورداً للضيوف وللمستفتين، ولطالب الحاجة، وليس للقاضي ولا للمدرس هنالك أوقاف تصرف عليهما، ولا يأخذ أحدهما من الطلبة، بل قد يعطيهم من يده، والمفتي أيضاً لا يأخذ شيئاً في مقابلة الفتوى، ولا ضابط للهيئة التي يلقي عليها المدرس عندهم، فتراه مرة يدرس ماشياً مسرعاً، ومرة جالساً في بيته ومرة في المسجد، ومنهم من يدرس في أثناء الارتحال من جهة إلى أخرى سواء كان ماشياً أو راكباً، وقد يكون راكباً والطلبة يمشون على أقدامهم في ناحيته..

وقد اشتهرت بعض المحاضر في بلاد شنقيط بالتخصص في بعض الفنون مثل محاضرة الكحلة (في وسط البلاد) متخصصة في العلوم الشرعية فقط. أما ربيبتها «الصفرة» فهي متخصصة في العلوم اللغوية فقط.

وكانت تجمع بين تدريس القرآن الكريم والعلوم الإسلامية والعربية الأخرى وشؤون القضاء الكبرى، وتسيير الحياة العامة في منطقتها تسييراً حسناً، فالمحاضرة إذن جامعة موسوعية يتلقى فيها الطلاب المعارف المختلفة، (كالقرآن وعلومه، والحديث وعلومه، والفقه وأصوله، والتصوف، والسيرة، والغزوات، وفتوحات الصحابة وأنسابهم)، وفق منهج علمي فعال ومتميز، طابعه العام التدرج في العلوم الشرعية واللغوية (النحو، وعلم البلاغة، والعروض، المنطق، والتاريخ، والجغرافيا، والحساب، والفلك).

وتختلف المحاضر في ترتيب المعارف حسب الجهات؛ فبعض المحاضر في «الكبله» تبدأ بالفنون اللغوية، ثم العقائد، ثم الفقه؛ أما محاضر شرق البلاد ووسطها فيبدؤون بالفقه أولاً.. ولا مبالغة. تذكر. إذا قلنا إن المحاضر في موريتانيا لا تزال تحتفظ بدورها الريادي وتساهم بقدر كبير في نشر الإشعاء الثقافي والمعرفي في بلادنا، رغم وجود بعض التحديات، وتعدد المتطلبات، غير أنها بحاجة إلى تطوير مناهجها، وتعميق معارفها لتشمل أهم معارف العصر وعلومه، كالرياضيات وبرامج

(الحاسوب) إلى غير ذلك من علوم الآلة.

ولعل من مظاهر التطور التي شهدتها التعليم المحظري حديثا هي إنشاء المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية في نهايات سبعينات القرن العشرين وبدايات ثمانيناته، وقد دخل فيه عدد غير قليل من خريجي المحاضر عن طريق مسابقتها السنوية التي يجريها بانتظام في كل سنة، إضافة إلى كثير من الطلبة الذين ينجحون في شهادة الثانوية العامة في الآداب الأصلية كل سنة؛ وقد استطاع كثير من خريجه مواصلة الدراسات العليا في بعض الدول العربية والإسلامية حتى حصلوا على شهادة الدكتوراه في مختلف تخصصات العلوم الشرعية، والذين تزداد أعدادهم باستمرار، لكن المعهد العالي لم يستفد من خبرات هؤلاء الدكاترة إلا في حدود ضيقة جدا، وظل جل اعتماده يقتصر فقط على الأساتذة المتعاقدين الذين لا يحملون شهادة عليا، وهم الأغلبية الساحقة من أساتذته، فمتى يتغير هذا الواقع؟ ومتى نرى مؤسسات التعليم العالي التابعة لوزارة الشؤون الإسلامية تستفيد من خبرات حملة الدكتوراه المعطلين الذين وصل عددهم إلى سبعين، أو ثمانين من حملة (الدكتوراه) تخرجوا كلهم من جامعات عالمية عربية وإسلامية متميزة؟

وفي سنة (2011م) أنشئت جامعة العلوم الإسلامية (باليون)، فاستوعبت أعدادا كبيرة من الطلاب، ومهما عرض لها من صعوبات، فإنها تبدو أفضل بكثير من المعهد العالي، تنظيما وتسييرا ورقابة. ولم أتحدث هنا عن المحاضرة الكبرى لأنها لا تزال على الورق.

وقد آن الأوان للدولة، ممثلة في الوزارة الوصية على مؤسسات التعليم العالي أن تعيد النظر في واقع هذه المؤسسات، ولن يتأتى لها ذلك إلا بخلق إرادة جادة وجديدة تبحث في واقع هذه المؤسسات، على أن تعد تقريرا شاملا يسمح بتطويرها، وإعادة هيكلتها وفق المتطلبات، وبما يساهم في مواجهة كل التحديات.

فهرس المصادر والمراجع:

أولا. المصادر والمراجع:

1. أحمد بن الأمين الشنقيطي: (ت: 1331 هـ) / الوسيط في تراجم أدياء شنقيط / الشركة الدولية للطباعة / مصر. (د. ت).
2. ابن جبير / رحلة ابن جبير (ت: 614 هـ) / دار مكتبة الهلال / بيروت / (ص: 2).
3. ابن منظور / لسان العرب: (فصل الحاء).
4. أبو الحسن بن الفقيه أبي محمد ابن عبد الله بن الحسين النباهي الأندلسي / المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا = تاريخ قضاة الأندلس / دار الآفاق الجديدة. بيروت. لبنان / 1403 هـ. 1983 م. ط: 5. (ص: 194).
5. د. أبو الفتوح رضوان، علم التربية: المناهج وطرق التدريس.
6. خليل النحوي / (بلاد شنقيط / المنارة والرباطي / تونس / ط: 1. 1987م.
7. ديوان ابن حزم الظاهري (95) بتحقيق د. رشاد، ط الأولى. (د. م).
8. محمد المصطفى بن الندى: (دور المحاضر في موريتانيا) بحث تخرج في المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية بنواكشوط عام 1405هـ.
9. محمد الحافظ ولد المجتبى: الحديث علومه وعلمائه في بلاد شنقيط / مطبعة الأطلس / انواكشوط / 2001م.
10. محمد ولد يحيى ولد الدو / محاضرة يحظيه ولد عبد الودود / مذكرة تخرج / المدرسة العليا لتكوين الأساتذة والمفتشين، 1984 - 1985م.

11. المختار بن حامد / حياة موريتانيا / الحياة الثقافية / الجزء الثاني: الدار العربية للكتاب.
12. ياقوت الحموي / معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب / دار الغرب الإسلامي . بيروت 1414 هـ . 1993 م / ط: 1. (4 / 1648).
- ثانياً. المجلات:
13. د. أحمد بن حبيب الله (مقال: تطور النظام التربوي في المحاضر) مجلة التعليم / العدد: 13، 2000م.
14. أحمد ولد محمد ذو النورين (السلفية في موريتانيا) مجلة البيان / العدد (237).
15. مجلة الشعاع / المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية / العددان (2 و3) / رجب: 1404 هـ . 1984م.
16. محمود بن محمد المختار الشنقيطي/ مجلة البيان: العدد / (135 / 100)، ذو القعدة - 1419 هـ مارس - 1999م (السنة: 13). (مقال: لماذا الشناقطة يحفظون؟).
17. محمذن بن المحبوبي: (مقال: الخطاب التربوي في المحاضرة) مجلة الموكب، العدد: 12، أغشت 1987م.
19. محمد الصوفي بن محمد الأمين / المحاضر الموريتانية وآثارها التربوية على المجتمع الموريتاني / رسالة الماجستير في التربية / كلية التربية بجامعة الملك سعود (1406هـ).

المباحث اللغوية التي يحتاج إليها الأصولي في استنباطه الأحكام الفقهية

الدكتور محمد فال حرمة

أستاذ الفقه والأصول
مؤسسة المحظرة الشنقيطية
الكبرى - اكجوجت

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله تعالى على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وأزواجه الطيبين الطاهرين وعلى كل صحابته وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين؛ وبعد
فإن الأصولي أو المجتهد الناظر في الأدلة الشرعية له شروط؛ وهي محشورة في كتب الأصول بكل تفصيل ومن بين تلك الشروط المكونة للمجتهد علمه باللغة العربية ليفهم بها مقاصد المشرع ولغته ولينحو نحوها أوان النظر في الأدلة الشرعية وقد رأيت أن أكتب بحثاً موجز عما يحتاجه المجتهد أو الأصولي من المباحث اللغوية التي ينبغي أن يكون على دراية منها فمنا مباحث الألفاظ والدلالات وقسمته إلى ثلاثة محاور:

المحور الأول: عربية الشريعة وتحديث فيه أن الشريعة عربية النزول وأن المجتمع الذي نزل فيه القرآن عربي كما تحدثت عن اختلاف أساليب اللغة العربية في الاستعمال وعن أنواع الدلالات.
المحور الثاني: الدلالات اللغوية ومحاملها، بينت فيه أن أهل الأصول استفادوا من نتائج الدراسات المنطقية التي تناولت دلالة الكلام على المعنى وقد فرق المناطق بين الدلالة اللفظية المفردة وغيرها وقسموا الأولى إلى دلالة مطابقة وتضمن والتزام، ومفاهيم هذه تحدثت عنها في المحور الأول، كما تحدثت عن دلالة الألفاظ لا من حيث مدلول اللفظ اللغوي، -فذاك ينبغي أن يكون محل اتفاق بين المتكلم والسامع- بل من حيث المعنى والمقاصد، وصحة الكلام، وهل يتوقف على محذوف وهل المحذوف المتوقف عليه صدق الكلام شرعياً أم لغوياً.. وتشمل هذه الدلالات: دلالة الاقتضاء والإشارة ودلالة الإيماء والتنبيه.

المحور الثالث: علاقة اللفظ بالمعنى وفي هذا المحور أذكر أهمية اللغة ودراساتها بالنسبة للأصولي، ومن أهم ذلك دراسة تطور اللفظ من الحقيقة التي هي الأم رغم أنواعها من لغوية وشرعية وعرفية إلى المجاز والاستعارة والكناية وشروط ذلك كله، فمن لم يفهم ذلك لم يفهم عن الشارع مقاصده بالطريقة المثلى، كذلك ينبغي دراسة اللغة هل هي من وضع الله أم اصطلاحية بين البشر، كل هذا مباحث تناولها أهل الأصول في كتبهم لارتباطها بعملية الاجتهاد ثم أختتم بأهم النتائج التي توصلت إليه

المحور الأول: عربية الشريعة

لا بد للناظر في الشريعة الإسلامية، كمجتهد مستنبط، أو متدبر متفهم، أن يعلم أنها عربية، ونزلت بلسان عربي مبين، وفائدة هذا العلم أن يأتي البيوت من أبوابها، فيعلم شدة ارتباطها باللغة، فيتشبع من معينها ليدرك خفايا الشريعة وأسرارها وحكمها البليغة.

وقد بحث الإمام الشاطبي رحمه الله عربية الشريعة، فقال: «إن هذه الشريعة المباركة عربية لا مدخل فيها للألسن الأعجمية» (1)، وساق على ذلك آيات قرآنية (2)، كقوله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) (3)، وقوله تعالى: (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) (4) وقوله أيضا: (لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ)، وقوله: (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ) (5). وتكلم رحمه الله عن عربية القرآن، وقال إنه عربي، وأن لا داعي في البحث هل فيه ألفاظ أعجمية معربة، أو لم ترد فيه أصلا؟ (6)، لأن ما تكلمت به العرب، وجرى في خطابها، وفهمت معناه، صار من كلامها، فقال: «إن العرب إذا تكلمت به صار من كلامها» (7)، يعني اللفظ الأعجمي، واستدل على عموم العربية فيه وخلوه من العجمة، بأن معهود العرب في خطابها «أن تخاطب بالعام يراد به ظاهره، والعام يراد به العام في وجه والخاص في وجه، والعام يراد به الخاص، والظاهر يراد به غير الظاهر، وكل هذا يعرف من أول الكلام أو وسطه أو آخره، وكذلك تتكلم بالكلام ينبئ أوله عن آخره، أو آخره عن أوله، وتتكلم بالشيء يعرف بالمعنى كما يعرف بالإشارة، وتسمي الواحد بأسماء كثيرة، والأشياء الكثيرة باسم واحد» (8).

وقال إن على هذا المعهود نزل القرآن، وقال إنه إذا كان لسان العجم لا يمكن أن يفهم إلا من جهته، فكذلك اللسان العربي لا يمكن أن يفهم إلا من جهته لا من جهة اللسان الأعجمي لاختلاف أساليبيهما، لأن اللسان العربي لسان غني بمفرداته ومتعدد بأساليبه، وهذا يبينه لك تقسيم الشاطبي للغة العربية من حيث إطلاق ألفاظها ومعانيها وتقييدها إلى دالتين: أولا: الدلالة الأصلية: وهي التي تكون الألفاظ والمعاني فيها مطلقة، وقال إن هذه الدلالة تستوي فيها جميع اللغات مع اللغة العربية، ومثل لها بأن إذا قام زيد فكل صاحب لغة له أن يعبر عن هذا الفعل بلغته، وتلك الدلالة التي يفيدها قوله أصلية أي لا تعدو في هذا المثال أن زيدا قام.

ثانيا: الدلالة التبعية:

وهي التي تكون الألفاظ فيها والمعاني خادمة لمعنى أصلي، وهي نوع من التفنن في القصد، ومصوب المقاصد قد يكون في الخبر كقولك: قام زيد عندما لا تعني إلا بالخبر، وعندما تعني بصاحب الفعل تقول زيد قام، وفي جواب سؤال تقول: إن زيدا قام، وفي جواب المنكر للقيام: والله إن زيدا قام، وفي إخبار من يتوقع قيامه أو الأخبار بقيامه: قد قام زيد، أو زيد قد قام، وفي التنكير على من

1 - الموافقات لأبي إسحاق الشاطبي، ج: 2، ص: 101، دار بن عفان، ط: 1، 1417هـ/1997م.

2 - سورة النحل، الآية: 103.

3 - سورة يوسف، الآية: 2.

4 - سورة الشعراء، الآية: 195.

5 - سورة فصلت، الآية: 44.

6 - وهو مذهب الشافعي في الرسالة، تحقيق: أحمد شاكر، مكتبة الحلبي، ط: 1، 1358هـ/1940م، ص: 50. ومذهب أبي عبيدة معمر بن المثنى في كتابه مجاز القرآن، ج: 1، ت: محمد فؤاد سزكين، د: ط، د: ت، ص: 17.

7 - الموافقات، ج: 2، ص: 102.

8 - الموافقات، ج: 2، ص: 103.

ينكر قيامه «إنما قام زيد»، وبناء على وفور أساليب اللغة العربية يقول الشاطبي: إنه لا تجوز ترجمة القرآن، لأن المترجم لا يمكن له أن ينقل هذه الدلالات التبعية الخادمة للدلالة الأصلية، لأن الخبر فيه تحتف به أمور خادمة له وتختلف بحسب الخبر والمخبر والمخبر عنه ونفس الإخبار، في الحال والمساق ونوع الأسلوب من الإيضاح والإخفاء والإيجاز والإطناب وغير ذلك وهذا الوفور عربي(1).

وكل مجتمع لم يرسل إليهم نبي إلا بلسانهم، قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ)(2)، أي بلغتهم، ولسان قريش كان عربيا، ولذا تحتّم على الناظر في الشريعة أن يدرس العربية لأن القرآن عربي والسنة المبينة له عربية.

وإن النبي صلى الله عليه وسلم دعا لمن وعى حديثه وأداه كما سمعه، فقال «نضر الله عبدا سمع مقالتي فوعاها وأداها كما سمعها»(3).

يقول الشافعي: «على كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده»(4). وكل هذا الطلب جاء نتيجة لما بين الشريعة واللغة العربية من الارتباط الشديد، وكان مدلول الخطاب الشرعي يبينه امتثاله صلى الله عليه وسلم له، وبعد زمن الوحي اختلف العلماء في هذا المدلول الشرعي، وبهذا الاختلاف كثرت الأحكام وتشعبت الآراء.

إلا أن الدراسة للغة العربية كوسيلة لفهم الخطاب الشرعي ابتدأت عهد النبوة كما تفيد قصة عدي بن حاتم التي فيها أنه كان يضع عقالين عند رأسه أحدهما أبيض والآخر أسود وقت نومه، وينتظر تبين الأبيض من الأسود ليعرف به وقت الإمساك امتثالا لقوله تعالى: (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ)(5)، وفي هذا الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: «إنك عريض القفا إنما ذاك سواد الليل وبياض النهار»(6)، ولذلك فإن أئمة التشريع حاولوا في دراستهم أصول الفقه أن يبدأوا بالأساس للتشريع وهو اللغة، فتساءلوا عن أصلها وطبيعتها ونشأتها وتطورها، فاعتمدوا في ذلك الدراسات التي قام بها متخصصون في العلوم اللسانية أمثال الخليل بن أحمد وسيبويه وابن علي الفارسي وابن فارس(7). وإذا نظرت في كتب الأئمة الكبار علمت أن لهم اليد الطولى في اللغة العربية، وعلمت أن ما أنتجوه كثير منه عن طريق تشبعهم باللغة العربية، وعلمت اهتمامهم بها، وحضورها في أحكامهم، وسنسوق البعض من الأمثلة الدالة على اهتمام الأئمة رحمهم الله باللغة العربية.

أولا: المالكية

وعلى رأسهم الإمام مالك رحمه الله، فقد استنتج أن متعة المطلق مندوبة لا فرض، والدليل عنده أن الله تعالى في الآية قصرها على المحسنين، فقال: (مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ)(8). واستنتج أيضا أن أقل الجمع هو اثنان، وعليه عنده أن من حلف أن يتصدق بدراهم بير بدرهمين(9).

ثانيا: الشافعية

وكان إمامهم الأكبر الشافعي، وكان معروفا بإمامته في اللغة العربية، حتى ذكر أنه كان من شيوخ عبد الملك بن قريش المعروف بالأصمعي، ويكفي هذا دليلا على تقدمه في اللغة العربية(10).

1 - الموافقات، ج: 2، ص: 105-106.

2 - سورة إبراهيم، الآية: 4.

3 - ابن ماجة، ج: 1، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، د: ط. د. ت: ص: 84.

4 - الرسالة للشافعي، تحقيق: أحمد شاكر، مكتبة الحلبي، ط: 1، 1358 هـ، 1940 م، ص: 47.

5 - سورة البقرة، الآية: 187.

6 - فتح الباري على صحيح البخاري لابن حجر، ج: 4، دار المعرفة، بيروت، 1379 هـ، ص: 133.

7 - مدخل أصول الفقه المالكي محمد المختار ولد اباه، دار العربية للكتاب، 1987، د: ط، ص: 26.

8 - سورة البقرة، الآية: 236.

9 - مدخل أصول الفقه المالكي، ص: 26.

10 - مدخل أصول الفقه المالكي، ص: 26.

وكان لاهتمامه باللغة العربية انعكاسات على اجتهاداته في الأحكام الشرعية، ففي كتابه المعروف بـ «الرسالة» في معرض حديثه عن الاجتهاد لمن يريد أن يولي وجهه شطر المسجد الحرام، جاء بعدة أبيات شعرية تدل أن الشطر بمعنى الجهة، فاستدل بقول خفاف بن ندبة:

ألا من مبلغ عمرا رسولا وما تغني الرسالة شطر عمرو
وكذلك يقول ساعدة بن جوية:

أقول لأم زبناغ أقيمي

صذور العيس شطر بني تميم

وكذلك يقول لقيط الأيادي:

وقد أظلمكم من شطر تغركم

كما استشهد بالبيت الذي يعتري لقيس خويلد الهذلي وهو:

إن العسير بها داء يخامرها

فشطرها بصر العينين

فكل هذه الأبيات الشعرية ساقها هذا الإمام استدلالاً أن الشطر في اللغة هو الجهة، وهذا البسط الشعري يدل على مرجعية هذا الإمام في اللغة.

وكذلك فإن هذا الإمام ابتكر تأسيس قواعد لغوية وشرعية في آن واحد، ومن أهمها نظريته عن «أقل المعنى»، ومضمون هذه القاعدة أن الخطاب التكليفي إذا صدر عن المشرع فإن المكلف مطالب بفعل أقل ما يصدق عليه ذلك المعنى، وأن فعله أقل ما يصدق عليه ذلك المعنى يعد امتثالاً منجياً كفعل الصلاة والحج مثلاً.

ثالثاً: داود الظاهري الذي يعد من أكابر الأئمة الأصوليين، وكان قد بنى أساس فكرة التشريع على ظاهر المعنى، فصار مذهبه معروفاً بالمذهب الظاهري. وأما علماء الأصول فقد جمعوا بين الفقه واللغة، ومن الضروري أن يكونوا كذلك، فقد كان أبو بكر الباقلاني أصولياً أديباً، ومراجعة كتابه في إعجاز القرآن تبين ذلك، وكذلك القاضي عبد الوهاب كان لغوياً وشاعراً، وقد قال أحمد باب التنبكتي: إنه لا يكمل تكوين العالم إلا إذا كان خبيراً باللغة، وذكر أن إبراهيم الصفاقسي وأخاه كان أحدهما عالماً بفروع الفقه ومتوناً، والثاني كان متخصصاً في اللغويات وأنهما إذا اجتمعا كانا بمنزلة الفقيه الكامل(1).

المحور الثاني:

الدلالات اللغوية ومحاملها

إن تلك دلالات الألفاظ معروفة لغة من حيث الوضع فإن الاستعمال والعمل يغيرها لدى المتبادلين، فترى الواضع يقصد بالحقيقة في كلمة مجازها لأسباب، أو يقصد المجاز لاستهجان الحقيقة(2). وربما تلقى الحامل من المستعمل ما لا يقصده لتعدد أوجه الكلام وليس له ضابط إلا احتفاف القرائن به.

وبالرغم من ذلك كله فلا مناص في التفاهم عن التعبير بواسطة الألفاظ، لأن التصورات المنطقية لا تبرز عن الحقيقة الذهنية إلا بواسطة الألفاظ، فنشأ عن هذا ضرورة وضع المقاييس التي تتناول أنواع الدلالات، وعلاقة الألفاظ بالمعاني.

1 - راجع نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد باب التنبكتي، ج: 1، الناشر: كلمة الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط: 1، 1398هـ / 1989م، ص: 44.

2 - مدخل أصول الفقه المالكي للدكتور محمد المختار ولد إياه، الناشر: الدار العربية للكتاب، ص: 37، ط: 1، ت: 1987.

وقد استفاد الأصوليون من نتائج الدراسات المنطقية فيما يخص دلالة الكلام على المعنى، واعتادوا أن يفرقوا بين الدلالات اللفظية المفردة والدلالات السياقية، فأوضحوا أن دلالة الألفاظ المفردة تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

أولاً: دلالة المطابقة، ومعناها أن اللفظ يدل على معناه دون زيادة أو نقصان كدلالة السقف على غطاء البيت لا تدل على غيره.

ثانياً: دلالة تضمن، ويمثل لها أيضاً بكلمة السقف فإنها تتضمن وجود مواد معينة تدخل في تكوين السقف وتركيبه.

ثالثاً: دلالة التزام فكلمة السقف أيضاً، تصلح مثلاً لها لأنها تدل على وجود حيطان دلالة التزام، دلالة الألفاظ متأثرة بنظم الكلام والتصرف في التعبير، ويمكن أن يسمى هذا التأثير بدلالة السياق لأن ما يدل عليه اللفظ من حيث اللغة ينبغي أن يكون محل اتفاق بين المتبادلين (المتكلم السامع)، أما صحة هذا الكلام عقلاً أو ما يفيد استنباطاً فيرجع إلى أمور أخرى، وسيوضح هذا في الأمثلة تحت التقسيم إن شاء الله.

دلالة الاقتضاء وهي أن يدل لفظ دلالة التزام على محذوف لا يستقل الكلام دونة لتوقف صدقه عليه، أو توقفه عليه عقلاً أو شريعاً.

المثال على ما توقف صدق الكلام عليه: حمل حديث ذي اليمين على كلمة «في ظني» لما سها النبي صلى الله عليه وسلم في صلاته، فقال له: ذو اليمين «أقصر الصلاة أم نسيت يا رسول الله قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل ذلك لم يكن» (1)، والنبي صلى الله عليه وسلم يستحيل عليه الكذب، والواقع أنه سلم من ركعتين فكان الحديث محمولاً على تقدير «في ظني».

المثال على توقف صحة الكلام عقلاً: قوله تعالى حكاية عن أبناء يعقوب لما طلبوا من أبيهم أن يسأل القرية التي كانوا فيها والعير فقال: (وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) والتقدير: اسأل أهل القرية.

المثال على توقف صحة الكلام على محذوف شرعاً كالأمر بالصلاة يتوقف شرعاً على محذوف وهو الأمر بالاستعداد لها من طهارة وتحصيل شروطها، وكذلك قوله تعالى: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَمْهَاتُكُمْ) (2) يتوقف صحة هذا الكلام شرعاً على محذوف تقديره «نكاح الأمهات»، والدليل على ذلك أن الأحكام الشرعية لا تتعلق بالذوات وإنما تتعلق بالأفعال، ولذا قال صاحب المراقبي: ولا يكلف بغير الفعل باعث الأنبيا ورب الفضل (3)

دلالة الإشارة، وهي إشارة اللفظ إلى معنى ليس مقصوداً منه بالأصالة بل بالتبع، ومع وجود هذا المعنى فإن الضرورة لا تدعو إليه بل يصح الاقتصار على المعنى الأصلي ومثاله قوله تعالى: (أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةُ الصَّيَّامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ)، فهذه الآية تدل بالإشارة على صحة صوم من أصبح جنباً لأنه تعالى كنى عن الجماع بالرفث وهو ما لا يحسن ذكره، فصار جواز إتيان النساء في ليلة الصيام جائزاً حتى في آخر لحظة من تلك الليلة، لأن ليلة الصيام عامة لأن الإضافة إلى المعروف من أدوات العموم (4).

دلالة الإيماء وهو اقتران وصف بحكم لو لم يكن الوصف علة لذلك الحكم لعبابه الفطن بمقاصد

1 - أخرجه البخاري في صحيحه، تحت باب هل يأخذ الإمام إذا شك بقول الناس، ج: 1، تحقيق: محمد زهير ناصر بن ناصر دار طوق النجاة، ط: 1، 1422هـ، ص: 144.

2 - سورة النساء، الآية: 32.

3 - نثر الورود تأليف محمد الأمين (ابن محمد المختار) (خطور الشنقيطي، ص: 98-99، ج: 1، ن: دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، السعودية ت: 1423هـ - 2002م

4 - نثر الورود، المرجع السابق، ج: 1، ص: 100، وكذلك مدخل أصول الفقه المالكي، سبق التعريف بالكتاب، ص: 35.

الكلام، ومثاله قوله تعالى: (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا) (1)، فالوصف هنا اقترن بحكم وهو القطع فاقتران الوصف هنا بالحكم إيماء أنه هو علته (2).
وإذا كانت الدلالة منقسمة بين دلالات لفظية مفردة، ودلالات سياقية، وكانت أداة لابد من دراستها من أجل التفاهم، فإن هذه الدلالات في مجال التفاهم تدور بين اللغة والمتكلم والسامع.

المحور الثالث: علاقة اللفظ بالمعنى

تختلف اللغة العربية بطبيعة أسلوب علاقة اللفظ بالمعنى، وكذلك يختلف المعنى على حسب تصرف المتكلم ومدى مقدرة السامع على تفسير ما يتلقاه، وهذا ما جعل محمد المختار ولد اباه يقول: إن قواعد اللغة تطرح مجموعة من المسائل يحتاج الأصولي إلى معرفتها وهي:

1: ما يخص ثبوت العلاقة الأصلية بين الأسماء والمسميات، وهو «الوضع».
2: تطور مضمون الألفاظ في المجاز والاستعارة والكناية.
يعرف ثبوت العلاقة بين الدال والمدلول بالنقل التواتري والسماع والاشتقاق القريب، كما يتطلب ثبوت هذه العلاقة دراسة أصول اللغات، ويقول فيه الدكتور محمد المختار ولد اباه: إنه بحث لغوي أكثر مما هو أصولي، وقسم علاقة الألفاظ بالمعاني من حيث التعدد من أحدهما إلى ثلاثة أقسام: الأول: المشترك، وهو ترادف معان عدة على لفظ واحد، كالعين تطلق على الباصرة والجاسوس والنقدين.

الثاني: الترادف، وهو عكس الأول كالأسد والليث يطلقان على مسمى واحد.
الثالث: المشكك، وهو إطلاق لفظ على معنى كلي تتفاوت درجاته على حسب القصد منه، كالنور يطلق على الضوء الخاطف والخافت، وقال: لو كان لكل معنى لفظ يخصه لكانت اللغة أداة سهلة (3).
إذا كانت الدلالات منها ما هو أصلي وما هو تباعي فنرى أنه من الحسن أن نذكر الضابط للأصالة في اللغة، وكذلك الضابط للتباعي.

الأصلي في اللغة هو المعبر عنه عند اللغويين بالحقيقة، وهي استعمال اللفظ فيما وضع له ابتداءً، وإذا كانت بهذا التعريف فإنها تركز على نظرية نشأة اللغة.

وقد اختلف الأصوليون في نشأة اللغة، ونشأ عن هذا الاختلاف ثلاثة مذاهب:
الأول: أن اللغة توقيفيه ومعنى ذلك أنها من وضع الله، وأن الله علمها آدم فتعلمتها ذريته منه، واستدل أهل هذا المذهب بقوله تعالى: (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) (4)، وكذلك ما في حديث الشفاعة أن أهل الموقف يقولون لأبيهم آدم: «وعلمك أسماء كل شيء» (5).

الثاني: أنها اصطلاحية، وهو قول أكثر المعتزلة وبعض أهل السنة، وعلى هذا القول فالتفاهم حصل بينهم بالإشارة كأن يقول أحدهم لأحد ناوطني ذلك الكتاب الذي في البيت، وليس في البيت إلا الكتاب،

1 - سورة المائدة، الآية: 38.

2 - نشر الورود، شرح مراقي السعود تأليف سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي الشنقيطي ت: 1233 هـ، ص: 98 إلى ص: 101، ت: محمد الأمين بن محمد بيب، ت: 1426 هـ، 2005 م، ن: بدون ذكر للناسر ج: 1، ط: 1.

3 - مدخل أصول الفقه المالكي، سبق التعريف بالكتاب ص: 36.

4 - سورة البقرة، الآية: 31.

5 - أخرجه البخاري في صحيحه، الباب: قول الله وعلم آدم الأسماء كلها، ص: 17، ج: 6، ت: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط: 1، ت: 1422 م.

فيتعين أن ما يجده هو الكتاب، كما يتعلم الطفل من أبويه اللغة(1).
الثالث: توقف أهله عن القطع برأي في نشأة اللغة لتعذر الإدلاء ببرهان قطعي منطقيا أو تاريخيا، والجمهور كادوا أن يجمعوا على وجود حقائق لغوية تطورت إلى حقائق أخرى سموها بالحقائق العرفية أو الشرعية.

الحقيقة العرفية كاختصاص إطلاق لفظ الدابة في بعض البلدان على ذوات الحوافر، والحقيقة الشرعية كاستعمال الصلاة في الهيئة المشتملة على الركوع والسجود، مع أن الأصل في الصلاة هو الدعاء(2).

سوى أن إرادة المتكلم والحرية التي يراها وقت الكلام فيما يراه ملائما قد تصرفه عن التقيد بالمدلول الأول «الحقيقة»، فينصرف إلى مجازات الألفاظ ومختلف الصيغ السياقية من دلالة اقتضاء أو إشارة أو إيماء، أو يضمر أو يطلق في موضع، ويقيد في آخر، وهذه الحرية والتقنين هو المعروف عند اللغويين بالاستعمال.

ومع ذلك فإن هذه الحرية تقيد بقيود، لئلا يدخل السامع في متاهات من الكلام لا يدرك القصد منها إلا من قبله، ويفوت القصد من التخاطب (التفاهم).

ولذلك كانت العرب تطلق الأسد على الرجل الشجاع بقريئة الصفة الظاهرة فيه، أما القريئة السياقية في هذا الإطلاق هو الأسلوب الصارف عن قصد المعنى الأول كأن نقول رأيت أسدا في الدار، إذ لا يعهد أن تكون الأسود في الديار. وتتفنن العرب في المجازات فتطلق الجزء على الكل، والكل على الجزء، فمن الأول إطلاقها العين على الريئة، ومن الثاني: ما جاء في قول الله تعالى: (يَجْعَلُونَ أَصَابَهُمْ فِي أَذَانِهِمْ)(3)، فهذا من باب إطلاق الكل على الجزء، لأن المقصود إدخال الأنامل في الأذان لا الأصابع(4).

كذلك من قرائن المجاز: اعتبار ما يؤول إليه الشيء، كما في قوله تعالى: (إِنِّي أَرَانِي أَعَصِرُ خَمْرًا)(5)، وكذلك اعتبار الماضي، كما في قوله تعالى: (وَإِبْتَئُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النُّكَاحَ)(6)، لأن من بلغ سن الرشد وإن لم يرشد لا يسمى يتيما، وإطلاقه عليه هنا استصحاب للماضي(7).

الخاتمة

يمكن أن نقول أن اللغة العربية لا يمكن فهم الشريعة الإسلامية إلا بها لعربية الشريعة. أما المجتهد ولاسيما المجتهد اجتهدا مطلقا فقد اشترطوا فيه علمه بها إلى أن يمتطي رتبة سامية في معرفتها، وذلك لأنه يأخذ الأحكام ويستنبطها من أدلتها الكبرى فينبغي أن يفهم اللغة كما يفهمها العربي القح.

فيما مضى قسمت الدلالات من حيث دلالتها على المعنى بتمامه ومن حيث دلالتها على المعنى بالنص أو الالتزام أو التضمن ومن حيث توقف صحة المعنى على محذوف قد يكون شرعيا وقد يكون عقليا إلى دلالة اقتضاء والالتزام وإشارة....

1 - نشر البنود سبق التعريف بالكتاب ج: 1، ص: 120-121.

2 - مدخل أصول الفقه المالكي، سبق التعريف بالكتاب ص: 30.

3 - سورة البقرة، الآية: 19.

4 - مدخل أصول الفقه، سبق التعريف بالكتاب ص: 37.

5 - سورة يوسف، الآية: 36.

6 - سورة النساء، الآية: 6.

7 - مدخل أصول الفقه المالكي، سبق التعريف بالكتاب ص: 38.

كما تحدثت عن تطور اللفظ من معناه المسلم له كالذي يدل عليه ابتداءً ألا وهو المتسم بالحقيقة إلى ما يدل عليه بقرائن أخرى تجعله مجازاً أو استعارة أو كناية أو منقولا... فيعد هذا تطوراً للفظ، ولا بد للناظر في الشريعة كأصولي أم مجتهداً أن يكون على علم بهذا. ونسأله تعالى العصمة من الخلل والوقوع في الزلل وأن يجعلنا ممن يريد بالأعمال الصالحة وجهه الأعلى.

المصادر والمراجع:

- إحكام الفصول في أحكام الأصول لأبي الوليد الباجي، ت: عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، ط: 2، ت: 1415 هـ / 1995 م.
- أصول التشريع الإسلامي لأبي العينين بدران، د: تحقيق، مؤسسة الجامعة الأسكندرية، د: ط، ت: 1399 هـ / 1979 م.
- أضواء البيان لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، دار الفكر، د: تحقيق، ت: 1415 هـ / 1995 م.
- سنن النسائي بتحقيق عبد الفتاح أبي عدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، ط: 2، ت: 1406 هـ.
- سنن أبي داود الأبى داود: سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمر الأزدي، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د: ط، د: ت.
- شرح الطحاوية بتحقيق شعيب الأرناؤوط عبد الله بن الحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط: 10، ت: 1447 هـ / 1997 م.
- صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، د: ط، د: ت.
- صحيح البخاري، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط: 1، ت: 1422 هـ.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر أبي الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة، بيروت، 1379 هـ.
- ابن ماجه، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، د: ط، د: ت.
- فتاوى الإمام الشاطبي ت: محمد أبي الألفان، ط: 1، مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل، تونس، ت: 1984 م.
- الموافقات لأبي إسحاق الشاطبي، دار ابن عفان، ط: 1، ت: 1417 هـ / 1997 م.
- الرسالة للشافعي، ت: أحمد شاكر، مكتبة الحلبي، ط: 1، ت: 1358 هـ / 1940 م.
- مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى، ت: محمد فؤاد سركين، د: ط، د: ت.
- تنقيح الفصول لابن العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس المشهور بالقراقي، ت: طه عبد الرؤوف سعد، شركة الطباعة الفنية المتحدة، ط: 1، ت: 1393 هـ.
- مدخل أصول الفقه المالكي لمحمد المختار ولد اباه، الدار العربية للكتاب، ط: 1، ت: 1987 م.
- نثر الورود لمحمد الأمين الشنقيطي على نظم مراقي السعود، تحقيق: محمد ولد سيدي ولد حبيب الشنقيطي، ط: 3، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، السعودية، ت: 1423 هـ / 2002 م.
- نشر البنود شرح مراقي السعود تأليف سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي ت: 1233 هـ، ت: محمد الأمين بن محمد بيب، ط: 1، ن: بدون ذكر دار نشر، ت: 1426 هـ / 2005 م.

رفع التعارض عن حديث
النبي صلى الله عليه وسلم
في موضوع:

أحكام الشعر في الإسلام

الدكتور محمد محمد
الحافظ الرازي

أستاذ الحديث
جامعة شنقيط العصرية



الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.
إن رواية حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم رووا أحاديث نبوية في أحكام الشعر والشعراء
ظاهرها التعارض، فمنها ما ورد فيه النص على كره النبي - صلى الله عليه وسلم - للشعر واستعاذته
بالله منه، ونهيه - عليه الصلاة والسلام - عن إنشاده في المساجد، وتفضيله امتلاء الجوف قيحا على
أن يمتلئ شعرا.
ومنها ما ينص على أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنشد الشعر وتمثل به، واستنشد، وقاله
أصحابه، وحضهم على قوله في هجاء المشركين، وأنه قال: إن من الشعر لحكمة.
وقد تفاوتت الأفهام في رفع هذا التعارض عند العلماء أهل الاختصاص في هذا الفن من فنون
الحديث، وهو ما يسمونه: مشكل الحديث، أو مختلف الحديث، وقد أفرده جماعة من العلماء
بالتصنيف، منهم:
الإمام الشافعي - رحمه الله - صنف كتابه «اختلاف الحديث» وهو مطبوع متداول ضمن آخر كتاب
الأم له.
والإمام ابن قتيبة الدينوري وكتابه «تأويل مختلف الحديث» مطبوع.
والإمام أبو جعفر الطحاوي، وكتابه «مشكل الآثار» مطبوع، وهو كتاب عظيم النفع، واستفاد منه ابن
عبد البر كثيرا في كتابه «الاستذكار».
وأبو جعفر ابن جرير الطبري وكتابه «تهذيب الآثار» مطبوع.
والإمام أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك وكتابه «مشكل الحديث»¹.
وسيتناول هذا البحث رفع التعارض عن ثلاثة مباحث:
المبحث الأول: الشعر بين المدح والذم
المبحث الثاني: قول النبي صلى الله عليه وسلم الشعر وإنشاده.
المبحث الثالث: إنشاد الشعر في المساجد.
المبحث الأول: رفع التعارض بين أحاديث مدح الشعر وذمه:

عن أبي بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن من الشعر حكمة»¹، وعن ابن عباس قال: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فجعل يتكلم بكلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن من البيان سحرا وإن من الشعر حكما»².

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لأن يمتلئ جوف الرجل قيحا يريه خيرا من أن يمتلئ شعرا»³. وعن أبي سعيد الخدري قال: بينا نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعرج إذ عرض شاعر ينشد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خذوا الشيطان أو أمسكوا الشيطان، لأن يمتلئ جوف رجل قيحا خيرا له من أن يمتلئ شعرا⁴.

عن أبي نوفل بن أبي عقرب قال: سألت عائشة: هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتسامع عنده الشعر؟ قالت: كان أبغض الحديث إليه⁵.

عن عمرو بن مرة عن عاصم العنزي عن ابن جبير بن مطعم عن أبيه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل في الصلاة قال: «الله أكبر كبيرا، الله أكبر كبيرا» ثلاثا، «الحمد لله كثيرا، الحمد لله كثيرا» ثلاثا، «سبحان الله بكرة وأصيلا» ثلاث مرات، اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه» قال عمرو: همزه الموتة، ونفثه الشعر، ونفخه الكبرة.

اختلف فقهاء أهل الحديث في التعامل مع هذه الروايات:

1 - فمنهم من خصص أحاديث الذم بالشعر الفاحش كهجاء المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم، فقد روي حديث القبيء بزيادة تبين أنه خاص بأشعار المشركين في هجاء النبي صلى الله عليه وسلم، بعض تلك الروايات تبين أن تلك الزيادة إدراج من الراوي، قال أبو عبيد⁷: وسمعت يزيد يحدث بحديث أن النبي قال: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه خيرا له من أن يمتلئ شعرا». يعني من الشعر الذي هجى به النبي. قال أبو عبيد: والذي عندي في هذا الحديث غير هذا القول لأن الذي هجى به النبي لو كان شطربيت لكان كفرا فكأنه إذا حمل وجه الحديث على امتلاء القلب منه أنه قد رخص في القليل منه؛ ولكن وجهه عندي أن يمتلئ قلبه من الشعر حتى يغلب عليه فيشغله عن القرآن وعن ذكر الله فيكون الغالب عليه من أي الشعر كان.

وقال ابن حجر: وقد وقع لنا ذلك موصولا من وجهين آخرين، فعند أبي يعلى من حديث جابر في الحديث المذكور «قيحا أو دما خيرا له من أن يمتلئ شعرا هجيت به» وفي سنده راو لا يعرف، وأخرجه الطحاوي وابن عدي من رواية ابن الكلبي عن أبي صالح عن أبي هريرة مثل حديث الباب قال «فقال عائشة لم يحفظ إنما قال: من أن يمتلئ شعرا هجيت به»، وابن الكلبي وأبي الحديث، وأبو صالح شيخه ما هو الذي يقال له السمان المتفق على تخريج حديثه في الصحيح عن أبي هريرة، بل هذا آخر ضعيف يقال له باذان، فلم تثبت هذه الزيادة⁸.

ومع هذا فإن مذهب تخصيص حديث القبيء بالهجاء ارتضاه أبو جعفر الطبري في كتابه تهذيب الآثار ودافع عنه بقوله⁹: «والصواب من القول عندنا في معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه خيرا له من أن يمتلئ شعرا»، هو ما رواه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في معنى ذلك الشعبي، عن قوله: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خيرا له من أن

- 1 صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه، رقم: 5793.
- 2 سنن أبي داود كتاب الأدب باب ما جاء في الشعر، رقم: 5011.
- 3 صحيح مسلم، كتاب الشعر، رقم: 2257.
- 4 صحيح مسلم، كتاب الشعر، رقم: 2259.
- 5 مسند الإمام أحمد مسند عائشة، رقم: 25534.
- 6 السنن لابن ماجه كتاب الصلاة، باب الاستعاذة في الصلاة، رقم: 807.
- 7 غريب الحديث لابن سلام - (1 / 36).
- 8 فتح الباري شرح صحيح البخاري - ابن حجر - (17 / 349).
- 9 تهذيب الآثار للطبري - (2 / 450).

يتملئ شعرا هجيت به»، ولا معنى لتوهم المنكر صحة معنى هذا الخبر أنه يلزمه إن قال بتصحيحه إباحة ما دون امتلاء الجوف من هجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ كان الظاهر منه عنده أنه يدل على النهي عن الامتلاء منه دون الدلالة على النهي عما هو دون الامتلاء، وأن باطنه عنده يدل على إباحة ما دون الامتلاء منه، إلا لغفلة، بل في ذلك الدليل الواضح، لمن تأمله بفكر صحيح، أنه من النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن قليل ما هجي به من الشعر وكثيره، وذلك أنه لا شك أن الامتلاء من ذلك إذا كان نظير الامتلاء من القيح الذي يورث الوري، فإن ما دون الامتلاء منه نظير ما دون الامتلاء من القيح الذي من حكمه أن يورث الامتلاء منه الوري، وذلك لا شك كله داء مكروه، وضرر على الأبدان محذور، يتقيه كل ذي فطرة صحيحة، ويهرب منه كل ذي بنية سليمة. فإن كان نظير الشعر الذي هجي به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وله شبيها لتمثيل رسول الله صلى الله عليه وسلم إياه به، فلا شك أنه قد دل بتشبيهه إياه به عليه السلام أولي الأبواب من أمته، على أن الواجب عليهم من اتقاء قليل ذلك وكثيره والحذر منه، نظير ما في فطرتهم وبنيتهم من اتقاء قليل ما أفسد أجوافهم وكثيره، وأورثها الداء، من القيح الذي يورثها الوري كثيره. وفي كون ذلك كذلك صحة ما قلنا وفساد ما خالفنا. فإن قال قائل: إن الخبر الذي ذكرت عن الشعبي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك خبر مرسل، وراويه بعد مجالد، وواجب في خبر مجالد عن كثير من أهل النقل، التثبت فيما كان منه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم متصلا، فكيف بما يكون منه مرسلا منقطعا؟ قيل له: ما قد بينا في غير هذا الموضع من أن مراسيل العدول الذين شأنهم التحفظ من الرواية عمن لا يجوز الرواية عنه من الأخبار، لله تعالى دين لازم من بلغته قبولها والدينونة بها، مع بيان الأسباب الموجبة عليه قبول خبر مجالد ونظرائه إن شاء الله تعالى. وبعد، فإننا لم نجعل علتنا في تصحيح المعنى الذي تأولناه وقلنا في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لأن يتملئ جوف أحدكم قيحا خيرا له من أن يتملئ شعرا»، الخبر الذي ذكرناه عن الشعبي وحده، دون غيره من المعاني التي تتفق نحن ومخالفونا على الدلالة على صحة ما قلنا في ذلك. وذلك أنا نقول للزاعم أن معنى ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم: النهي عن الامتلاء من الشعر حتى لا يكون في قلب صاحبه شيء غيره من القرآن والعلم: أخبرنا عن النهي الذي ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم عن الامتلاء من الشعر، إن كان الأمر على ما وصفت، أمخصوص له الشعر خاصة، أم ذلك عام في كل ما امتلأ الجوف منه حتى لا يكون فيه غيره؟ فإن زعم أن ذلك مخصوص به الشعر خاصة، دون سائر الأشياء غيره، قيل له: الجائز إذا أن يتملئ قلب المؤمن من رواية أساجيع الكهان وخطب الخطباء، حتى لا يكون فيه من كتاب الله عز وجل ولا من علوم الدين شيء؟ فإن قال: ذلك كذلك، خرج من قول جميع الأمة، لإباحته الجهل من أمور الدين بما لم يبيح الله الجهل به، ومن ترك حفظ القرآن وما لا يسع ترك حفظه لأحد وإن قال: ذلك غير جائز. قيل: فقد بطل إذا أن يكون قول النبي صلى الله عليه وسلم الذي ذكرناه معنيا به الشعر خاصة. وذلك ترك منه لقوله. وإن قال: بل ذلك معني به كل ما امتلأ منه جوف المرء كائنا ما كان ذلك الذي امتلأ منه، شعرا أو غيره، ترك القول بالخبر، وقيل له: فقد يجب إذا، إن كان الأمر كذلك، أن يكون من امتلأ قلبه من القرآن والحكمة، أن يكون ممتلئا قلبه من القيح الذي يريه خيرا له من امتلائه من ذلك. وذلك قول إن قاله لا يخفى فساده على ذي فطرة صحيحة. وإن قال: بل ذلك معني به الامتلاء من بعض المعاني دون بعض. قيل له: فما ذلك المعنى الذي عني بالنهي عنه؟ فإن سمي شيئا بعينه من صنوف العلوم عورض في ذلك بخلافه، فلن يقول في أحدهما قولا إلا ألزم في الآخر مثله. وفي فساد القول بجواز امتلاء القلب من بعض العلوم التي هي من غير علوم الدين، حتى لا يكون في القلب غيره، ولا شيء يخالطه من كتاب الله وغيره من علوم الدين أيين الدليل على صحة ما قلنا في أن معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لأن يتملئ جوف أحدكم قيحا يريه خيرا له من أن يتملئ شعرا»، بخلاف القول الذي ذكرنا أنه تأوله بمعنى الامتلاء من الشعر حتى لا يكون فيه شيء غيره.

رأي الباحث:

إن تخصيص هذا الحديث بذاته أنه في النهي عن شعر المشركين في هجاء النبي صلى الله عليه وسلم خاصة يتعارض مع سبب ورود الحديث الذي أورده مسلم في صحيحه؛ إذ يبعد أن يقف أي شاعر مهما بلغت شجاعته بين يدي رسول الله وحوله أصحابه يهجو، بل لعله إنما أسمعه شعرا يفتخر فيه بقومه على الطريقة الجاهلية في الفخر من التعالي والتفاضل في غير تقوى الله ألا ترى أنه زجر النابغة الجعدي وهو ينشده رأيته المشهورة التي يقول فيها:

بَلَّغْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَجُدُونَا وَإِنَّا لَنَرُجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرَا

لما أحس فيه الأسلوب الجاهلي في الفخر، فقال له: «إلى أين يا أبا ليلى؟» فقال النابغة في حسن بديهة: إلى الجنة. فهم النابغة أنه لا تنافس في الإسلام إلا في التقوى، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

2- ومنهم من ذهب مذهب أبي عبيد في كتابه غريب الحديث إلى أن المراد بأحاديث ذم الشعر ما يشغل صاحبه عن القرآن وذكر الله، فيكون الغالب عليه، أما إذا كان القرآن وذكر الله وطلب العلم وتدارسه هو الغالب عليه فليس جوف مثل هذا ممن امتلأ بالشعر، ودخل تحت مضمون الذم، ولو كان يروي شعرا كثيرا أو يقوله، وممن ذهب هذا المذهب الإمام البخاري في صحيحه، إذ ترجم لحديث القبي بن جهم: «باب ما يكره أن يكون الغالب على اللسان الشعر».

قال ابن حجر معلقا على هذه الترجمة: قوله: «باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر حتى يصد عنه ذكر الله والعلم والقرآن»، هو في هذا الحمل متابع لأبي عبيد كما سألناه، ووجهه أن الذم كان لامتلاء وهو الذي لا بقية لغيره معه دل على أن ما دون ذلك لا يدخله الذم.

3- ومنهم من قال: معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خيرا له من أن يمتلئ شعرا» النهي عن قيل الشعر كله وروايته، قليلة وكثيرة.

ولا شك أن هذا القول هو أبعد الأقوال عن الصواب؛ لأن الروايات الصريحة في هذا المذهب غير صحيحة وتحتمل التخصيص حتى لا تعارض النص القرآني الصريح وصحيح السنة النبوية التي تمتح الشعر الإسلامي، قال الإمام الطبري: وأما الذين أنكروا رواية جميع أصناف الشعر اعتلا منهم بما ذكرنا من الأخبار المروية في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن الأخبار بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم واهية الأسانيد غير جائز الاحتجاج بمثلها في الدين، والصحيح من الأخبار عنه صلى الله عليه وسلم في ذلك، ما قدمنا ذكره من أمر حسان وغيره من شعراء الصحابة بهجاء المشركين، وإعلامه إياهم أن لهم على ذلك الثواب الجزيل، واستنشاده إياهم، وتمثله أحيانا من ذلك بالبيت بعد البيت. والشيء بعد الشيء، وإخباره أصحابه أن هجاء من هجا من شعراء أصحابه المشركين أشد على المشركين من نضحهم إياهم بالنبل. ولقد ذكر أن قبيلة من قبائل العرب أسلموا بوعيد كعب بن مالك إياهم في شعره، ولا شك أن ما كانت نكايته في العدو النكاية التي تدعو أمة منهم إلى الإذعان بالطاعة، والدخول في الدين، والمسالمة، أبلغ في المكيدة من نضح النبل والضراب بالسيف، وأن ما كان مبلغه في نكاية العدو هذا المبلغ لا ينبغي أن يغفل عن استعماله. وإذا كان لا ينبغي أن يغفل عن استعماله لم يجز أن يقال: لا يحل قتله وروايته، بل هو إلى وجوب قتله وروايته في بعض الأحوال أقرب منه إلى لزوم تركه وترك روايته. ويقال لجميع من أنكروا قيل الشعر وروايته: رأيت قول الله جل ثناؤه: والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكرنا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا مختلف فيه حكم المستثنى والمستثنى منهم أم متفق؟ فإن زعموا أنه متفق خالفوا

في ذلك نص حكم الله تعالى في كتابه؛ لأن الله جل ثناؤه خالف بين أحكامهم، فأخرج المستثنى من حكم الذين قبلهم. وإن قالوا: بل هو مختلف قيل لهم: فقد وضح إذن أن المذموم من الشعراء غير الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا، وأنهم هم الذين صفتهم خلاف هذه الصفة، فأما من آمن منهم وعمل الصالحات وذكر الله كثيرا فغير مذمومين، بل هم محمودون¹.

4- ومنهم من يرى أن الذم خاص بما حرمه الإسلام من أغراض الشعر من الخوض فيما لا ينبغي الخوض فيه والكذب مما أشارت إليه الآية الكريمة من سورة الشعراء، ولا يشمل الشعر الإسلامي الصادق الذي يدفع الظلم ويهدي إلى البر، قال ابن حجر²: وقوله « شعرا » ظاهره العموم في كل شعر، لكنه مخصوص بما لم يكن مدحا حقا كمدح الله ورسوله وما اشتمل على الذكر والزهد وسائر المواعظ مما لا إفراط فيه.

وإذا نظرنا إلى النصوص الشرعية من القرآن والسنة وجدنا اهتماما بالمعاني دون المباني مدحا وذما، مما يدل دلالة صريحة على أن الشعر كلام كسائر الكلام غيره، غير أن له فضلا على غيره من الكلام المنثور بأنه موزون تستحليه الألسن وتستعذبه المسامع، فالشعر لا يختلف عن غيره باعتباره كلاما كسائر الكلام، حسنه حسن كحسن الكلام، وقبيحه قبيح كقبيح الكلام، وكونه مؤتلف النظام منسق الأوزان لا يخرججه عن معنى غيره من الكلام، أن يكون سبيله سبيله، في أن ما حسن قبله وروايته من غيره حسن منه، وما قبح قبله وروايته من غيره قبح منه.

وعلى هذا تتفق النصوص المتعارضة في مدح الشعر وذمه، وإنما يريد الإسلام أن يظهر السنة الشعراء، ولم يكن كبير أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم بإحسان من العرب، إلا وهو للشعر قائل، أو هو له راو الرواية الغزيرة الكثيرة³، ويروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: تحفظوا الأشعار وطالعوا الأخبار، فإنَّ الشعر يدعو إلى مكارم الأخلاق ويعلم محاسن الأعمال، ويبعث على جميل الأفعال، ويفتق الفطنة، ويشحذ القريحة، ويحدو على ابتناء المناقب وادّخار المكارم، وينهى عن الأخلاق الدنيئة، ويزجر عن مواقعة الرّيب، ويحض على معاني الرّتب⁴.

المبحث الثاني: رفع التعارض عن إنشاد النبي صلى الله عليه وسلم الشعر وقوله انطلاقا من فهم رواية الحديث لقول الله تعالى في سورة: [يس: 69] وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ اختلفت الروايات في الموضوع، فالذين يرون أن إنشاد البيت والبيتين أو قولهما لا يكسب به النبي صلى الله عليه وسلم صفة الشاعر، أو أن الضمير في: « وَمَا يَنْبَغِي لَهُ » عائد على القرآن. أي: وما ينبغي الشعر للقرآن بدليل عود الضمير عليه في قوله: « إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ »⁵ صححوا في كتبهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم حنين: أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وأما من فهموا أن الآية المذكورة صريحة في تنزيه النبي صلى الله عليه وسلم عن قول الشعر أوردوا روايات تبين أن من علامات نبوته أنه لا يقول الشعر ولا يزنه، وأنه إذا حاول إنشاد بيت قديم متمثلا كسر وزنه، وإنما كان يحرز المعاني فقط صلى الله عليه وسلم، من ذلك أنه أنشد يوما قول طرفة:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك من لم تزوده بالأخبار

1 تهذيب الآثار للطبري - (2 / 450).

2 فتح الباري شرح صحيح البخاري- ابن حجر - (17 / 349).

3 تهذيب الآثار للطبري - (2 / 426).

4 زهر الآداب وثمر الألباب - (1 / 9).

5 تفسير البحر المحيط . موافق للمطبوع- ط الكتب العلمية - (7 / 330).

وأنشد يوما وقد قيل له من أشعر الناس فقال الذي يقول:
ألم تربياني كلما جئت طارقا وجدت بها وإن لم تطيب طيبا1
وأنشد يوما:

أتجعل نهبي ونهب العبد يد بين الأقرع وعيينة
وقال الحسن بن أبي الحسن: أنشد النبي عليه السلام:

كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهيا
فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله إنما قال الشاعر:

هريرة ودع إن تجهزت غاديا كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

فقال أبو بكر أو عمر: أشهد أنك رسول الله، يقول الله عز وجل: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ} 2.
وعن الخليل بن أحمد: كان الشعر أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من كثير من الكلام،
ولكن لا يتأتى له.

ويعتبرون ما أنشده مستقيما وزنا من النادر جدا بل قد يكون من نثر كلامه ما يدخل في وزن،
كقوله يوم حنين وغيره:

هل أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت

وقوله:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب

كما يأتي مثل ذلك في آيات القرآن، وفي كل كلام؛ وليس ذلك شعرا ولا في معناه؛ كقوله تعالى:
{لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} [آل عمران: 92]، وقوله: {نَصْرُ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ} [الصف:
13]، وقوله: {جَفَانٌ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٌ رَاسِيَاتٍ} [سبأ: 13] إلى غير ذلك من الآيات. وقد ذكر ابن العربي
منها آيات وتكلم عليها وأخرجها عن الوزن، على أن أبا الحسن الأخفش قال في قوله: «أنا النبي لا
كذب» ليس بشعر. وقال الخليل في كتاب العين3: إن ما جاء من السجع على جزأين لا يكون شعرا.
وروي عنه أنه من منهوك الرجز. وقد قيل: لا يكون من منهوك الرجز إلا بالوقف على الباء من قوله:
«لا كذب»، ومن قوله: «عبدالمطلب». ولم يعلم كيف قاله النبي صلى الله عليه وسلم. قال ابن العربي:
والأظهر من حال أنه قال: «لا كذب» الباء مرفوعة، ويخفض الباء من عبد المطلب على الإضافة. وقال
النحاس قال بعضهم: إنما الرواية بالإعراب، وإذا كانت بالإعراب لم يكن شعرا؛ لأنه إذا فتح الباء من
البيت الأول أو ضمها أو نونها، وكسر الباء من البيت الثاني خرج عن وزن الشعر. وأما قوله: «هل أنت
إلا إصبع دميت» فقيل إنه من بحر السريع، وذلك لا يكون إلا إذا كسرت التاء من دميت، فإن سكن
لا يكون شعرا بحال؛ لأن هاتين الكلمتين على هذه الصفة تكون فعول، ولا مدخل لفعول في بحر
السريع. ولعل النبي صلى الله عليه وسلم قالها ساكنة التاء أو متحركة التاء من غير إشباع.

أما قولهم: ليس هذا الوزن من الشعر فغير صحيح؛ لأن أشعار العرب على هذا قد رواها الخليل
وغيره، لكن لا يلزم منه أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم عالما بالشعر ولا شاعرا؛ إن التمثل
بالبيت النزر وإصابة القافيتين من الرجز وغيره لا يوجب أن يكون قائلها عالما بالشعر، ولا يسمى
شاعرا باتفاق العلماء، كما أن من خاط خيطا لا يكون خيطا. قال أبو إسحاق الزجاج: معنى: {وما
علمناه الشعر} وما علمناه أن يشعر أي ما جعلناه شاعرا، وهذا لا يمنع أن ينشد شيئا من الشعر. قال
النحاس: وقد قيل: إنما خبر الله عز وجل أنه ما علمه الله الشعر ولم يخبر أنه لا ينشد شعرا، وإنما
الذي نفاه الله عن نبيه عليه السلام هو العلم بالشعر وأصنافه، وأعاريضه وقوافيه والاتصاف بقوله،
ولم يكن موصوفا بذلك بالاتفاق.

- 1 الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان - (15 / 51).
- 2 الطبقات الكبرى - (1 / 382).
- 3 الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان - (15 / 51).

وعلى كل حال فالروايات التي فيها إنشاد النبي صلى الله عليه وسلم وقوله البيت والبيتين مما استحسنته من أشعار العرب وأراجيزها أصح؛ لورودها في أمهات كتب الصحيح؛ ولأنها لا تعارض معنى الآية، أما الروايات المخالفة فلا تكاد تجدها إلا عند الإخباريين كابن سعد والطبراني، الغرض منها دفع التعارض مع معنى الآية الذي توهموه من تنزيه النبي صلى الله عليه وسلم عن قول الشعر مطلقاً، ومن أجله كره بعضهم الاشتغال بالشعر وفنونه للعلماء ورثة الأنبياء، ونسب إلى الإمام الشافعي قوله: 1

ولولا الشعر بالعلماء يزري لكنت اليوم أشعر من لبيد

المبحث الثالث: تناشد الأشعار في المساجد

الأصل في هذا الموضوع ما رواه الإمام مالك في موطأه رواية يحيى بن يحيى الليثي قال: «مالك أنه بلغه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنى رجة في ناحية المسجد تسمى البطيحاء، وقال: من كان يريد أن يلفظ أو ينشد شعراً أو يرفع صوته فليخرج إلى هذه الرجة» 2. هذا الأثر من ناحية سنده اختلف رواة الموطأ فيه فمنهم من جعله من البلاغات كيحيى ومنهم من وصل سنده عن مالك إلى عمر كما فعل مصعب في موطأه وهو آخر الموطآت عن مالك. قال ابن عبد البر: هذا الخبر عند القعنبي ومطرف وأبي مصعب عن مالك عن أبي النضر عن سالم بن عبد الله عن بن عمر أن عمر بن الخطاب بنى رجة في المسجد الحديث ورواه طائفة كما رواه يحيى 3. ومن ناحية المعنى فقد عارض هذا الأثر بعض الناس بحديث أبي هريرة أن حسان بن ثابت لما أنكر عليه عمر إنشاده الشعر في المسجد قال قد كنت أنشد فيه وفيه من هو خير منك فسكت عمر. قال ابن عبد البر: وهذا محمله عندي أن يكون الشعر الذي ينشد في المسجد ما ليس فيه منكر من القول ولا زور وحسبك ما ينشد على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما ما كان فيه من الفخر بالآباء الكفار والتشبيب بالنساء وذكرهن على رؤوس الملأ وشعر يكون فيه شيء من الخنا فهذا كله لا يجوز في المسجد ولا في غيره والمسجد أولى بالتنزيه من غيره... إلا أن الشعر وإن كان حسناً فلا ينبغي أن يكون إنشاده في المسجد إلا غباً؛ لأن إنشاد حسان كذلك كان وأما الشعر القبيح وما لا حكمة فيه ولا علم فينبغي أن تنزه المساجد عن إنشاده فيها. وما أورده الإمام مالك من النهي عن إنشاد الشعر في المساجد موقوفاً على عمر بن الخطاب يناقض الروايات التي تجيزه، فعن أبي هريرة: أن عمر مر بحسان وهو ينشد الشعر في المسجد فلحظ إليه، فقال: قد كنت أنشد وفيه من هو خير منك، ثم التفت إلى أبي هريرة فقال: أنشدك الله أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أجب عني، اللهم أیده بروح القدس 4. وعن أنس: أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل مكة في عمرة القضاء و عبد الله بن رواحة بين يديه يمشي وهو يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله اليوم نضربكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

فقال له عمر يا ابن رواحة! بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي حرم الله تقول الشعر؟!

1 ديوان الإمام الشافعي رحمه الله - (1 / 8).

2 موطأ الإمام مالك، باب جامع الصلاة رقم: 422، دار إحياء التراث العربي - مصر، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

3 الاستذكار - (2 / 368).

4 صحيح مسلم، كتاب المناقب، باب فضائل حسان، رقم: 2259.

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: خل عنه يا عمر، فلهي أسرع فيهم من نضح النبل¹. مما تسبب في اختلاف العلماء في حكم إنشاد الشعر في المساجد، إذ ذهب قوم إلى كراهة ذلك، ولم ير آخرون في إنشاده الشعر في المسجد بأسا، إذا كان ذلك الشعر مما لا بأس براويته وإنشاده في غير المسجد، واحتجوا بما روي عن النبي الله - صلى الله عليه وسلم - من أنه كان يضع لحسان منبرا في المسجد ينشد عليه، وبما روي من حديث حسان حين مر به عمر وهو ينشد الشعر في المسجد، فزجره، فقال له حسان: « قد كنت أنشد فيه الشعر، وفيه من هو خير منك». وقد ذكر الإمام أبو جعفر الطحاوي - رحمه الله - لرفع التعارض بين تلك الروايات احتمالات فقال: قد يجوز أن يكون الرسول - صلى الله عليه وسلم - أراد بذلك الشعر الذي نهى عنه أن ينشد في المسجد هو الشعر الذي كانت قريش تهجوه به، ويجوز أن يكون هو من الشعر الذي تؤتى فيه النساء وترزأ فيه الأموال، على ما روينا من جواب الأنصار من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لابن الزبير - رضي الله عنه - حين أنكر عليهم إنشاده حول الكعبة، وقد يجوز أيضا أن يكون أراد بذلك الشعر الذي يغلب على المسجد حتى يكون كل من فيه أو أكثر من فيه متشاغلا بذلك². والذي يظهر لي والله أعلم أن ما ذكره ابن عبد البر من رفع التعارض هنا أولى بالصواب؛ لأن الضابط الشرعي الذي تتفق عليه نصوص الشريعة أن الشعر المحمود الذي ينشد في المسجد وغيره ما ليس فيه منكر من القول ولا زور، وحسبك ما ينشد على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما ما كان فيه من الفخر بالآباء الكفار، وشعر يكون فيه شيء من الخنا فهذا كله لا يجوز في المسجد ولا في غيره والمسجد أولى بالتنزيه من غيره.

الخاتمة:

خلاصة الكلام في هذا الموضوع:

أنه ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم مدح مضمون الشعر وذمه، كما ذمت آية الشعراء مضمون الشعر ومدحته، وإن ذكر في الآية لفظ الشعراء وفي السنة لفظ الشعر لكن المتأمل فيهما يدرك أن صناعة الشعر غير مقصودة بمدح ولا ذم، وإنما المراد مقاصد الشعر وأغراضه، فما فيها من حكمة وموعظة ودعوة للخير وحث على الطاعات فهي محمودة مرغّب فيها بل مطلوبة شرعا، وما كان فيها من إثم وبغي وبغير حق ودعوة للبشر والفساد فهي مذمومة ممقوتة بل محرمة شرعا. أن ما ثبت من قول النبي صلى الله عليه وسلم البيت والبيتين وإنشاده ما استحسنته من شعر الشعراء ثابت على وجهه ولا يتعارض مع النص القرآني؛ لأن مثل هذا لا يعتبر صاحبه شاعرا عند أهل الفن، وما لجأ إليه من حاول التوفيق بين روايات قول الشعر وإنشاده ومعنى قوله تعالى: وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ [يس: 69] من إفساد الصنعة الشعرية لما استحسنته النبي صلى الله عليه وسلم من الشعر غير مقبول لكونه يعارض ما ثبت في أمهات كتب الحديث الصحيح، ولكون الضمير في الآية يحتمل كونه عائدا إلى القرآن كما سبق بيانه. يجوز إنشاد الشعر الإسلامي في المساجد، كما كان يفعل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ولكن لا ينبغي الإكثار من الاشتغال به فيه، وأما الشعر الغاوي الذي يضر ولا ينفع فإن مجالس المسلمين وأسماعهم وألسنتهم منزهة عنه، وبيوت الله عنه أولى بالتنزيه.

1 الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، كتاب الأدب، باب ما جاء في إنشاد الشعر، رقم: 2847.

2 معاني الآثار للطحاوي (9 / 200).

قائمة المراجع

- الاستذكار، دار الكتب العلمية - بيروت ط الأولى، 1421 - 2000، تحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض.
- تفسير البحر المحيط - ط الكتب العلمية -
- تهذيب الآثار للطبري، دار المأمون للتراث، دمشق: 1416 هـ - 1995 م، تحقيق علي رضا بن عبد الله بن علي رضا.
- التوضيح الأبهر لتذكرة ابن الملقن في علم الأثر - أضواء السلف.
- الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون.
- الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط: 1423 هـ / 2003 م المحقق: هشام سمير البخاري.
- ديوان الإمام الشافعي رحمه الله.
- زهر الآداب وثمر الألباب، لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، دار الكتب العلمية - بيروت لبنان ط: الأولى - 1417 هـ - 1997 م، تحقيق: أ. د / يوسف على طويل.
- سنن أبي داود، دار الفكر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.
- السنن لابن ماجه، دار الفكر - بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.
- صحيح البخاري، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، ط: الثالثة، 1407 - 1987، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة - جامعة دمشق.
- صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.
- الطبقات الكبرى لابن سعد، دار صادر - بيروت.
- غريب الحديث لابن سلام، دار الكتاب العربي - بيروت، ط: الأولى، 1396، تحقيق: د. محمد عبد المعيد خان.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري- ابن حجر - دار المعرفة - بيروت، 1379.
- موطأ الإمام مالك، دار إحياء التراث العربي - مصر، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

تقرير عن تجربة «كرسي فحول الشعر العربي المعاصر»



ضمن الرؤى الطويرية الناهضة بالدرس الأكاديمي أطلقت كلية اللغة العربية والعلوم الإنسانية بجامعة العلوم الإسلامية كرسياً علمياً ونقدياً بعنوان: «فحول الشعر العربي المعاصر». يهتم الكرسي بالمزاوجة بين النظري والتطبيقي، والخروج بالدرس النقدي من النمطية التلقينية إلى التفاعل.

في الجلسة الأولى من الكرسي تحدث عميد الكلية د. أحمد محمود افاه عن رسالة الكرسي العلمية وعن الرهانات التي يسعى إلى كسبها، وتضمنت الجلسة -التي حضرها رئيس الجامعة البروفوسير محمّدو لمرباط اجيد- عرضاً عن البداوة في شعر الشاعر الموريتاني أحمدو عبد القادر قدمه د. محمد الأمين محمد المصطفى. وفي المقابل قدم د. أحمد سالم أباه شلا ورقة عن قصيدة السفين باعتبارها منعطفا مهما في تاريخ الشعر الموريتاني.

ثم سار قطار الكرسي في الجلسة الثانية ليقف في أحياء الشام مع تجربة الشاعر نزار قباني وذلك من خلال ورقتين قدم أولاهما د. محمّدن فال محمد يحظيه وقدم الثانية د. محمد المختار محمد فاضل، وفيما ركزت الورقة الأولى على ملامح الإبداع والفرادة في شعر نزار كانت وجهة الورقة الثانية نقد تجربة نزار وفقا لمعايير لغوية وعروضية، وقد أدار الجلسة د. محمد الأمين محمد



المصطفى، معقبا ببعض الملاحظات على الورقتين. وكانت الجلسة الثالثة فرصة لعرض تجربة الشاعر الموريتاني ناجي محمد الإمام حيث تولت ورقة أعدها الإداري د. محمد أحمد المنى عرض خصائص هذه التجربة التي اغترف صاحبها من روافد مختلفة مركزاً على محورية ثقافة المحظرة في تجربة ناجي، وافتتاً إلى قدرته على مد الجسور مع لغة بودلير ومحاورتها باقتدار، وقدمت ورقة أعدها د. محمد أحمد أحمد إبراهيم جملة من الملاحظات على تجربة ناجي وتساءلت عن مدى وجهة القول بوصف شعره بالرومانسي أو الحدائي. وأدار الجلسة د. محمد الحسن إخليهن.

وفي الجلسة الرابعة من الكرسي التي أدارها د. أحمدو محمد الأمين فال حلق الجمهور الجامعي ليحيط الرجال في رحاب بغداد مستمتعا بجمالية شعر الشاعر الكبير عبد الرزاق عبد الواحد من خلال ورقة قدمها د. محمد الأمين محمد المصطفى اتخذت من المنهج السيميائي أداة لعرض تجربة الشاعر باحثاً عن صدى المتنبي والجواهري في شعره، فيما قدم د. محمذن فال محمد يحظيه ورقة ساءلت تجربة عبد الرزاق من خلال تشريح الصورة الشعرية عنده وتتبع خروجه على نسق الشعرية العربية...

ومن بين الأعراف التي سنّها الكرسي وجود موعد علمي ثابت وجمع المادة المقدمة في العروض لنشرها في كتب علمية محكمة، وستتضمن القائمة الصيفية المكملّة لكرسي هذا العام ندوة عن كل من الشاعرين الكبيرين فاضل أمين والشيخ بانا (أبو شجه).

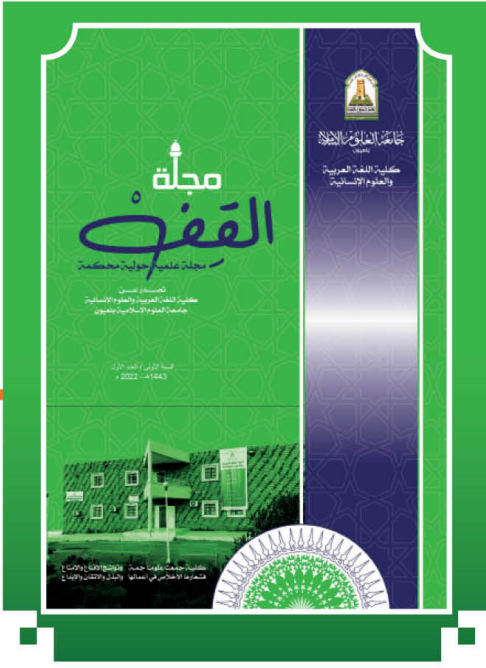
تجربة كرسي فحول الشعر كانت محط إعجاب وترحاب من الساحة الجامعية والأكاديمية، وهو ما تجسد في إشادة معالي وزير الشؤون الإسلامية القاضي د. الداه أعمار طالب، والرعاية والحضور الدائم لرئيس الجامعة البروفيسور محمّدو لمرباط اجيد. وإقرار مجلس إدارة الجامعة للكرسي باعتباره وحدة ضمن الهيكلية الإدارية في الكلية.

كما تلقت إدارة الكرسي رسائل إشادة من الشاعرين الكبيرين أحمدو عبد القادر وناجي محمد الإمام.

قواعد النشر في المجلة

1. «القف» مجلة علمية حولية محكمة تصدر عن كلية اللغة العربية والعلوم الإنسانية في جامعة العلوم الإسلامية بليغون؛ بهدف نشر الإنتاج العلمي في كل مجالات العلوم اللغوية والشرعية والاجتماعية والإنسانية...
2. تستقبل المجلة الأبحاث الأصيلة التي لم يتم نشرها أو تقديمها للنشر من قبل.
3. ترحب المجلة بنشر الترجمات، وملخصات وتقارير المؤتمرات والندوات العلمية والحلقات الدراسية، وعروض الكتب حديثة الصدور في مجالات العلوم الاجتماعية والإنسانية.
4. يقدم الباحث نسخة إلكترونية من البحث كملف واحد Word عبر البريد الإلكتروني للمجلة rev.alghif@gmail.com
5. يكتب البحث على الكمبيوتر مع مراعاة:
 - أن تكون الكتابة على ورقة 17 × 24 سم.
 - يترك هامش 2 سم من الجانبين (يميناً ويساراً)، و 2.5 سم من أعلى وأسفل الصفحة
 - تشغل المساحة المكتوبة داخل الصفحة 13 × 19 سم بعد ترك الهوامش المناسبة من جميع الجوانب.
 - أن تكون الكتابة بخط Simplified Arabic، وحجم الخط (14) لمتن البحث، و(16) بولد للعناوين الرئيسية، و(14) بولد للعناوين الفرعية للبحث.
 - يكون تباعد الأسطر أثناء الكتابة «مفرداً» ويترك سطر بين كل فقرة والفقرة التي تليها.
 - يكتب عنوان البحث صفحة مستقلة وحجم الخط (18) مع ترك سطر مفرد بين أسطر العنوان، ويلى العنوان اسم الباحث وتخصصه وكنيته بالتوالي في منتصف السطر.
 - تبدأ الصفحة الأولى لكل بحث بملخص مكتوب باللغة العربية ويраعى أن يوضح من خلالها الباحث أهداف بحثه ومنهجه وأدواته وأهم نتائجها والكلمات المفتاحية الرئيسية للبحث. ويتبع ملخص البحث في صفحته الأولى مقدمة البحث مباشرة... الخ.
 - يتم كتابة ملخص للبحث في نهايته بلغة أجنبية (الإنجليزية أو الفرنسية) ويأخذ نهاية ترقيم صفحات البحث.
6. تخضع جميع الأبحاث للتحكيم حيث تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالمجلة للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وترسل بعد ذلك إلى المحكمين، مع مراعاة ما يلي:

- يتم اختيار شخصين من جهة علمية مختلفة يعهد إليهما بمهمة التحكيم، على أن يكونا متخصصين في مجال البحث، ويفضل أن يكونا بدرجة أستاذ مؤهل.
- يرسل العمل العلمي إلى المحكمين بصفة سرية بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوءها يتم تقويم العمل العلمي.
- يتولى أعضاء هيئة التحرير متابعة إجراءات التعديل والتحقق من استيفاء التعديلات المطلوبة قبل نشر العمل العلمي.
- ينشر العمل العلمي إذا اجتاز التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، وإذا استوفى قواعد وشروط النشر بالمجلة، ومعايير وأخلاقيات النشر التي يفترض أن تكون محل اتفاق من جميع الأطراف المشاركة في عملية النشر بالأوساط الأكاديمية (الباحث، هيئة التحرير، المحكمون والناشر)، ويعتذر عن نشره في حالة عدم تحقق أي من ذلك.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والتقارير اللقاءات العلمية.
- 7. تعطى الأولوية في النشر للبحوث والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى المجلة، وذلك بعد إجازتها من قبل المحكمين، ووفقاً للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- 8. يلتزم الباحث بتقديم سيرة ذاتية مختصرة تتضمن: الاسم كاملاً، والدرجة العلمية، وجهة العمل، والعنوان البريدي، والبريد الإلكتروني، وأرقام الهواتف من أجل سهولة الاتصال وسرعته .
- 9. لا تنشر المجلة الدراسات التي سبق نشرها بأي صورة من صور النشر، أو قدمت للنشر لجهة أخرى، ويُعدّ إرسالها إلى المجلة تعهداً بذلك من الباحث الذي يلتزم بعدم تقديم الدراسة المرشحة للنشر إلى أي مجلة أخرى حتى يتم إعلامه بنتيجة التحكيم. وفي حال قبولها للنشر في المجلة لا يسمح للباحث بنشرها في مكان آخر.
- 10. لن ينظر إلى الأبحاث التي لا تتفق وشروط وقواعد النشر بالمجلة، أو ترد ناقصة لمُلخص البحث في أي من اللغتين.
- 11. لا ترد أصول الأعمال المقدمة للمجلة سواء قُبلت للنشر أم لم تُقبل.
- 12. تم توثيق المراجع وفقاً لنظام جمعية علم النفس الأمريكية (APA American Psychological Association).



تضمن هذا العدد

1 - كلمة العدد

♦ د. أحمد محمود افاه

2 - الشناقطة وتطبيب الأكفاف بطرائف من آداب الأقفاف؛ (وقفات مع
تطور الأساليب النثرية في أكناف المنشآت المحظرة)
♦ د. محمذن بن أحمد بن المحبوبي

3 - أثر الحرف في فهم دلالات الألفاظ القرآنية؛ الآيات من 260 إلى 264
من سورة البقرة «أنموذجا»
♦ د. محمد فال محمد محمود السالك
♦ أ. محمد محمود الشيخ أحمد

4 - من قضايا الشعرية في التراث العربي (الجاحظ وأبو حيان أنموذجا)
♦ د. محمد الأمين محمد المصطفى محمد أشفاق

5 - وقفات مع الدرس النحوي الشنقيطي
♦ د. محمذن فال ولد محمد يحظيه

6 - الماء والتعمير في صحراء الملثمين من خلال مسالك البكري
♦ د. عبد السلام يحي

7 - البعد البيئي في المخططات الحضرية لمدينة نواكشوط
♦ محمد عبد الرحمن صالح

8 - الفكر الصوفي عند العلامة الشيخ محمد المامي (ت1282هـ) من خلال شعره الفصيح والحساني
♦ أحمد بزيد بارك الله

9 - من مظاهر اللهجات العربية القديمة في القراءات القرآنية والعاميات العربية المعاصرة
♦ د. عبد الرحمن أخيارهم

10 - حضور فلسطين في الشعر الموريتاني المعاصر
♦ د. أبو بكر احميد

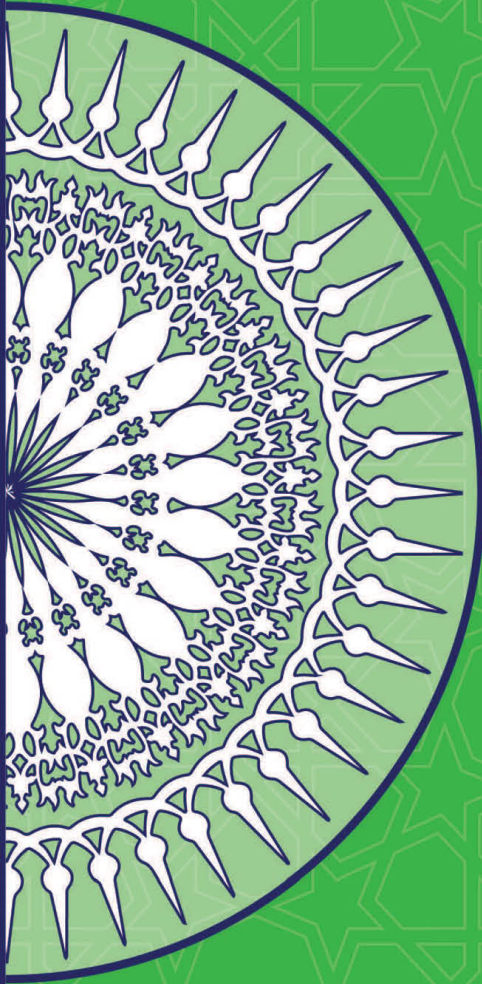
11 - الإسهام العلمي للمرأة الشنقيطية؛ (نماذج مختارة)
♦ د. الزهراء الشيخ

12 - مظاهر التميز في المنهج المحظري
♦ د. محمد بن أحمد بن المحبوبي

13 - المباحث اللغوية التي يحتاج إليها الأصولي في استنباطه الأحكام الفقهية
♦ د. الداوي بن محمد بن ايوه

14 - رفع التعارض عن حديث النبي صلى الله عليه وسلم في موضوع أحكام الشعر في الإسلام
♦ د. محمد محمد الحافظ الراظي

15 - تقرير عن: تجربة «كرسي فحول الشعر العربي المعاصر»



مجلة القَفْز

مجلة علمية حوليات محكمات

تصدر عن:
كلية اللغة العربية والعلوم الإنسانية

جامعة العلوم الإسلامية
بالبعوث

السنة الأولى / العدد الأول
1443 هـ - 2022 م

مطبعة المزاي
Imprimerie Al Mazaya

